

الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤ م

## جيسع جشقوق الطسيع محشفوظة

# 

### جمالبدوان



دارالشروقــــ

### مصرالجديدة

كانت ضاحية مصر الجديدة ، أول امتداد صحى مدروس للتوسع العمرانى الذى شهدته مدينة القاهرة ، في مطلع القرن العشرين . فجاء تأسيسها على نمط الضواحي التي أقيمت حول العواصم الأوربية ، لامتصاص الزيادة الطبيعية في عدد سكانها ، وتلافي حدوث انفجارات داخلية في بنية المدن القديمة . . ويقوم مفهوم الضاحية في عرف علماء العمران على أساس أن تكفل الضاحية لسكانها المسكن الصحى النظيف ، وتوفر لهم كل احتياجات المعيشة الطبيعية من علاج وتعليم وترفيه ، بحيث لا يببطون قلب المدينة إلا مرة واحدة في اليوم ، عن طريق ترام سريع (مترو ) ، يحمل سكان الضاحية في الصباح إلى أعمالهم ويعود بهم بعد انتهاء العمل . . ومعنى ذلك أن التفكير في إنشاء ضاحية مصر الجديدة جاء مصاحبا لظهور الترام في شوارع القاهرة عام ١٨٩٦ ، وما أثاره هذا الترام من طفرة اجتماعية وعمرانية هائلة .

وفى عام ١٩٠٥ ، أسست شركة بلجيكية لإنشاء حى جديد فى المنطقة الصحراوية التى تقع شهالى القاهرة . . والأمر الجدير بالتسجيل والتقدير أن هذه الشركة الأجنبية ـ ومعها الحكومة المصرية ـ اتجهت إلى تعمير الصحراء ، ولم يخطر ببالحا أن تعتدى على المناطق الزراعية المتاخة للقاهرة ، والتى كانت مصدر الغذاء الرئيسي لسكانها . . والمؤسف أن ما حرصت عليه الشركة الأجنبية هى والحكومة الوطنية ـ كان مجال تفريط من جانب الحكومات المصرية بعد ثورة يوليو ١٩٥٧ حيث تركت الحبل على الغارب لظهور الأورام السرطانية فوق الأرض الزراعية في مدينة الأوقاف والهرم وعلى امتداد النيل من بنها إلى حلوان . .

واختارت الشركة البلجيكية منطقة صحراوية ، كان لها وجود تاريخي في العصر البطلمي ، وهي منطقة (هليوبوليس) التي قامت على أرضها جامعة فلسفية تخرج فيها أساطين الفكر اليوناني : أبقراط وأفلاطون وأرسطو وجالينوس ، فضلاً عن نوابغ العلماء في الطب والسياسة والبلاغة والحكمة . . وكان إطلاق اسم هليوبوليس (أي مدينة الشمس) على الضاحية الجديدة بهدف إضفاء الصبغة التاريخية عليها . . ولكن الأهالي استثقلوا الاسم فأطلقوا عليها من تلقاء أنفسهم اسم : مصر الجديدة .

وبدأت الشركة مشروعها العمرانى على مساحة ٢٥ كيلو متر مربعا ، أى ما يوازى حوللى ٢٠٠٠ فدان ، اشترتها من الحكومة المصرية بسعر جنيه واحد للفدان ثم قامت بتقسيمها وطرحها للبيع لمن يريد بسعر أربعين قرشا للمتر الواحد ، على أن تتكفل الشركة بأعهال بناء العهارات والفيلات ، ويسدد الملاك الجدد ثمن الأرض والبناء على أقساط متهاودة بفائدة ٣٪ للأرض و ٥٪ للبناء . . ولقيت الشركة إقبالا منقطع النظير ، لدرجة أنها حين طرحت أسهمها للاكتتاب العام تهافت المصريون والأجانب على شرائها ، حتى تمت تغطية ثمن الأسهم ٨٣ مرة ، منها ٤٥ مرة في الإسكندرية ، وأربع مرات في إنجلترا وبلجيكا ، والباقيات في القاهرة . . وبلغت قيمة الأموال التي جمعتها الشركة أكثر من مليونين ونصف مليون جنيه ، وشرعت الشركة في تشييد المساكن وتأجيرها ، وإغراء أهالي القاهرة على سكن الضاحية الجديدة عن طريق الإعلانات في الصحف في وهذه صيغة إعلان نشرته الصحف في شهر سبتمبر ١٩٠٩ :

د واحة عين شمس \_ هليوبوليس ، للإيجار بجانب الجامع الجديد ، والترامواى الذى سينشأ قريبًا ، بيوت على الطراز التركى ، مؤلفة من ثلاث غرف ، أو أربع وفسحة وفرن ، الأجرة من ٦٠ إلى ١٤٠ قرشا .

ويبرز لنا الباحث المعروف ، محمد سيد كيلانى ، فى كتابه ( ترام القاهرة ) مراحل نشوء هذه الضاحية الجميلة . . فقد بدأ تسيير الترام السريع ( المترو ) سنة مراحل نشوء هذه الضاحية الجميلة ، بالإضافة إلى خط الترام ( الأبيض ) الذى كان ينتهى عند العباسية ، وخط آخر إلى الزيتون . . وكان ثمن التذكرة فى المترو من

ميدان الخازندار إلى مصر الجديدة سبعة مليات للدرجة الثانية ، وعشرة مليات للدرجة الأولى ، ثم زاد بعد الحرب العالمية الأولى إلى عشرة مليات للدرجة الثانية و ١٥ مليا للأولى . . ثم يقدم لنا وقائع الاحتفال الذي أقامته الشركة بمناسبة افتتاح مسجد مصر الجديدة برئاسة الأمير حسين كامل نائبا عن الجديو عباس الثاني وبعض وبحضور جمهور من كبار العلماء والموظفين والأعيان الوطنيين والأجانب وبعض السياح والسائحات . . وبعد تلاوة القرآن الكريم ، وقف بوغوص باشا نوبار ، نائبًا عن رئيس مجلس إدارة الشركة البارون أو مبان ، وألقى خطبة شرح فيها الغرض من إنشاء مدينة صحية في ضواحي القاهرة وسط الصحراء ، تتمتع بجفاف المواء وتتوفر لها كل أسباب المعيشة والرفاهية والاحتياطات الصحية ، وتتصل بالقاهرة بقطارات مريعة تمكن سكانها من الوصول إلى مقار أعمالهم في بضع دقائق . . ( 11 ) .

وقال بوغوص باشا نوبار: «مع أن العمل في هذه الضاحية لم يبدأ إلا من نحو أربع سنوات، فإنه قد ظهرت في عالم الحقائق مدينة عصرية تسطع في أرجائها شموس الكهرباء، ورفعت فيها القصور السامقة وتوفرت فيها أنواع الرياضات، واجتمع لهذه المدينة الحافلة بالسكان ما يربو عدده على ثلاثة آلاف (!!) وهذا العدد يزداد كل يوم زيادة مطردة، ونظرًا إلى أن أغلب سكان مصر الجديدة هم من المسلمين الذين أحلهم في هذا البلد ما وجدوه فيه من أسباب الراحة. رأينا أن نقدم لهم شيئا أجل من هذا كله، فأقمنا لهم مسجدا يؤدون فيه فرائض دينهم وهو المسجد الذي نفتتحه اليوم، وتجاوزنا عن إدارته إلى ديوان الأوقاف؟.

ولم تغفل الشركة عناصر الترفيه والترويح عن سكانها ، فأقامت لهم مدينة للملاهى أطلقت عليها اسم « لونابارك » ، وجعت فيها كل ما هو عجيب ومثير حتى تقاطر عليها أهل القاهرة ، فكانت وسيلة ذكية لجلبهم وإطلاعهم على معالم المدينة الجديدة وإقناعهم بسكناها بدلا من التكدس فى الأحياء القديمة . . وينقل محمد سيد كيلانى وصف صحيفة « المقطم » للدهشة التى علت وجوه المصريين وهم يتنقلون من فرجة إلى فرجة ومن لعبة إلى لعبة . . فكان قوم يمشون فى كهوف وهم يمتزون اهتزازا شديدًا ، بقوة خفية ، قيل إنها الكهربائية ، فيضحكون من رؤية بعضهم البعض ، ويضحكون سائر الناظرين إليهم ، وقوم يمشون على شبه نول بعضهم البعض ، ويضحكون سائر الناظرين إليهم ، وقوم يمشون على شبه نول

الحائك ، فيتحرك بهم إلى الأمام ، وطورًا إلى الوراء ، كأنهم يرقصون وما هم براقصين، وقوم يمشون أمام مرايا مستوية ومقعرة ومحدبة ، فتريهم صورهم مشوهة تشويها مضحكا ، فتارة يكونون صغارا كالقزم ، وتارة طوالا كالجبابرة . . وكلها مروا أمام مرآة ضحكوا وقهقهوا . . وأضحكوا الذين حولهم أيضا . . » .

ولما كانت الأجواء المصرية المشمسة قد شجعت عالم الطيران الفرنسى لويس بيير موليا على أبحاثه ، فقد حرصت شركة مصر الجديدة على تخليد ذكراه فى نصب تذكارى ، ولم تغفل أن تخلد معه ذكرى رائدى الطيران العربيين : الجوهرى وعباس ابن فرناس ، ونقشت على قاعدة النصب تلك الأبيات التى نظمها شاعر النيل حافظ إبراهيم :

إن يركب الغرب متن الريح مبتدعا ما قصرت عن مداه حيلة الناس فإن للشرق فضل السبق نعرفه للجوهرى وعباس بن فرناس قد مهدا سبلا للناس تسلكها إلى السماء بفضل العلم والباس

#### سلطان المادحين

لا أذكر أننى ذهبت إلى الإسكندرية دون أن تقودنى قدماى إلى تلك البقعة الطاهرة من أرضها ، حيث تتلاصق المساجد العنيقة وتنطلق المآذن السامقة كأنها القلاع الساهرة على حماية المدينة . . فهذا مسجد مولاى أبى العباس المرسى سيد الثغر وحارسه بلا منازع ، وإلى جواره مسجد تلميذه ومريده سيدى أبى عبد الله شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد بن محسن البوصيرى ، الذى يعرفه العامة باسم «الأباصيرى» .

ولا أذكر أننى دخلت مسجد البوصيرى دون أن تكتحل عيناى بقراءة « بردته » المسطورة بهاء الذهب على جدران المسجد ـ ولا أذكر أننى قرأت البردة أو سمعتها إلا انسابت من عينى الدموع . . وأرتج القلب واهتز الوجدان . . احتراما وتعظيها وخشوعا لمقام سيدى وسيد البشر أجمعين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

البردة: تلك المنظومة التي فتح الله بها على صاحبها في لحظة من لحظات التجلى، فدخلت قلوب المؤمنين في كل أرجاء الأرض، وشعشعت في نفوسهم كها يشع النور في جنبات الظلام . . من منكم يسمع البردة دون أن يهيم اشتياقا إلى الملأ الأعلى ، ويحن حنينا إلى عالم الطهر والنور . . نحن لسنا بإزاء أبيات من الشعر مرصوصة وهزيلة كها تبنى البيوت في أيامنا . . ولكننا بإزاء عاشق عفيف جرفه الحب الإلمى ، فغاص في بحر الحقيقة وعاد لينثر أمامنا هذه اللائل المشعة حبا وجمالا . . رجل كانت متعته الوحيدة في هذا العالم مدح الرسول ، والتقرب إلى الله بهذا الحب المستكن في شغاف القلب :

ى شفاعته لكل هول من الأهوال مفتحم أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

هو الحبيب الذي ترجي شفاعته ومبلخ العملم فيمه أنه بشمر

ولا تحسبن البردة هي القصيدة الوحيدة التي صاغها البوصيري في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم . فهو صاحب « الهمزية » التي مطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ياسماء ماطاولتها سماء

وكان يعلم أن كعب بن زهير قد حظى بالشرف الأسنى عندما ألقى قصيدته الشهيرة أمام الحضرة النبوية الشريفة ، والتي مطلعها ( بانت سعاد فقلبى اليوم متبول) ، فتهفو نفس البوصيرى إلى هذا المقام الشريف . وتشرئب روحه إلى الطلعة المحمدية فينشئ قصيدة على الوزن والقافية نفسيها اللذين صاغ بها كعب قصيدته ويسميها ( ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد ) ويقول في مطلعها :

لل متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول في كل يوم ترجني أن تتوب غدا وعقد عزمك بالتسويف محلول

وتمضى الأيام ، وينتظر الرحل لحظة التجلى ، كى يطفئ لواعج الظمأ الذى يكوى فؤاده . . ولكن الأيام تمضى ولا يدرك مناه . . فيعلم أنه لا يزال مشغولا بأمور الحياة . . وأن عزيمته لا تزال في حاجة إلى مجاهدة ورياضة . . فلا ييأس . . وإنها يزداد قربا وتوسلا من الحبيب بقصيدة مطلعها :

أمدائح لى فيك أم تسيح لولاك ماغفر الذنوب صفوح

ومرة أخرى ، يطول ليل الرجل ، ويتضاعف عدابه ، وتثقل الهموم قلبه ويعلم أنه لا سبيل إلى غايته إلا بالتجرد عن متاع الدنيا . . فيهاجر إلى الله بقلبه ووجدانه . . عندئذ تتجلى له أنوار الحقيقة . . ويشعر البوصيرى بأنه ولد من جديد . . ويطلق البوصيرى على قصيدته ( البردة ) تشبها بها فعله كعب ، وتطلعا إلى القرب من الذات النبوية . .

يقول الرواة إن البوصيرى نظم قصيدته ، بعد أن أصيب بالشلل ، واستشفع بَها إلى النبى و إلى الله أن يعافيه . . وكرر إنشادها . . ثم نام . . فرأى النبى صلى الله

عليه وسلم يمسح على وجهه بيده المباركة ، وألقى عليه البردة . . فانتبه . . فإذا بالحياة تدب في جسمه المشلول . .

لقد كان الإمام البوصيرى موصول الصلة بالسياء . . ولكنه لم يكن مقطوع الصلة بدنيا الناس . . فبعد تخرجه في الأزهر عمل موظفا بجهاز جباية الضرائب في مدينة بلبيس ، كبرى مدن الشرقية ، في القرن السابع الهجرى . . وهي وظيفة تغرى من يشغلها بأن يصبح من أصحاب الثراء العريض بين عشية وضحاها . . ولكن البوصيرى ـ الشاعر الصوفي الرقيق ـ كان يحمل بين جنبيه قلبا يقظًا وضميرًا حيا ويدا عفيفة . . فنشأ من كل ذلك حجاب بينه وبين المال الحرام . !

ولكن يبدو أنه كان من الصعب على موظف صغير يتمتع بهذا السمو الخلقى أن يمكث طويلا بين حيتان البيروقراطية المصرية التي تستحل الرشوة والاختلاس وترى في نهب أموال الدولة عملاً مشروعا ، لا يوقع صاحبه في دائرة الإثم والتجريم . . فترك البوصيرى جهاز الضرائب ، وتقلب بين عدد من الوظائف الحكومية ، عساه أن يجد الوظيفة التي تكفل له حياة شريفة في إطار القيم التي يعتنقها . . ولكن موجة الفساد الإدارى التي انتشرت في العصر المملوكي ، لم تحقق له أمنيته . . فترك سلك الحكومة ، واتجه إلى العلم والفقه ، بعد أن سجل تجربته في هذه الأبيات :

خبرت طوائف المستخدمينا فكتاب الشمال همو جميعا فكم سرقوا الغلال وما عهدنا

فلم أر فيهمو رجلا أمينا فلا صحبت شمالهم اليمينا بهم فكأنما سرقوا العيونا

\* \* \*

ولكن الشاعر الزاهد لم يجد مبتغاه في مجتمع العلم والعلماء . . واصطدم بتلك الزمرة الفاسدة من أدعياء العلم وتجار الدين ، واكتشف أن هذا المجتمع لا يختلف كثيرًا عن سابقه . . فضاقت نفسه بضعاف النفوس من ذوى الضهائر الميتة الذين يسخرون علمهم لمن يدفع ، ويؤولون نصوص الشرع خدمة لأصحاب الجاه والمال .

عندئذ أدركه اليأس من إصلاح الحال ، فهاجر بدينه إلى الإسكندرية ليجد الملاذ

والأمان والسكينة عند أستاذه ورائده أبي العباس المرسى . . وكانت تلك بداية الطريق الصحيح لمن أراد أن يعيش طاهرا في مجتمع الذئاب .

وللبوصيرى قصائد طريفة ، في وصف أدعياء العلم لا تخلو من روح الفكاهة والسخرية . . وإليك نموذجا منها :

تنسك معشر منهم وعدوا من الز وقيل لهم دعاء مستجاب وقد ملشوا وما أخشى على أموال مصر سوى م

من الزهاد والمتورعينا وفد ملتوا من السحت البطونا سوى من معشر يتأولونا

وأنت تلمس في هذه الأبيات روح السخرية والتنكيت التي كانت ظاهرة واضحة عند كل شعراء مصر الصوفيين . . لقد كانوا على درجة رفيعة من الزهد والورع والتقوى والصلاح . . ولكنهم لم يتخلصوا من مصريتهم الأصيلة في حب الدعابة والمرح . . وليس أدل على ذلك من تلك القصيدة الطريفة التي نظمها الشاعر الصوفى العظيم عبد العزيز الدريني ، وحكى فيها متاعبه وأوجاعه لزواجه من امرأتين ، ظنا أنه سينهل من بحر العسل . . ولكنها اجتمعتا عليه وأذاقتاه طعم الحنظل:

تزوجت اثنتین لفرط جهلی فقلت أعیش بینهما خروفا فجاء الحال عکس الحال دوما رضا هذی یحرك سخط هذی اذا ما شئت أن تحیا سعیدا فعش عزبا و إن لم تستطعه

عسى بزواجهن تسر عينى أنعم بين أكرم نعجتين عذابا مؤلما بين اثنتين نقار دائم فى الليلتين من الخيرات مملوء اليدين فواحدة تكفى عسكرين

### أدب البصل

تفتحت عيناى على صورة شيخ وقور تزين جدران بيتنا . كان الرجل بهى الطلعة . . وسيم الملامح . . مفتول الشارب . . توحى نظراته بالارتياح والثقة فكأنك أمام عم أو خال أو جد . . ولقد ظننت في البداية أنه أحد الأقرباء . . فلما بلغت مرحلة الصبا ، عرفت أنه لا يمت إلينا بصلة الدم . . ولكن بصلة العقل والروح . . فقد كان أبي من عشاق المنفلوطي . . فلما دخلت المدرسة الابتدائية واجهت الصورة نفسها في كتاب المطالعة ، وتحتها عبارات تدوب رقة وعدوبة ، عن الرحمة والتراحم والبوس والبوساء . . وكان على أن أحفظها حتى أستخدمها في صياغة دروس الإنشاء ، فقد كانت الوصية الأولى عند أساتدة اللغة العربية في كل أنحاء مصر : اقرأ المنفلوطي ، ثم اكتب على منواله . . وكلما تقدمت في مراحل التعليم ، ازددت قربا من المنفلوطي . . فقرأت « النظرات » ، ثم « العبرات » ، ثم بقية السلسلة الراقية التي صاغها السيد مصطفى لطفى المنفلوطي : الفضيلة وماجدولين ، وفي سبيل التاج . . حتى بات المنفلوطي جزءًا لا يتجزأ من كياني الثقافي .

وإذا سألتنى عن سر عظمة المنفلوطى ، قلت لك : إنها تتمثل فى قدرته على بث القيم الخلقية الرفيعة ، والآداب السامية ، والمثل العليا ، فى أسلوب محبب إلى النفس وتلك وظيفة الأدب كها كنا نتعلمها .. فأنت أمامه لا تشعر بأنك بإزاء واعظ أو استاذ ، ولكنك بجوار صديق عزيز يمس أوتار قلبك بأصابع حانية . . فلا تلبث ينابيع الخير أن تتفتح فى نفسك لتستقبل معانى الحق والفضيلة والجهال . . مثلها تتفتح الزهرة لتحتضن أشعة الشمس .

وإنت حين تقرأ المنفلوطى ، فإنك فى الواقع لا تقرأ كلاما مرصوصا أو عبارات جامدة . . وإنها تسمع ألحانا شجية تنبعث من قيثارة مستكنة فى أعهاقك . . فتحرك فى نفسك إحساسا بالسمو والارتقاء . . فإذا بك تصعد إلى آفاق علوية . . وإذا بك قد تجردت من نوازع الحقد والجشع والظلم والأنانية . . وإذا بك قد استحلت كاثنا نورابيا يشع بالجهال والطهر والعفاف . .

وظلت رفقتى للمنفلوطى ، حتى بعد أن تخرحت فى الجامعة . . وتعرفت إلى أدباء من الشرق ومن الغرب . . لكل منهم طعمه ومداقه . . وأسلوبه ومنهاجه . . ومع ذلك بقى المنفلوطى مستقرا فى أعهاقى . ألوذ به كلما أجهدنى المسير . . ولسعتنى شدة الحياة . . فأرتشف من نبعه الصافى بضع قطرات تملأ النفس بشرا وأنسا .

وكان أشد ما يؤلنى ، تحامل النقاد على الأدب المنفلوطى . . واتهامه بإشاعة روح الضعف والتحاذل والخور فى نفوس الشباب . . وكان على رأس هؤلاء الناقدين الأستاذ العقاد . . فقد كان من المؤمنين بفلسفة القوة . والمبشرين بفكرة البطولة وقد أزعجه أن رأى كراريس الإنشاء عند تلاميذه \_ وقت أن كان مدرسًا \_ لا تخلو إحداها من و ميزاب دمع أو مأتم شجو وأنين » تأثرًا بأدب المنفلوطى . . وقد بلغت السخرية عند العقاد أن طلب من طباخ المدرسة أن يجمع مخزون البصل عنده ، ثم يقدمه إلى التلاميذ أثناء حصة الإنشاء ليستخدموه فى استدرار الدموع بدلا من أدب المنفلوطى . . » فالبصل أولى بمهمة تصريف الدمع من كراسة الإنشاء » على حد تعبير العقاد .

ولم يكن العقاد فريد عصره فى التحامل على المنفلوطى ، وإتهامه بالإفراط فى البكاء وإشاعة الأحزان فى نفوس قرائه . . فقد شارك فى الحملة كثيرون ، ساءهم أن يكون للمنفلوطى هذا التأثير الكبير عند الشباب ، وأن يكون أدب المنفلوطى حجر الأساس فى تذوق الأدب .

وكان المنفلوطى يتقبل هذه الحملات الظالمة \_ كعهده \_ صابرا راضيا . . ولا يملك حيالها دفعا . . حتى إذا مات لم يجد أحدا يشيع جثمائه . . فقد شاء القدر أن يملك حيالها دفعا . وهو يوم الاعتداء على حياة زعيم الأمة سعد زغلول يلقى وجه ربه فى يوم عصيب . . وهو يوم الاعتداء على حياة زعيم الأمة سعد زغلول

فى ١٢ يوليو ١٩٢٤ . . فقد اتجهت جموع الشعب نحو محطة القاهرة لتطمئن على حياة زعيمها ، ونسيت أديبها الكبير . . وقد لفتت هذه المفارقة نظر أمير الشعراء أحمد شوقى ، فأنشد مخاطبا المنفلوطى :

اخترت يوم الهول يوم وداع ونعاك في عصف الرياح الناعي هتف النعاة ضحى فأوصد دونهم جرح ( الرئيس ) منافذ الأسهاع من مات في فزع القيامة لم يجد قدما تشيع أو حفاوة ساع

## قصيدة الاستقبال

عاد الخديو عباس حلمى الثانى ، من رحلة الحج عام ١٩٠٢ ، فوجد فى استقباله قصيدة مجهولة المؤلف من أعنف شعر الهجاء ، وأقوى ما قيل فى التهجم على الأسرة العلوية التى اعتبرها الشاعر نكبة على مصر والمصريين ، وأخذ يعيرها بأصلها الوضيع فى ( قولة ) ، وينهال على عباس تهكها إذ طمح فى أن يكون خليفة للمسلمين ! وذاعت القصيدة على ألسنة الناس ، وباتت حديث المقاهى والمنتديات بعد أن قرءوها على صفحات مجلة ( الصاعقة ) التى كان يصدرها الصحفى أحمد فؤاد ، المشهور بالصاعقة ، سبة إلى صحيفته التى تخصصت فى أقدع ألوان الهجاء والسخرية .

يقول كاتب القصيدة التي دخلت تاريخ الأدب الحديث باسم قصيدة «الاستقبال»، مخاطبا الخديو بعد قدومه من الأقطار الحجازية:

قدوم ، ولكن لا أقول سعيد يذكرنا مرآك أيام أنزلت رمتنا بكم « مقدونيا » فأصابنا فلما توليتم طغيتم ، وهكذا أعباس ترجو أن تكون خليفة فيا ليت دنيانا تزول وليتنا

وملك وإن طال المدى سيبيد علينا خطوب من جدودك سود سهام بلاء وقعهن شديد إذا أصبح ( القولى ) وهو عميد كها ود آباء ورام جدود نكون ببطن الأرض حيث تسود

وثارت ثائرة الخديو ، وطلب من سلطات التحقيق أن تباشر مهامها ، فألقت القبض على صاحب المجلة ، فقال إنه لا يعرف اسم مؤلف القصيدة ، وادعى أنه نقلها سمعا عن الأديب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطي . . وبعد القبض على

المنفلوطى نفى أنه ناظم القصيدة . ولكنه لم يكشف النقاب عن اسم صاحبها . . وإزاء هذه المعلومات المبتورة لم تجد النيابة بدا من تقديمهما إلى المحاكمة ، فكان نصيب كل منهما السجن ستة شهور مع النفاذ .

ولم يقنع عباس الثانى بهذه النهاية ، وانصرف همه إلى معرفة المؤلف المجهول . . وكان عباس كأى حاكم شرقى يعتمد على الجواسيس اللين ينقلون إليه همسات الناس فى مخادعهم . . كما كان بارعا فى تدبير الدسائس والمؤامرات ، وهو الذى وصفه اللورد كرومر بأنه كان أستاذًا فى هذا الفن . . وأطلق عباس عيونه فى سوق الأدب ، حتى عرف أن كاتب القصيدة ، هو السيد توفيق البكرى ، شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، ونقيب الأشراف ، وزعيم بيت السادة البكرية ، أحد بيوت العلية الذين يحظون بشرف الانتساب إلى الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه ويضعون أنفسهم فى منزلة تضارع منزلة البيت المالك نفسه ، إن لم تعل عليه .

وكان توفيق البكرى أديبا وشاعرا وباحثا ، يجمع بين الثقافة العربية الرصينة والثقافة الغربية الحديثة . . وقد تلقى تعليمه المبكر في المدارس الأجنبية ، جنبا إلى جانب عباس حلمى ، وغيره من أمراء البيت العلوى ، وإن كانت هذ الزمالة القديمة لم تمنع سليل بيت الصديق من أن يطمح إلى ما هو أكبر من المناصب الدينية الرفيعة . . ويرنو إلى عرش مصر . . وكان قصره الفخيم بالخرنفش مثابة يؤمها علية القوم ، وسفراء الدول الأجنبية ، وعلى رأسهم المعتمد البريطانى . . يحرصون على غشيانه ، في المناسبات والأعياد الدينية ، حرصهم على الذهاب إلى قصر عابدين . . ولقد أدت كل هذه الملابسات بنقيب الأشراف إلى أن يعامل صاحب العرش معاملة الند للند ، وليس معاملة التابع لسيده . . وكان عباس من جانب يرقب بحدر مطامح النقيب وما يمثله من خطر على عرش تنوشه سهام الاحتلال من جانب ودسائس الخلافة من جانب آخر . . ولكن ماذا عساه أن يفعل مع رجل هذه مكانته ؟ !

\* \* \*

لقد كان من العسير على الخديو عباس ، أن يعامل عميد البيت البكرى معاملة السوقة حين يتطاولون على الذات العلية . . فهؤلاء ينتظرهم سيف القانون . .

أما هذا السيد السند ، فلا مناص من أن يكون جزاؤه متكافئًا مع منزلته السامية . . وكانت جعبة عباس عامرة بشتى ألوان الدسائس التى تناسب كل المستويات . . فكان حظ النقيب دسيسة مفادها الحط من كرامته ، وتلويث سمعته الخلقية عنه أتباعه ، وإسقاط هيبته الدينية عند من يراهنون به في مجال السيادة والشرف ، سوا في عاصمة السلطة الشرعية (إستانبول) أو عاصمة السلطة الفعلية (لندن) . . وجادت قريحة الخديو بفكرة خبيثة ، فأوعز إلى أحد أدباء القصر أن يستدرج البكري إلى كتابة قصيدة في أحد موضوعات الغزل الفاحش ، وإليكم تفاصيل المؤامرة ، كي يرويها شيخنا عباس محمود العقاد :

كان حفنى ناصف ، أقرب الأدباء صلة بالسيد البكرى ، ينشده ويستمع إليه . فلها ذهب يزور السيد ، وأقبل هذا ينشده من جديد نظمه ، تعمد حفنى أن يستثيره وقال له : أيها السيد ! إنك عن لا ينبغى لهم الشعر ، فدعه لنا ، وحسبك فخار الشرف والجاه ! وحمى غضب السيد ، فتحداه أن يجاريه فى نظمه إن استطاع . . وقبل حفنى التحدى على شريطة أن يكون موضوع القصيدة شخصيا لا يستعار من ناظم آخر ، فى باب من الغزل المحظور . . فكتب البكرى أبياتا فى المعنى المقترح بخطه ، وكتب حفنى أبياتا فى معناها . . ثم أخذ أبيات البكرى فأظهر الاعتراف برجحانه عليه فى فن الشعر ، فوق رجحانه عليه فى الحسب فأظهر الاعتراف برجحانه عليه فى فن الشعر ، فوق رجحانه عليه فى الحسب اللهملات . . ولكنه مزق ورقته ، وأبقى الورقة الأخرى فى جيبه . . ثم أسرع بها إلى القصر ليسلمها إلى الخديو ، فأسلمها الخديو إلى لورد كرومر فى أول لقاء بينها . . القصر ليسلمها إلى الخديو ، فأسلمها الخديو إلى لورد كرومر فى أول لقاء بينها . . فكانت آخر العهد بدعوة السيد البكرى إلى حفلات الوكالة البريطانية . . وآخر عهد فكانت آخر العهد بدعوة السيد البكرى إلى حفلات الوكالة البريطانية . . وآخر عهد في العارة العلية من رجال الدولة لقصر الجزيرة العهد بدعوة السيد البكرى الم

## دنشواى الصغيرة

ينفرد حادث دنشواى ( ١٣ يونية ١٩٠٦ ) بمكانة خاصة فى تاريخ الكفاح المصرى ، بسبب الفظائع التى ارتبطت به ، والبشاعة التى تم بها تنفيذ أحكام الجلد والشنق فى الفلاحين المصريين ، على مشهد من أهليهم فى أحد أجران القرية البائسة . . فظل دوى الحادث يتردد فى أنحاء مصر والعالم حتى أفاق المجتمع الدولى على وحشية الاحتلال البريطانى . واستخدامه أحط وسائل القمح والتنكيل بالفلاحين العزل . . وكان حادث دنشواى من الأسباب الرئيسة التى عجلت برحيل جبار الاحتلال إيفلين بيرنج \_ الشهير باسم لورد كرومر \_ عن مصر فى العام التالى مباشرة . وصدق فيه قول أمير الشعراء أحمد شوقى :

أيامكم أم عهد إسهاعيلا ؟ أم أنت فرعون يسوس النيلا ؟ أم حاكم في أرض مصر بأمره ؟ لا سائلاً أبدا ولا مسئولا ! يامالكا رق العباد بباسه هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا ! لما رحلت عن البلاد تشهدت فكأنك الداء العياء وبيلا

ولكن تاريخ مصر الحديث ، ينطوى على حادث شبيه بحادث دنشواى ، دون أن يكون له حظ شهرته . . ربيا لأن حادث دنشواى الصغيرة وقع بعد خس سنوات فقط من كارثة الاحتلال ، وهى الفترة التى بلغ فيها الاحتلال ذروة عنفوانه ، وخمد بالتالى صوت المقاومة الوطنية . . وربيا لأن الأحكام التى صدرت عقب حادث دنشواى الصغيرة ، خلت من أحكام الإعدام ، وهو الفارق الرئيس بين الحادثتين وباستثناء هذا الفارق ، فقد تطابقت وقائعها جملة وتفصيلا .

وقد بدأت أحداث دنشواى الصغيرة ، في أصيل يوم ٢٧ مارس ١٨٨٧ ، عندما

توجه ضابطان من جيش الاحتلال من لواء ويلز لصيد السهان في الحقول المتاخمة لأهرامات الجيزة . وأثناء الصيد أصاب الرش بعض الأهالي الذين تصادف مرورهم على ظهور الجهال . . فتوجهوا نحو الضابط المعتدى ، فحاول منحهم بعض البقشيش ، ولكنهم رفضوا محاولة الاسترضاء ، ودارت بين الطرفين مشادة حامية هجم أثناءها الفلاحون على الضابط لانتزاع البندقية من يده ، ولكن دفعة من الرش انطلقت واستقرت في رأس أحد الفلاحين فأردته قتيلا . . وسرعان ما طار الخبر إلى أهالي قرية في الكنيسة » ، فهرع أهل القرية إلى موقع الحادث ، وانقض أهل القتيل على الضابطين ، فأطلق أحدهما بندقيته فأصابت أشخاصا آخرين ، ولكن الأهالي تغلبوا عليها واقتادوهما إلى القرية ، حيث انهالوا عليهما ضربا . . ثم تدخل الحفواء لحماية الضابطين ، حتى وصول رجال البوليس ، وأطلقوا سراحهما .

وبمجرد وصول أنباء الحادث إلى علم السلطات البريطانية ، توجه كولز باشا نائب مفتش عام البوليس ، على رأس مفرزة من رجال البوليس العلني والسرى وقاموا باعتقال ٤٥ شخصا من مشايخ وأهالي القرية ، اشتبه في اشتراكهم في الحادث. . وعقد نوبار باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية اجتماعا طارئا ، حضره وزير الخارجية ، ومدير الجيزة ، وشفيق بك منصور نائب المدعى العام لدى المحاكم الأهلية ، للتشاور فيها ينبغي عمله لاسترضاء سلطات الاحتلال . . واستقر الرأى على أن يعهد بالقضية إلى محكمة مخصوصة ، تشكل من مدير الجيزة ، ونائب المدعى العام ، وضابط إنجليزي كان يشغل منصب الملحق العسكرى .

ويعلل الدكتور محمد جمال الدين المسدى في كتابه عن (دنشواى) إحالة القضية إلى محكمة مخصوصة بعدة أسباب: منها عدم الثقة في إمكان خضوع المحاكم الأهلية للضغط، وإصدار أحكام فيها ترضية كافية لسلطات الاحتلال.. كما كان يفترض أن تتعرض تلك المحاكم لمسئولية الضابطين عن الحادث، ثما يجعل المحاكمة عامل إثارة ضد الاحتلال البريطاني في مصر.. يضاف إلى ذلك أن سلطات جيش الاحتلال ، كانت تصر على أن تلقى الحناقات بين المصريين وأفراد جيش الاحتلال معاملة خاصة ، تكفل السرعة والشدة في توقيع العقاب.

ورغم أن تقرير الطبيب الشرعى عن تشريح جثة الفلاح القتيل ، قد أسفر عن

( في الساعة الثالثة من بعد ظهر الخميس ، اتجهت فصيلتان من لواء ويلز الذي ينتمى إليه الضابطان اللذان وقع عليها الاعتداء ، إلى القرى التي ينتمى إليها المحكوم عليهم ، واصطفوا لمشاهدة تنفيذ الأحكام . . كان هناك أيضًا بليغ بك على رأس البوليس السوارى المصرى ، والنقيب فريهان على رأس بعض رجال البوليس الحربي البريطاني ، وهم مجموعة من الرجال فارعى الطول ، تم اختيارهم من بين فرق الفرسان المختلفة . . وقد قيد المحكوم عليهم إلى العروسة المعروفة ، ونفذ فيهم أحكام الجلد سجانون إنجليز أشداء من سجن الجيزة . . وكان التنفيذ علنا على مشهد من الفلاحين بالقطة الإنجليزية . . وبعد أن تم جلد بعض المحكوم عليهم عليهم أمام أهالي القرية . . وبعد أن تم تنفيذ أحكام الجلد ، ألقى قائد لواء ويلز عليهم أمام أهالي القرية . . وبعد أن تم تنفيذ أحكام الجلد ، ألقى قائد لواء ويلز حضروا إلى مصر لحاية الأوربيين بالإضافة إلى حفظ علية الوطنين ، وإنهم بذلوا دماءهم في سبيل هذا البلد وتملؤهم الرغبة في حفظ النظام فيها . . لذلك فلو وقعت اضطرابات أخرى ، فإن المتسبين فيها سيلقون عقابا أشد بما لقيه المحكوم عليهم » .

وعقب مراسل الصحيفة الإنجليزية على الحادث بقوله: إنه بمجرد بدء موسم الصيد ، يهرع الأوربيون من مختلف الجنسيات إلى الحقول ، ويتلفون مزروعات الفلاحين . . وقد تكررت شكوى الفلاحين من ذلك دون جدوى ، لأن الامتيازات الأجنبية تحول دون عمل شيء . . وهذا ظلم صارخ . . ثم أضاف : « وقد سمعت

اليوم أن بعض مشايخ القرى قالوا إنهم سيشنقون بدون رحمة أول أوربى يسىء التصرف ، وهو يصطاد ، وذلك ، انتقاما لما حدث للأهالى . . » .

ويبدو أن تقسيم الحظوظ ، يبطبق على حوادث التاريخ ، كما يجرى على البشر فقد اندثر حادث دنشواى الصغيرة من ذاكرة التاريح ، ولم يحفل به أحد من الباحثين باستثناء الدكتور المسدى ، وبقى حادث دنشواى الكبيرة ماثلا فى الأذهان محفورًا فى وجدان المصريين ، يذكرهم دائما بالتضحيات الجسيمة ، التى بذلوها دفاعا عن أموالهم وكرامتهم وأعراضهم .

## نشأة الأحزاب المصرية

كان فى مصر ـ قبل ثورة ١٩١٩ ـ ما لا يقل عن عشرة أحزاب سياسية توالى ظهورها بدءًا من عام ١٩٠٧ ، ولو أن الساحة المصرية قد شهدت محاولات مبتسرة لتشكيل أحزاب سياسية فى غضون الثورة العرابية مثل (جعية مصر الفتاة) و(الحزب الوطنى) القديم ، وكلاهما كان يضم نخبة المثقفين والضباط الذين حملوا فى قلوبهم حلم الثورة والإصلاح . . ولكن هذه التشكيلات المبكرة لا ينطبق عليها وصف الحزب السياسى بالمفهوم الليبرلل ، على النحو الذى عرفته أوربا الحديثة باعتبار الحزب وجعية تم تنظيمها على أساس تحقيق مبدأ معين أو بلوغ غاية سياسية بعينها ، وذلك بواسطة السيطرة على الحكم بالوسائل الدستورية » .

هذا المفهوم الليبرلل للأحزاب السياسية ، لم تعرفه مصر عمليا إلا في مطلع القرن الحالى ، وإن كانت الظاهرة التي تستلفت النظر ، هي أن كبار هذه الأحزاب ولدت في أحضان الصحف الوطنية التي كانت تصدر بالفعل قبل سنوات من نشأة الأحزاب . . وكانت الصحف قد ضربت جذورها في التربة المصرية ، وهيأت الأرض لاستقبال النبت الجديد . . وبذلك كانت الصحف بمثابة الرحم الذي تخلقت فيه نطفة الأحزاب السياسية ، حتى حان وقت مخاضها ، مما يؤكد أهمية الدور التاريخي للصحافة المصرية في ظهور الأحزاب .

فصحيفة (المؤيد)، التي أصدرها الشيخ على يوسف، عام ١٨٨٩، أفرزت حزب (الإصلاح على المبادئ الدستورية) الذي لم يظهر إلى الوجود رسميا إلا في ٩ ديسمبر ١٩٠٧. وصحيفة (اللواء) التي أصدرها الزعيم الشاب، مصطفى كامل عام ١٩٠٠، سبقت إعلان قيام (الحزب الوطنى) بسبع سنين . . وكذلك

(الجريدة) التى نطقت باسم كبار ملاك الأراضى ، وجماعة المثقفيين المتغربين كانت الوجه الوحيد المعبر عن (حزب الأمة) ، الذى لم يتعد نفوذه الصالون الأنيق المخملي الدى كان يتردد عليه قادة الحزب .

وإذا كان من المستحيل نشوء الأحزاب السياسية من فراغ ، فقد وقعت أحداث هامة ، جعلت من ظهور الأحزاب ضرورة تاريخية للقيام بدورها في مرحلة زمنية معينة . ويضع المؤرخون حادث (طابا) في عام ١٩٠٦ علامة البداية لولادة الأحزاب المصرية ، عندما حاولت تركيا سلخ طابا عن السيادة المصرية ، فتدخلت إنجلترا لإحباط المحاولة وإنقاء الحال على ما هو عليه ، ومع ذلك وقف الرأى العام المصرى إلى جانب تركيا ضد إنجلترا . . !!

وكان هذا الموقف الغريب \_ فيها يرى أستاذ الصحافة الدكتور عبد اللطيف حزة - دافعا لعدد كبير من المثقفين المصريين إلى إصدار صحيفة مصرية ، تنطق بلسان مصر وحدها ، دون أن يكون لها ميل خاص نحو تركيا ، أو إحدى السلطتين الشرعية ( الخديو ) والفعلية ( الاحتلال ) ، وأن تكون ملكا لشركة من الأعيان أصحاب المصالح الحقيقية ، الذين ظن كرومر أنهم راضون عن الاحتلال . . وهكذا ولدت ( الجريدة ) كرد عملي على حادث طابا . . وبعدها بأيام ولد حزب الأمة في ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ . ولكن الدكتور يونان لبيب رزق ، أستاذ التاريخ الحديث ، يرى أن اتحاذ حادثة معية كأساس لظهور فترة جديدة من الحياة السياسية تختلف عن الفترة السابقة ، إنها هو إغفال لطبيعة التطورات التي تمخضت أخيرًا عن هذا التغيير، أو جهل بها ؛ وبناء على ذلك ، يرى أن نشأة الحياة الحزبية ف مصر كانت في النهاية نتاجا وتعبيرا عن تطورات اجتماعية وتغييرات فكرية واضحة . وهو لا ينكر أهمية حادث طابا كسبب مباشر في ظهور الأحزاب ولكنه يضيف إليه أحداثا سياسية واقتصادية ، منها خطاب الوداع الذي ألقاه لورد كرومر في حفل تكريمه ، بعد عزله عن منصب العميد ؛ فقد كشف في خطابه عن حقيقتين كان لهما أثرهما في تحريك نوازع القلق في نفوس المصريين: فلأول مرة أعلى عشل الاحتلال أن الاحتلال باق إلى الأبيد ، وأن الحكومة البريطانية ستبقى مسئولة عن إدارة الشئول المصرية . . وكان من الطبيعي أن تستثير هذه المفاجآت حماس أولئك الذين لم يكونوا مقتنعين بأهمية قيام أحزاب سياسية ، وأعرب الشيخ على يوسف في خطاب على عن أن أهم أسباب إنشاء حزب الإصلاح ، ما ورد في خطاب كرومر .

ومن الحوادث التي كانت سببا في التعجيل بظهور الأحزاب ، تلك الخطبة النارية التي ألقاها مصطفى كامل في ١٤ سبتمبر ١٩٠٧ ووجه فيها أعنف الكلمات إلى رئيس وزراء بريطانيا ، وتساءل عها إذا كانت إنجلترا « تصر على العناد ، وتجاهد ضد أمة تفيض بالحياة ومصممة على نيل حريتها » . . وكان من أثر هذه اللهجة العنيفة أن أثارت مخاوف كبار ملاك الأراضى ، وقد اشتموا فيها رائحة الثورة العرابية ، وما تحمله من مخاطر على مصالحهم التي ترسخت في ظل الاحتلال ، مما دفعهم إلى سرعة التحرك . . ولم يمر أسبوع على ذلك الخطاب ، حتى أعلن هؤلاء الأثرياء قيام حزب الأمة ، لمواجهة تطرف مصطفى كامل .

ولم تكن الدوافع الاقتصادية بعيدة عن العوامل السياسية في نشأة الأحزاب المصرية ؛ ففي عام ١٩٠٧ ، أمسكت الأزمة الاقتصادية بخناق البلاد بسبب جفاف السيولة النقدية ، مما أدى إلى إفلاس بعض المؤسسات المالية إلى جانب الخراب المالى الذي أصاب كثيرًا من الملاك الزراعيين الذين ضاربوا في البورصة . . وقد أراد هؤلاء المضاربون أن يضعوا مسئولية الأزمة على كاهل صاحب (اللواء) ، وإنهامه بالإثارة والتهييج ، مما أدى في رأيهم إلى انعدام الثقة باقتصاد البلاد .

وكرد فعل لهذه الأزمة وملابساتها ، ظهر (حزب الأحرار) ، لصاحبه محمد وحيد الدين بك الأيوبي ، في ١٨ مارس ١٩٠٨ ، فكان بمثابة « الصورة السلبية » للحزب الوطني من حيث النشأة والكيان والبرنامج والتصرفات . . كان مصطفى كامل يهاجم كرومر بشراسة ، فظهر الأيوبي ليرد على هجوم مصطفى كامل ويصفه بأنه «جرثومة التعصب والفتن » . . ومن حيث البرنامج ، فقد اشتمل برنامج الحزب على ست نقاط تدعو كلها إلى المسالمة الكاملة للمحتلين الإنجليز وبقائهم في البلاد بهدف الاستفادة منهم (١١) .

وفيها يتعلق بكيان هذا الحزب العجيب ، يقول الدكتور يونان إن الحزب لم يكن له كيان على الإطلاق ، ولم يكن له جماهير أو أعضاء ، باستثناء رئيس الحزب وحيد بك

الأيوبى ووكيله محمد مك نشأت . . وبالرعم من أن بعض الصحف قدرت وقتئد مجموع أعضاء الحزب بعشرين عضوا فقط !! إلا أن صاحب الحزب أنكر أن للحزب أعضاء على الإطلاق فيها عداه ووكيله نشأت بك . . وكان بعض الناس قد طلبوا الانضهام إلى الحزب ، فأجابهم وحيد بك بأن كل من يريد الانضهام إليه ، ما عليه إلا أن ينضم إلى الحزب بقلبه ووطنيته الصحيحة الرشيدة ، ويسعى في نشر مبادئ الحزب خدمة لوطنه (!!) .

هذا نموذج لبعص الأشخاص الذين أصابتهم (حمى) تشكيل الأحزاب في مطلع القرن ، على حد تعبير الدكتور أحمد زكى الشلق ، حيث بلغت هذه الحمى حدا جعل كل مجموعة من الأفراد يلتفون حول مصلحة فئوية أو مهنية يقيمون حزبا . ومن المؤكد أنك سوف تبتسم حين تقرأ في صحيفة ( الأخبار ) بتاريخ حزبا . ومن المؤكد أنك سوف تبتسم حين حقوق قرية ( الفكرية ) مركز ( أبو » قرقاص . .

## حزب النبلاء والحزب الجمهورى

شهدت السنوات الأولى من القرن العشرين ، مولد حركة البعث الجديد التى عمت أرجاء البلاد بعد طول رقاد . . لقد انتفضت مصر الخالدة من سباتها ، ومزقت أستار الخمول التى سادتها فى أعقاب الاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢ . . وكان الظن أن مصر استسلمت نهائيًا لقدرها ، وأن سطوة الاحتلال قد قضت على عناصر القوة والمقاومة الكامنة فى الشعب واستنام الإنجليز إلى هذه الفكرة الخاطئة ، وأطلق كرومر صيحته المشهورة بأن الاحتلال باق إلى الأبد . ولكن هذا الداهية ـ الذى قضى فى مصر حوالى ربع قرن ، قام خلاله بإعادة تشكيل الحياة المصرية بها يضمن دوام الاحتلال ـ خانه ذكاؤه ، فلم ينظر إلى النار التى كانت تتوهج تحت الرماد ، ولم يفطن الى التفاعلات التى كانت تتوهج تحت الرماد ، ولم يفطن قوى اجتماعية جديدة ، وتيارات فكرية حديثة ، عبرت عن نفسها عن طريق قوى اجتماعية جديدة ، وتيارات فكرية حديثة ، عبرت عن نفسها عن طريق الأحزاب السياسية والصحف والنوادى وغيرها .

لقد شهدت هذه الفترة الخصبة فى مطلع القرن العشرين ، صداما علنيا بين القديم والحديث ، ومعارك سافرة بين القوى الرجعية التى تتشبث بمصالحها وامتيازاتها الموروثة ، والتيارات الجديدة التى كانت تسعى إلى كسب أرض جديدة وتحلم بقيام نظام سياسى واجتهاعى حديث ، يختلف فى تركيبه عن صورة المجتمع فى القرن التاسع عشر .

وكانت الأحزاب السياسية ، هي المظهر العملي لهذه المعركة المحتدمة بين القديم والحديث . . كان كل منهما يعبر عن نفسه عن طريق التشكيلات الحزبية ، ومعها الصحف التي كانت بمثابة منابر للرأى في شتى الاتجاهات . فلم يكن غريبا أن

يظهر حزب يمثل الشراذم التركية والشركسية ، وقد شعرت بأفول نجمها وزوال سلطانها أمام الأرستقراطية المصرية المتنامية . . وفى نفس الوقت يظهر حزب جرىء يدعو إلى إلغاء نظام الحكم الملكى والدعوة إلى النظام الجمهورى ، دون اكتراث بعرش الأوتوقراطية العتيد ، ويتربع على عرشها عباس حلمى الذى اكان امتدادًا لنظام الحكم المطلق الذى ساد مصر منذ مثات السنين .

#### \* \* #

كان ( حزب النبلاء ) هو الارتعاشة الأخيرة في جسم الأرستقراطية التركية ، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة مع اندلاع ثورة ١٩١٩ . . ففي سبتمبر ١٩٠٨ أعلن حسين حلمى زاده وصديقه محمود طاهر حقى عن تأسيس هذا الحزب ، برئاسة الأول وسكرتيرية الثاني ، وهما من خلاصة الترك جنسا ومزاجا وهوية ، وقد أفزعهما ما تعرض له بنو جنسها من انكماش إزاء النزعة المصرية المتعاظمة فلم يجدا من وسيلة سوى الإعلان عن تشكيل حزب يحمل اسم ( النبلاء ) تعبيرًا عن مصالح هذه الفئة المستعلية التي توارثت الامتيازات بحكم انتهائها إلى الطبقة الحاكمة وارتباطها الماشر برأس الدولة . . بل إن السبب المباشر لقيام هذا الحزب هو تلك الحملة الشعواء التي شنتها صحف الحزب الوطني على الخديو عباس ، والتي بلغت ذروتها بمقالات نشرها الزعيم محمد فريد في اللواء تحت عنوان « ماذا يقولون ؟ ، ، وبها نشره أحمد حلمي في جريدة ( القطر المصرى ) من مطاعن في أسرة محمد على . وبرغم أن أحمد حلمي نشر هذه المطاعن نقلا عن حريدة ( العدل ) التركية ، إلا أن النقل لم يحل دون تقديمه إلى المحاكمة ، والحكم عليه بالحبس لمدة سنة ، فكان أول صحفى مصرى يسجن بتهمة العيب في الذات الملكية . . ولما كان الخديو هو زعيم الأرستقراطية التركية ، فقد كان من الطبيعي أن يهب بعض الترك للدفاع عنه وعن الدولة العلية (الأم) ، التي يدين لها جميعهم بالولاء والانتهاء، عن طريق كتابة المقالات الحماسية في صحيفة (المؤيد).

وإذا كان صحيحا أن حزب النبلاء ، كان حزبا بلا جماهير ، وبلا وجود حقيقى في الساحة السياسة ، إلا أن مجرد الإعلان عن قيامه يمثل دلالة تاريخية عن حالة الأرستقراطية التركية ومحاولتها المستميتة لإثبات وجودها قبل أن تجرفها دوامة الوطنية المصرية .

أما الحزب الجمهورى فهو النقيض الطبيعى لحزب النبلاء . . وقد وردت أول إشارة عن قيام هذا الحزب ، في جريدة إلا جبشيان جازيت ، عندما ذكرت أن جماعة من الوطنيين يبحثون إنشاء حزب يدعو إلى الجمهورية . وتلقفت النبأ جريدة (الأخبار) لصاحبها أمين الخازن السورى ـ وكانت في الصف المعادى للخديو عباس ـ وأعلنت عن ترحيبها الشديد بقيام الحزب ، \* على أساس أن الحكومة الجمهورية أقرب الحكومات إلى مبادئ العدل والإنصاف ، وأكثرها مراعاة لكرامة الإنسان » . . وكان هذا الترحيب مشجعا لمؤسس الحزب \_ محمد غانم ـ للكشف عن نفسه وبعث إلى ( الأخبار ) بعدة مقالات أوضح فيها أفكاره ، فنجح في استهالة بعض أنصار الأحزاب الأحرى إليه .

وفى رأى مؤرخى الأحزاب السياسية المصرية ، أن هذا الحزب تكون أساسا من مجموعة من المثقفين الذين تأثروا بالثقافة الفرنسية . ويبدو ذلك واضحا من شعارهم الذى استمدوه من شعار الثورة الفرنسية : «حرية إخاء مساواة» . وبلغ من اعتدادهم بالثورة الفرنسية أنهم كانوا يشاركون الجالية الفرنسية احتفالها بعيد ثورة لا يوليو في حديقة الأزبكية . وكان أصحاب هذا الحزب يرون أن تدرج الأمة الطبيعي يمر بثلاث مراحل : أولاها نيل الدستور . وثانيتها الاستقلال التام الخالص من محاولات التسلط الخارجي سواء أكانت بريطانية أم تركية . وثالثتها أن تبلغ الحركة الوطنية قمة نضجها فتعلن الجمهورية « وهو أرقى المطالب وأعزها على النفس الوطنية العالمة ) .

ويصف الدكتور يونان لبيب رزق الحزب الجمهورى ، بأنه كان حزبا راديكاليا بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالة التغيير . . ويستدل على ذلك بعدة شواهد منها : أن الحزب اتخل موقفا عدائيا صريحا من حكم أسرة محمد على ، ولم يجبن عن الهجوم عليها هجوما شديدا ، في الوقت الذي كانت فيه الأحزاب الأخرى تحرص على أن يكون خلافها مع الخديو ضمن حدود معينة لا تصل إلى حد الاتهامات . . كان محمد غانم يهاجم محمد على هجوما عنيها ، ويصفه بأن ا همه في جميع أعهاله كان طلب المنفعة لشخصه ، وحصر الملك والثروة في ذريته ، فنجح في سعيه ، وترك عائلة متشعبة الفروع ذات ملك واسع وثروة طائلة ، ولكنها لم تأخذ الحيطة لصيانة

هذا الملك ، وأصبحت في الحالة التي نراها الآن » . ويهاجم أحد أعضاء الحزب واسمه « محفوظ » الحديو إسهاعيل ، ويؤكد أنه اغتصب مليونا وربع المليون فدان من مجموع أراضي مصر ومساحتها ٥ ملايين فدان .

ويرى الدكتور يونان أن الحزب الجمهورى ، هو الحزب الوحيد الذى لم يخرج من دائرة ( الأعيان والمثقفين ) ، وأن مؤسسى الحزب كانوا من جماعات المثقفين الذين ليست لهم انتهاءات طبقية بجهاعات الأعيان . وكانت صحيفة ( الأحرار ) لصاحبها وحيد بك الأيوبى تفتح صدرها لكتاب الحزب الجمهورى ، وهم يهاجمون الأسرة العلوية ، فلها امتد هجومهم إلى الاحتلال البريطانى ، أوصدت الصحيفة الباب فى وجوههم .

وكان هذا الإغلاق \_ فى رأى الدكتور محمد أنيس \_ بمثابة خنى ، لا لحرية الحزب الجمهورى فقط ، بل لوجوده أيضًا . وكما يبدو ، فإن الموقف ، سواء من جانب الاحتلال أوالحديو أو الدول الكبرى ، لم يكن يحتمل قيام مثل هذا الحزب الذى ظهر قبل أوانه بنصف قرن ، كما أن الموقف الداخلى نفسه فى مصر لم يكن يسمح بنمو مثل هذا التيار . . ولكل هذه الأسباب تقوقع الحزب داخل مجموعة من المثقفين سرعان ما أطيح بهم .

## « جعانین یافندینا »

ف ٢٥ مارس ١٩٠٩ ، شهدت حديقة الأزبكية بالقاهرة أول مؤتمر جاهيرى من نوعه في تاريخ المجتمع المصرى الحديث . . فقد احتشد ( الفعلة ) من عهال البناء والنقش والنجارة والحدادة والسباكة والبلاط ، للبحث عن حل لمشكلة الكساد والبطالة التي سادت حركة البناء ، بسبب الأزمة الاقتصادية الخانقة التي اجتاحت البلاد ودفعت بالطبقات الكادحة إلى مزيد من الفقر . . وفي هذا الاجتهاع الصاخب، ترددت لأول مرة كلمة ( الاشتراكية ) ، كحل للأزمة الراهنة . . وكانت كلمة الاشتراكية ، حتى ذلك الوقت ، محصورة في نطاق الكتابات الصحفية التي ينشرها بعض المثقفين المتأثرين بالفكر الاشتراكي ، من أمثال : شبلي شميل ، ونقولا حداد ، وسلامة موسى . . وكان طرح الحل الاشتراكي في هذا المؤتمر دلالة على انتقاله من مجال الفكر إلى مجال الواقع العملي . . كذلك طرح رؤساء العمال اقتراحا بتشكيل لجنة من بينهم « لتدبير أعمال للعاطلين » ؛ فكان ذلك إرهاصا بظهور أول تنظيم للعمال . . وانتهي المؤتمر بخروج العمال من حديقة الأزبكية ، في تظاهرة تنظيم للعمال . . وانتهي المؤتمر بخروج العمال من حديقة الأزبكية ، في تظاهرة تنظيم للعمال . . وانتهي المؤتمر بخروج العمال من حديقة الأزبكية ، في تظاهرة تنظيم المائم القاهرة ، وهي تهتف « جعانين يافندينا » !!

وأفندينا . . هو اسم التدليل لخديو مصر عباس حلمي . .

\* \* \*

كان مؤتمر عمال المعمار فى حديقة الأزبكية ، هو أول مظهر احتجاجى عملى قامت به فئات عمالية ، خارج جدران العنابر والمصانع والفابريكات ، التى أخذت فى النمو ، فى مطلع القرن ، ونشأت معها بروليتاريا مصرية ذات مصالح ومطالب تتعلق بالأجور وساعات العمل ، التى بلغت فى بعض المنشآت ١٥ ساعة يوميا . .

فلها زادت حدة المشاكل مع تفاقم الأزمة الاقتصادية وسلبية الحكومة ، لم يجد العمال من وسيلة للتعبير عن مطالبهم سوى الإضراب .

وكانت قيود الامتيازات الأجنبية ، تشل يد الحكومة عن التدخل لمصلحة العمال المصريين ، و إلزام أصحاب الأعمال بتنفيذ القوانين المصرية التي تحمى العمال .

وكان من شأن هذه الفورة العمالية الوليدة ، أن تطرح على الساحة السياسية فكرة إنشاء حزب للعمال ، يرعى حقوقهم في وقت ازدحم فيه سوق العمل السياسي بالأحزاب من شتى النحل . عندئذ تشجع شاب من أبناء التجار اسمه السيد محمد ، وأعلن عن قيام قرخ ب العمال بالقطر المصرى والسودان » ، ووصفه بأنه قجامعة عمومية ، تجمع أواصرها كل طوائف ونقابات العمال ، وتكون هذه الجامعة عصمة أدبية اجتماعية لحقوقهم » . . ولم يقدم الرجل برنامجا تفصيليا ، يضع هذه العبارات الإنشائية موضع التنفيذ . . كما أن الظروف لم تسمح له بذلك . . فقد تعرض الحزب لحملة كتمت أنفاسه ، وهو لم يزل في المهد . . وكان اللافت للنظر أن الحملة لم تأت من جانب السلطة ، ولكن من جانب القيادات العمالية ؛ وقال بعضهم بعض زعماء العمال أن يتصدر أحد أبناء التجار قيادة الحركة العمالية ؛ وقال بعضهم إن هذا الحزب لا يمثل إلا صاحبه ؛ وأبدى دهشته من التفكير في قيام حزب يطمح الم جع جميع العمال تحت لوائه في الوقت الذي عجزت فيه ثلاث جمعيات عمالية عن المجتذاب الطبقة العاملة إليها ، وكان يعني بذلك : جمعيات عمال المطابع ، ولفافي السبجائر ، والترزية . . وبذلك وثلات أول محاولة لإنشاء حزب ينظم الطبقة العاملة ومصر .

ويبدو أن حزب العمال ، الذى دعا إليه « السيد محمد » ، لم يكن هو الحزب العمالى الوحيد الذى ظهر فى هذه الفترة المبكرة ؛ إذ يحكى لنا الدكتور عبد العزيز رفاعى فى كتابه ( الديمقراطية والأحزاب السياسية ) قصة حزب آخر ، اسمه « حزب المقاصد المشتركة » . وتبدأ قصته بدعوة وجهها محمد أحمد الحسن فى صحيفة الأهرام يوم ١١ يوليو ١٩٠٨ إلى أرباب المهن والصناع اليدويين ، لسماع خطبة عمومية سيلقيها سيادته فى حديقة الأزبكية ، موضوعها وجوب انضام أصحاب الحرف المصرية والأجنبية على اختلاف طبقاتها إلى حزب واحد مشترك ، ليتكون منه جماعة

قوية مسموعة الرأى في الأعمال النافعة ، و إقامة جريدة « الوضاح » للتعبير عن حال الحزب .

وكان العمل المجيد الوحيد ، الذى قام به حزب المقاصد المشتركة ، هو إصدار بيان احتجاج على حكومة بطرس غالى بسبب إصدارها قانون المطبوعات المقيد للحريات الصحفية في ٢٥ مارس ١٩٠٩ ، فنشر الحزب بيانا في الأهرام قال فيه : بالنيابة عن حوالى ٥٠ ألفا من العمال ، نحتج على ظهور قانون المطبوعات القاتل للحرية ، ونطلب إلغاءه فورًا . إن مجلس الحزب سيعقد اجتماعا يشكل تظاهرة كبرى تكون احتجاجا فعليا إذا لم تتدارك الحكومة الأمر وتحترم صوت الشعب ، وإن العمال ربيا طافوا جميعا على بيوت النظار وقصر الإمارة العامر . .

ثم نقراً عن تكوين حزب ثالث للعمال ، عن طريق بيان منشور في الأهرام يوم ١٦ يوليو ١٩٠٩ ، بتوقيع مجموعة ( أبو عثمان ) يقول فيه تحت عنوان ( حزب العمال): كلنا يعلم مركز العمال في أوربا . والعامل هناك لا فرق بينه وبين القاضى والمحامى ، ولما كان الإنسان من فطرته الطبيعية ميالا إلى الارتقاء ، فقد قامت مجموعة من خيار العمال المصريين ، الذين يقدرون الأشياء ، وأسسوا حزبا باسمهم .

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فللح

وانعقدت الجلسة الأولى ، فحضرها جمع كبير من العمال والوجهاء ، فانتخب السيد أفندي على ( والد الإذاعي المعروف أحمد سعيد ) مديرًا له .

ولكن ، كل هذه الإرهاصات العالية الناشئة ، لم يكتب لها البقاء . . ويعزو الدكتور يونان لبيب هذا الفشل إلى أمرين أولها : خلو الساحة العالية من قيادات قادرة على تنظيم البروليتاريا المصرية النامية . . وقد أتاح هذا الفراغ للعناصر البورجوازية أن تقوم بهذا الدور القيادى ، بقصد الوجاهة والزعامة المظهرية ، وليس من أجل الدفاع عن حقوق العال ، كا ظهر في محاولة السيد محمد الذي كان ينتمى إلى طائفة التجار ، وكا بدا في قبول الأمير حسين كامل لرئاسة جمعية مستخدمي الشركات والمصارف والمحال التجارية . . وإضافة إلى تحليل الدكتور يونان أقول إن ظاهرة استيلاء العناصر الأرستقراطية ، على الحركة العالية ستبقى ملازمة لنمو الطبقة العاملة حتى بعد قيام ثورة ١٩١٩ ، وظهور الأحزاب الليبرالية . وكان أبرز مثال على العاملة حتى بعد قيام ثورة ١٩١٩ ، وظهور الأحزاب الليبرالية . وكان أبرز مثال على

ذلك ، النبيل عباس حليم ، الذى تزعم حزبا للعمال فى الثلاثينيات بالتعاون مع بعض العناصر الماركسية .

أما الأمر الثانى ، الذى كان سببا فى فشل قيام حزب العمال ، فى مطلع القرن فهو نقص ( التصور الطبقى ) لدى العمال المصريين . فلم يبلغ بهم الأمر حد اعتبار أنفسهم طبقة ذات سمات مميزة ، لها مصالح تتناقض مع مصالح غيرها من الطقات، وليس أدل على ذلك من عجز الجمعيات العمالية ، التى قامت فى ذلك الوقت ، عن إقناع العمال بالانضهام إليها . . وهناك مثل آخر ، عندما قامت جماعة من ( الاشتراكيين المتطرفين ) بدعوة عمال المعامل ومستخدمي المحال التجارية على اختلاف نحلهم ، لتأليف رابطة للدفاع عن حقوق العمال ودفع مظالم أصحاب الأعمال وأرباب الأموال ، فكانت المفاجأة أن الذين لموا الدعوة كانوا من اليونانيين والإيطاليين والفرنسيين والأرمن . . « ولم نر واحدًا من المصريين اقترب منها أو شجعها ، كأن الجمعية ليست في مصر ) كما سجل ذلك توفيق حبيب في مقال له بصحيفة ( الأخبار ) يوم ۲۲ / ۹ / ۹ / ۹ / ۱ .

#### \* \* \*

لقد كان أمرًا طبيعيا أن تلفط هذه المحاولات المبتسرة أنفاسها . . شأنها شأن كل كائن يولد قبل أوانه .

## الحنب الاستراكي المسارك

كان من أثر الإصلاحات التي أدخلها الاحتلال الإنجليزي ، على نظام الرى فى مصر ، أن زادت رقعة الأرض الزراعية ، خلال عشر سنوات ( من ١٨٩٦ إلى مصر ) ، حوالى ٣٠٠ ألف فدان ، فى وقت تزايدفيه عدد السكان بمقدار ٤٣٪ . . وقد آلت معظم هذه الأراضى الجديدة إلى طبقة كبار الملاك ، بها كان ميسرا لديهم من سيولة نقدية مكنتهم من الإقبال على شراء الأراضى والمضاربة على أسعارها . . بينها انخفضت نسبة صغار الملاك ، وخرج الكثيرون منهم من صفوف الملاك إلى طوابير الأجراء والمعدمين .

وإذا كانت سياسة الاحتلال من البداية ، تسعى إلى نشوء أرستقراطية زراعية مصرية خالصة ، على أنقاض الطبقة التركية الشركسية ، التى كانت تحوز الملكيات الزراعية الكبيرة منذ عصر محمد على ، إلا أن تدعيم كبار الملاك المصريين لم يكن بلا حدود ، وإنها كانت تقف دونه محاذير ومخاوف من أن تتسع فجوة الفوارق بين الأغنياء والفقراء ، بها يهدد بقيام اضطرابات وزوابع فى الريف المصرى . . وهو أمر كان الاحتلال محرص على تلافيه ، حتى يتحقق الاستقرار اللازم للرخاء وبقاء الاحتلال الأبد ، وتكشف تقارير كرومر السنوية خلال تلك الفترة ، عن قلقه من اضمحلال طبقة صغار الملاك المصريين ، فاتخذ عديدًا من الإجراءات مثل : إلغاء بعض الضرائب ، وإلغاء السخرة وتخفيف أعباء الديون المتراكمة على صغار الفلاحين ، ومحهم قروضًا ميسرة جديدة ، على أمل أن تؤدى هذه الإجراءات إلى تثبيت الملكيات الصغيرة وزيادة عدد ملاكها .

ولكن ، جاءت الأزمة الاقتصادية عام ١٩٠٧ ، لتفسد من مفعول هذه

الإجراءات، وتعمق من حدة الفوارق بين كبار ملاك الأراضى وصغارهم، حتى إذا جاء عام ١٩٠٩، كانت الصحف تنشر يوميا ما لا يقل عن ٤٠ إعلانا من البنك الزراعى بتوقيع الحجز على صعار الملاك وبيع أراضيهم في المزاد . . وكان معظم هذه القطع مساحات صغيرة تتراوح بين عشرة أفدنة ونصف فدان . . وكان من الطبيعى أن يتقدم كبار الملاك لشراء هذه الأراضى وإضافتها إلى ممتلكاتهم ، وأن يتحول صغار الملاك إلى مستأجرين أو أجراء يعملون في الأرض التي كانوا يملكونها بأجور لا تكفى سد جوعتهم .

#### \* \* \*

وكما شغلت هذه القضية بال كرومر وخلفائه بعد رحيله ، فإنها شغلت ـ من زاوية مختلفة ـ عددًا من المثقفين المصريين الذين أرقهم اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، فتحركوا من منطلق إنساني بحت للعمل على إثارة نوازع الخير في نفوس الأثرياء كي يحسنوا معاملة إخوانهم الفقراء . . في ذلك الوقت كان مصطفى لطفي المنفلوطي ينشر أدبياته الإنسانية الرائعة التي تحض الناس على العدل والفضيلة والخير ، وتحثهم على أن يرحموا من في الأرض كي يرحمهم من في السهاء . . وكان الأديب الشاب محمد حسين هيكل يدرس القانون في باريس دون أن تغيب عن خياله آلام الفلاحين ومعاناتهم فيسجل ذلك في أول رواية مصرية له أسهاها (زينب) . حتى الذين عالجوا مشكلة الريف من باب السياسة ، فعلوا دلك وهم يحملون في قلوبهم آمالا وردية وأمنيات براقة في أن يتحقق العدل الاجتهاعي ، وتتحسن طرح أفكار تتعلق بتغيير نظام الملكية الزراعية تحت أي شكل من الأشكال .

#### \* \* \*

وقد أقدم أحد هؤلاء المثقفين ، واسمه الدكتور حسن جمال الدين على إنشاء حزب سياسى ، أطلق عليه اسم ( الحزب الاشتراكى المبارك ) هدفه تحسين أحوال الفلاحين الفقراء عن طريق تحديد أوقات عملهم فى الحقول ، على أن يكون للفلاح نصيب سنوى من عائد الأرض التى يعمل فيها ، وفق حهده ، وأن يحصل على معاش فى حالتى العجز والمرض . ودعا الدكتور حسن جمال الدين فى برنامج حزبه

كبار الملاك إلى الامتناع عن تشغيل زوجات الفلاحين أو قريباتهم فى أراصيهم ، ومنع الفلاحين من تشغيل نسائهم فى الأعمال الشاقة ، وعدم إجبار الفلاح على أن يعمل فوق طاقته أو أن يقوم بعمل زوجته . . أما زوجة العلاح فهى مسئولة عن خدمة زوجها وأطفالها وإدارة بيتها .

وطلب برنامج الحزب الاشتراكى المبارك من كبار الملاك معاملة الفلاح معاملة طيبة ، على أن يكون من حق الفلاح الشكوى إلى المحكمة أو العمدة إذا ساءت معاملته . . وطلب من الحكومة أن تقوم بفحص حالات الشرك بين الفلاحين وكبار الملاك ، وتتدخل السلطات في حالة وقوع أي خلاف ينشب بين الطرفين . . وتعرض برنامج الحزب إلى نظام العمد الذي ابتدعه كرومر في عام ١٨٩٥ ، فطلب من الحكومة أن تقيد نفوذ العمد وتسن التشريعات التي تحد من تسلطهم .

ولكى يكسب مؤسس الحزب الاشتراكى المبارك أنصارًا من بين الشرائح الزراعية فلقد طاف الأقاليم يحاول إقناع صغار الفلاحين بالانضهام إلى حزبه . . وكان أمرا طبيعيا أن يقف هؤلاء الفلاحون من دعوة الدكتور حسن جمال الدين موقفا سلبيا لأن كل الإجراءات التى تضمنها حزبه تعود فى النهاية إلى أريحية الأعيان وكرمهم . . إذا شاءوا أعطوا . . وإذا شاءوا رفضوا . . فظهرت هذه الأفكار أمام الفلاحين أشبه بالمواعظ والخطب المنبرية . . فمن يستطيع إجبار كبار الملاك على تنفيذها ؟ ومتى كانت الحقوق تؤخذ عن طريق الوعظ والإرشاد والعبارات العاطفية الخلابة . . ؟!!

\* \* \*

كل هذه المعانى دارت فى أذهان صغار الفلاحين ، وهم يستمعون إلى هذا الرجل الطيب ، وهو يتحدث إليهم حديثا صادقا عن فضيلة العدل وجدوى الرحمة . . دون أن يقدم لهم برنامجا عمليا لوضع هذه الأفكار الجميلة موضع التنفيذ . . كان الفلاحون يقدرون فيه نزعته الإنسانية فيصفقون له . . فإذا انفض السامر ، عاد الرجل إلى بيته فى القاهرة . . وانصرف الفلاحون إلى جحورهم وهم يدعون له بالخير. . وكأن شيئًا لم يكن .

## الحزب القبطى

شهدت الفترة من ١٩٠٨ إلى ١٩١١ أسوأ مظاهر الشقاق بين المسلمين والأقباط. وبدأ الخلاف بين الفريقين في شكل سجال علني ، لم يلبث أن تطور إلى حرب كلامية نفخت فيها أبواق الجهل والتعصب من الجانبين ، لتحقيق أغراض لا علاقة لها بطبيعة العلاقات بين جناحي الأمة .

وقد بدأ السجال بمقال نشرته صحيفة ( مصر ) المعبرة عن الفكر القبطى هاجمت فيه فكرة الجامعة الإسلامية التي كانت مطروحة وقتئذ ، كما تحاملت على فكل من وطئت أقدامهم أرض مصر من بدء الإسلام إلى اليوم ) ( ١٩٠٨ ) . . وبعد أسبوع نشرت رميلتها ( الوطن ) مقالا الأحد النكرات ، تهجم فيه على التاريخ الإسلامي في مصر ؛ فها كان من الشيخ عبد العزيز جاويش الذي كان يرأس تحرير (اللواء ) إلا أن شمر عن ساعده وشحد سلاحه ، وشن هجوما عنيفا على الأقباط مما أثار خواطرهم . . وأخذت ردود أفعالهم تتصاعد في شكل مقالات أشد وأقسى . . وفي هذه الهوجة الكلامية تسلل أنصار الشقاق والتعصب الإشعال النار في الحطب فظهرت فكرة تأسيس حزب قبطى ، يرعى مصالح الأقباط إزاء الأغلبية .

ورغم أن صحيفة (الوطن) ، كانت هي البادئة بالاستفزاز ، إلا أن المؤرخ طارق البشري ، يصف مسلك الشيخ جاويش بأنه « سقطة كبيرة » ، على اعتبار أن العبء الأساسي في تحقيق سياسة الإحاء الوطني يقع على الأغلبية ، لأنها الأقوى وعلى اعتبار أنه لم يحاول تهدئة الخواطر ، ولا أن يحاطب جموع القبط بها يعزل دعاة الشقاق عنهم ، إنها وجد أمامه العنج ، فقفز إليه بقدميه وسقط فيه ، وابتعد عن المنهج المستنير الذي دعا إليه الإمام محمد عبده ، عندما نبه إلى وجوب الاحتياط من

مهاجمة أية جماعة أو ملة ، إذا أخطأ شخص منها . . فحق على الشيخ جاويش قول الإمام إنه « اعتدى على غير معتد وناضل في غير حرب » .

على أى حال ، فقد تلقف أخنوخ فانوس المحامى ، وزعيم الطائفة البروتستنية الخيط من الشيخ جاويش ، وراح ينفخ فى الكير . ويدعو إلى إنشاء حزب للأقباط أسهاه ( الحزب المصرى ) ، ونشر فى ٢ سبتمبر ١٩٠٨ برنامج الحزب وأهدافه التى تتلخص فى : استقلال مصر ، وسعادة وفلاح سكان مصر ، واعتبار كلمة «مصرى» مطلقة على الأصيل والمتجنس بالجنسية المصرية ، ووجوب تسهيل شروط التجنس . ويلاحظ الدكتور يونان لبيب رزق أن برنامج هذا الحزب كان يجمع بين العلمانية والاعتدال فى معاملة الاحتلال . . أما عن العلمانية فقد تضمنتها المادة الثالثة من برنامج الحزب ، وتنص على « فصل الدين عن السياسة فصلا تاما ، والمساواة فى الحقوق العمومية بين سكان مصر وفى الحقوق الوطنية بين المصريين الوطنيين بلا تمييز بسبب الجنس والدين » . . وأما الاعتدال فيعنى إيجاد نوع من الروابط مع بريطانيا بعقد معاهدة تضمن حرية تجارة إنجلترا فى مصر ، وتسهيل طريق الهند لها فى وقت بعقد معاهدة تضمن حرية تجارة إنجلترا بالمحافظة على استقلال مصر والمساعدة فى صد الغارات الأجنبية عنها .

وفي المجال الدستورى ، اقترح برنامج الحزب إنشاء مجلس للنواب يمثل فيه الأقباط تمثيلا نسبيا ، وإنشاء مجلس آخر أسهاه (الأودة التشريعية) يتكون نصف أعضائه من الأجانب والنصف الآخر من المصريين . . ويلاحظ الدكتور يونان أن برنامج هذا الحزب كان صورة حية للتناقض الذي وقع فيه بعض الأقباط في ذلك الوقت ، ومحاولة للتوفيق بين رغبتهم في عدم الذوبان في خضم (الأكثرية) . . وبين أن يتساووا في الحقوق مع أفراد هذه الأكثرية ، ولعل هذه المحاولة هي التي دفعتهم الى طرح برنامج وطنى علماني ، في نفس الوقت الذي تمسكوا فيه بوجودهم العنصري، وهذا قمة التناقض ، وإن كان يؤكد حقيقة معينة وهي أن مثل هذا البرنامج لم يكن نابعا من (اقتناع فكرى) ، بقدر ما كان نابعا من (ضرورات دينية) البرنامج لم يكن نابعا من (اقتناع فكرى) ، بقدر ما كان نابعا من (ضرورات دينية)

وإذا كانت محاولة تأسيس حزب قبطى بها صاحبها من فوضى كلامية ودعاوى

جدلية ، تمثل أقصى مظاهر الشقاق بين المسلمين والأقباط: فإن طارق البشرى يسرى في همذا ( الأقصى ) أبلغ دليل على الوحدة والامتزاج بين أبناء الوطن الواحد. . لقد استعملت في تزكية الخلاف جميع المثيرات المكنة من الجانبين ، ومع ذلك فإن المتجادلين كليهم كاما يصدران عن أرضية فكرية واحدة . . تاريخا وتكوينا نفسيا . . ومن أهم ما يلاحظ أن أحدًا من المسلمين أو الأقباط لم يخرج عن إطار التاريخ الواحد والأفكار العامة الواحدة والشعب الواحد . . ومن ناحية أخرى لم يكن دعاة الشقاق من القبط ، يمثلون أغلبية فيهم ، ولا استطاعوا أن ينجحوا في جذب الكثيرين إليهم . وكذلك كان الشأن بالنسبة لذات الدعاة من المسلمين . . وغلت كفة ١ العقلاء ، من الفريقين يهاجمون أي تماد في الشقاق ويحذرون منه سواء كانوا من قادة الأحزاب أو العاملين في حقل الحياة العامة عموما، ساسة أو كتابًا أو أدباء . . وكان ضغط الرأى العام المصرى على كلا الجانبين يفرغ ما يراد اصطناعه من أزمات بينهما ، وكان مجرد احتمال قيام شقاق طائفي في مصر ، يستفز دوافع العمل على تصفيته . . وباستثناء بعض الكتابات التي تمادت في تزكية الخلاف ، فقد كان الطابع العام في الجدل ، وهو طابع العتاب والمجاملة ، يغلب على لغة المتحاورين العاملين على حصر الحلاف ، الناقدين لأي بادرة تهور أو جنوح، ولم يعرف من أحد طعن في الدين ذاته ، أو تعرض له بها يمس التوقير اللازم له . . وكان حذر «العقلاء " دائها من أن الحلاف لن يفيد إلا المستعمر، كما كان غالب الجدل المتبادل، يصدر بلغة المصلحة الوطنية ومن أرضها ، وأقسى ما يوجهه أحد الكاتبين إلى الآخر هو التشكيك في الولاء المشترك للوطن المصرى السابغ ظله على الجميع ، وهو اتهام يجد مضاءه في الاتفاق المصرى العام على معاداة الاحتلال الأجنس.

#### \* \* \*

لقد أخذت موجة الشقاق مداها حتى تكسرت وذهبت مع الزبد جفاء ، وبقى ما ينفع الناس في الأرض ليواصلوا مسيرة الحياة الطبيعية . . وفي ظلال هذا المناخ المتعقل الذي ساد المجتمع المصرى بجناحيه الإسلامي والقبطى ، كان من الصعب على أي حزب طائفي أن يجد مكانا له على الساحة المصرية . . ومضت الأيام

والشهور دون أن يرتفع صوت لحزب أخنوخ فانوس . . ولم يعرف له مقر . . ولم يحفظ التاريخ اسها واحدا لعضو من أعضائه باستثناء أخنوخ فانوس بالطبع . . !! لقد كانت محاولة طائفية فاشلة ، جرفتها رياح الوعى والرشد والتنوير .

## إخوان الوطنية

من المفيد أن نلقى الضوء على مفهوم ، \* الوطنية \* عند رواد الفكر السياسى الإسلامى فى العصر الحديث ، وفى طليعتهم الأستاذ الإمام محمد عبده . . فيحكى تلميذه وناشر أفكاره السيد رشيد رضا ، أن الإمام كان يرى الوطنية عبارة عن تعاون أهل الوطن الواحد ، المختلفى الأديان فى كل ما فيه عمرانه وإصلاح حكومته ، وأن الإسلام لا يعارض فى شىء من ذلك كها يثبته شرعه فى العدل والمساواة ، وأن معلم الجيل السيد جمال الدين الأفغانى كان يرشد تلاميذه وحزبه السياسى إلى وجوب اتحاد أهل كل قطر شرقى إلى التعاون على الأعمال الوطنية السياسية والعمرانية ، وكان حزبه مؤلفا من أذكياء الملل المختلفة . . وكتب الإمام محمد عبده عن شعار \* مصر للمصريين ، الذى انبثقت عنه الثورة العرابية ، فقال : إن الدين الإسلامى الحقيقى ليس عدو الألفة ، ولا حربا على المحبة ، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من ليسركونه فى المصدحة ، وإن اختلفوا عنهم فى الدين . . ويقول : إن العارف بحقيقة الإسلام يكون أبعد عن التعصب الجاهلى ، وأقرب إلى الألفة من أبناء الملل المختلفة وإن القرآن منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب ، ولكن أعداء الدين أفسدوا قلوب أهاليه ، \* ولا قلوب أقرب إلى الإصلاح من قلوب أهل مصر » .

ويروى الأستاذ طارق البشرى فى كتابه ( المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية » أنه فى أعقاب تعيين بطرس غالى باشا وكيلا لوزارة الحقانية ، اتهمته إحدى الصحف بمحاباة الأقباط فى الوظائف وغيرها ، وردت صحيفة أخرى مشيرة إلى التحام المسلمين والأقباط بالألفة والمحبة ، وتوارثهم ذلك عن أسلافهم ، ووقوف القبط مع المسلمين فى الحروب ، وذكرت أن الخلاف الدينى لم يحدث فى مصر شقاقا

وطنيا فى زمن من الأزمان ، ولذلك لا توجد للأقباط فى مصر « مسألة سياسية » كما يوجد لغيرهم فى غير مصر من مسائل . . وفى ذلك الوقت كان الإمام محمد عبده منهيا فى بيروت ، بعد فشل الثورة العرابية ، فلم يلتزم الصمت رغم بعد الديار عن هذه القضية ، فكتب مقالا فى صحيفة « ثمرات الفنون » وأرسل إلى تلميده وصديقه سعد زغلول يطلب إليه السعى فى نشره فى بعض صحف مصر .

وفى ذلك المقال ، عرض الأستاذ الإمام لهذه المشكلة المصطنعة ولخص رأيه فى قوله : « إن التحامل على شخص معين ، لا ينبغى أن يتخذ ذريعة للطعن في طائفة أو أمة أو ملة ، فإن ذلك اعتداء على غير معتد ومحاربة لغير محارب ، أو كها يقال جهاد فى غير عدو ، وهو مما ضرره أكثر من نفعه إن كان له نفع » . ثم ذكر أن طائفة الأقباط « أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها لوجوب المحافظة على وصية النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد كان حسن حال الأقباط لصدق نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام . على أن كثيرًا من أسلاف هذه الطائفة كانوا أمناء على مال الحكومة المصرية فى الدول الإسلامية المتعاقبة ، بها أجادوا من صناعتى الحساب والكتابة فى تلك الأوقات ، ولم تعهد لهم فتنة . . أما ما تخلو طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين إلى الشر ، فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الأشخاص ، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم . . » .

ويعرض الأستاذ البشرى نهاذج لمقالات عبد الله النديم ، خطيب الثورة العرابية حول مفهوم الوطنية عند المسلمين والأقباط ، فكتب في صحيفة « الأستاذ ) بعد عشر سنوات من فشل الثورة ، يقول :

المسلمون والأقباط هم أبناء مصر الذين ينسبون إليها وتنسب إليهم ، لا يعرفون غير بلدهم ولا يرحلون لغيره إلا زيارة ، قلبتهم الأيام على جر التقلبات الدولية وقامت الدنيا وقعدت وهم هم . إخوان الوطنية ، يقصد بعضهم بعضا ، ويشد أزره في مهاته ، يتزاورون تزاور أهل البيت ، ويشارك الجار جاره في أفراحه وأتراحه على منهم بأن البلاد تطالبهم بصرف حياتهم في إحيائها ، بالمحافظة على وحدة الإجماع الوطني الذي يشمله اسم مصر .

ومضى النديم فى توضيح أفكاره فقال: ما أحوج المسلمين والأقباط إلى الالتئام بعد أن عمَّتهم المعارف وتحلّوا بالآداب . . وإن ذكاء نبهاء الفريقين يدفعهم إلى التمسك بحبل الارتباط الوطنى . . ثم قال: إنه توجد جمعية إسلامية وأخرى قبطية ونحن لا جمعية لنا تبحث فى الوطنية . . إن تكوين جمعية من الفريقين يحول بينها وبين النزعات الأجنبية ) .

ويستنتج البشرى من العبارة الأخيرة أن النديم كان يرمى إلى الدعوة إلى قيام تنظيم وطنى جامع يقف ضد سياسة الاحتلال البريطانى فى بذر بذور الفرقة لإحكام قبضته على البلاد . . ووعد النديم بالعودة إلى معالجة هذا الموضوع . . ولكنه لم يفعل . . فقد أمرت سلطات الاحتلال بإغلاق الصحيفة ونفى النديم من مصر .

# سعد زغلول .. الأفغاني

كان السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد أغلقت فى وجهه أبواب التدريس فى الأزهر ، يتخذ مجلسه المفضل فى قهوة متاتيا بميدان العتبة « يوزع السعوط بيسراه . . وكان الطالب الأزهرى سعد زغلول ، أحد الذين تلقوا بذرة الثورة من راعيها ، فبقيت مستكنة فى وجدانه نصف قرن . حتى تفجرت كالإعصار وهو شيخ جاوز الستين ، وسرى إشعاعها كها تسرى موجات الأثير فى أعظم ثورة شعبية عرفتها مصر فى تاريخها العريق .

جاء سعد إلى القاهرة ، ليجاور في الأزهر في نفس السنة التي هبط فيها الأفغاني مصر . . فكأنها على ميعاد . . وأقام الأفغاني في مسكن متواضع في خان أبي طاقية بحي الجالية ، والتف من حوله التلاميذ والمريدون يتشربون أفكاره في الثورة والإصلاح ، كما تتشرب الأرض العطشي قطرات المطر . . وصحب الشيخ محمد عبده تلميذه وصديقه سعد زغلول ، إلى حلقة الأفغاني . . وما إن رأى سعد الشيخ المهيب ، واستمع إليه ، حتى قال لنفسه : « هذا بغيتي » . . وأضحى سعد عضوا دائما في ندوة الشيخ . . وكان من عادة الأفغاني أن يستكتب تلاميذه في الموضوعات دائما في ندوة الشيخ . . وكان من عادة الأفغاني أن يستكتب تلاميذه في الموضوعات التي يتحدث فيها ، كي يدربهم على قوة التعبير وترتيب الأفكار . . وكتب سعد مع غيره في « الحرية ) فأعجب به الأفغاني ، وعلق قائلاً : مما يدل على أن الحرية ناشئة في مصر . . أن يجيد في الكتابة عنها هذا الناشئ . .

وتفاعلت بدور الحرية فى نفس سعد ، مع اندلاع الثورة العرابية . كان وقتها شابا فى الخامسة والعشرين ، ويعمل ناظرًا لقلم القضايا بمديرية الجيزة ، بعد أن كان محررًا بالوقائع المصرية ، ومساعدًا لأستاذه محمد عبده . . لقد جرفته أحداث الثورة فى

أتونها . . فلها فشلت أصابه من أذى الاعتقال ما أصاب كل ثائر غيور . وفقد سعد وظيفته ، وبات هدما للمطاردة والتنكيل . . كان بوسعه أن يعتذر ويتزلف ، ليسترد وظيفته ، ولكن روحه الأبية أنفت من السقوط في الشرك الذى سقط فيه ضعاف النفوس ، وإنها آثر أن يحترف المحاماة وهي يومذاك \_ كها يصفها العقاد \_ ليست بالمهنة الشريفة التي نعرفها اليوم ، وإنها كانت صناعة وضيعة مبتذلة يشتغل بها من لا يحسب المرافعة إلا مجالا للمذاء وطول اللسان وضربا من الاحتيال والكذب والمراوغة والاختلاس . ولكن سعدا صاحب النفس الأبية ارتفع بكرامته عن الدنايا . فارتفع بالمهنة نفسها حتى صارت من أشرف المهن .

#### \* \* \*

ولم تنم عين السلطة العالبة عن سعد ، فقبضوا عليه وعلى شريكه في مكتب المحاماة حسين أفندى صقر بتهمة الاشتراك في جماعة سرية ، أطلقت على نفسها اسم ( جماعة الانتقام ) ، هدفها قتل الشهود والجواسيس الذين خانوا الثورة وإرسال خطابات تهديد بالقتل إلى الوزراء وكبار المسئولين المتعاونين مع الاحتلال .

وتحمل وثائق الثورة العرابية منشورًا وزعته الجمعية على قناصل الدول الأجنبية قالت فيه إن أهدافها تتمثل في تحرير الوطن وطرد الإنجليز من مصر وإخراجهم من وظائف الحكومة والجيش . ويؤكد المنشور حرص الجمعية على حماية أرواح الأجانب من كل الجنسيات والأديان ، وتطلب منهم عدم إيواء جنود الاحتلال أو التعامل معهم . وحددت الجمعية مهلة لتصفية هذه المعاملات . يتعرض بعدها الجاني للعقاب موتا ، واعتصاب أمواله ، وطرد عائلته من البلاد . . واختتم المنشور بعبارة « فلتحي مصر ، والموت للإنكليز ) .

ويبدو أن جمعية الانتقام كانت متطورة تنظيميا ، فقد وضعت لنفسها قانونا أساسيا مكونا من ٢٠ مادة ، يحدد شروط الانضهام للجمعية وطريقة العمل بها وبطام الأوامر والتكليفات وطريقة اختيار القيادات ، والضهانات المكفولة للأعضاء في حالة الاعتقال ، وأسلوب التخفى ، ونوعية الأسلحة التي يتدربون عليها .

وشكلت لجنة للتحقيق مع المتهمين ، تضم عددًا من رجال القضاء الأجانب

والمصريين ، ولم تعثر اللجنة على دليل يدين سعدا وشريكه حسين صقر .

فأمرت بالإفراج عنها ، ولكنها بقيا رهن الاعتقال أكثر من ثلاثة أشهر ، لأن الحكومة كانت عازمة على نفيها إلى أقاصى السودان ، وكلفت عثمان ماهر باشا عافظ العاصمة بإعداد الملكرة بطلب نفيها لعرضها على مجلس النظار ، وأوشك الأمر بالنفى أن يصدر لولا أن ناظر الحقانية ـ حسين فخرى باشا ـ عارض فيه وقال : إن صدور الأمر بالنفى بعد حكم البراءة يعد تحديا للقضاة الأجانب اللين جيء بهم لتنظيم القضاء المصرى . فعدلت الحكومة عن النفى وبقى السجينان معتقلين . . عندثذ كتب سعد إلى لجنة التحقيق : « إنى لا أزال موضوعا فى السجن مع تحقق اللجنة من براءة ساحتى مما نسب إلى ، فالأمل إسعافى بإجراء أمر الإفراج عنى رعاية لجانب الحق وتنفيذًا للقانون » وعلم النائب العام الإنجليزى ـ مستر ماكسويل ـ بأمر السجينين اللذين ترفض الحكومة إطلاق سراحها رغم براءتها ، فأبدى تعجبه من السجينين اللذين ترفض الحكومة إطلاق سراحها رغم براءتها ، فأبدى تعجبه من هذا التصرف المريب ، وأمر بالإفراج عنهما فورًا . . ولم يسع الحكومة إلا الإذعان .

وخرج سعد ليستأنف عمله في المحاماة . . سائرًا على الصراط المستقيم الذي اختطه لنفسه ، ولا يحيد عن المثل والأخلاقيات التي فطر عليها . . لا يقبل أبدا الدفاع عن باطل . . ولا يرفض أبدًا الدفاع عن الحق . . وبقيت تلك شيمته حتى آخر العمر .

## بيسن ثورتيسن

كانت الفترة الممتدة بين الثورة العرابية وثورة ١٩١٩ ، من أكثر فترات التاريخ المصرى غموضًا . . فلم تجد من الباحثين إقبالا على الغوص فيها وتحليل أحداثها رغم أن هذه الفترة كانت غنية بالأحداث التي وقع بعضها نتيجة فشل الثورة العرابية . . وجاء بعضها الآخر إرهاصا بمقدم الثورة الوطنية في ١٩١٩ . فإذا كانت هذه الفترة الزمنية هي اللحد الذي احتضرت فيه ثورة ، فإنها أيضًا الرحم الذي تخلقت فيه ثورة أخرى .

ويمكن تشبيه هذه الفترة التي امتدت ٣٧ سنة ، بليل طويل حالك السواد جاء معد غروب شمس العرابيين ، وقهر الأمل في قلوب المصريين . . ولكنه في نفس الوقت كان بشيرا بميلاد فجر جديد . . وبعث الأمل مرة أخرى في الصدور اليائسة . . فاستعاد المصريون ثقتهم بأنفسهم . . وهبوا يطلبون الحرية والاستقلال .

في هذه الفترة أصبح كرومر سيد البلاد بلا منازع ، وصاحب الأمر والنهى في كل مقدراتها ، وأضحت دار المعتمد مقصد طلاب الحاجات والباحثين عن الثراء والجاه والمجد . . وبات الورراء مجرد أشباح أو بصمحية بالقياس إلى المستشارين الإنجليز الذين استقدمهم كرومر من حوارى الإمبراطورية . وبثهم في الوزارات والمصالح ومديريات الأقاليم . وصدقت في وزرائنا مقولة أحد الكتاب الإنجليز : \* نحن لا نحكم مصر . . وإنها نحكم الذين يحكمونها » .

وشهدت هذه الفترة انتشار موجة الفساد والنفاق والوصولية . . كانت الهزيمة كالإعصار المدمر اكتسح المبادئ الخلقية والقيم الروحية . . وساد اليأس والقنوط حتى ظن الناس أن ليل الاحتلال ليس له صباح .

وكان من المؤسف أن نجد الأدباء والشعراء يدبجون قصائد المديح في جبار الاحتلال كرومر . . وينشرون ما تجود به قرائحهم في كل مناسبة إنجليزية . فإذا حل عيد ميلاد ملك الإنجليز تتابع الأعيان والوزراء والكبراء على دار الحماية لتقديم آيات التبريك والتهنئة . . وإذا مات الجنرال الغشوم كتشنر غرقا في بحر الشيال ، انهمرت دموع الحزن عليه أنهارًا . . وخلع عليه الشعراء صفة الشهيد . . يتساوى في ذلك كبار الشعراء وصغارهم . . كان من المفجع أن تمسك الصحيفة ، فتجد فيها قصائد من هذا النوع ، تحمل أسهاء شعراء كبار مثل : أحمد شوقى ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد نسيم وغيرهم . . وكان من الطبيعي أن يقتدى بهم صغار الشعراء . . وأن تتأثر بهم الحياهبر التي كانت تتلقف ما يكتبون بإعجاب وشغف . .

وبدأ كرومر خطة جهنمية ، لتغيير خريطة المجتمع المصرى . . ظهر معها وكأنه الفارس الموعود ، الذى بعثت به الأقدار لتحقيق الأمانى القومية التى فشل الثوار فى تحقيقها . . لقد ثار المصريون على السخرة والظلم والغطرسة التركية والأرستقراطية الشركسية التى احتكرت ملكية الأراضى ، وكتمت أنفاس المصريين ، وسعدت بفشل الثورة . . فلهاذا لا يعمل كرومر على تغيير الهرم الاجتهاعى بها يسمح بظهور طبقة من كبار الملاك المصريين تزاحم الفلول الشركسية وترثها . . ؟! وعمل كرومر على تحقيق هذا الهدف ، من خلال إجراءات إصلاحية فى نظام الرى والصرف . وتنظيم الضرائب وإلغاء السخرة . . وكان له ما أراد . . وبرزت على سطح المجتمع فئة من كبار الملاك تدين بولائها للاحتلال ، ليس عن كفر بالوطن ، ولكن عن شعور بأن مقامهم ارتفع بقيام السلطة الجديدة التى أنقذتهم من طغيان السلطة المقديمة ، التى لم يكونوا يستطيعون لها دفعا .

وفى رأى محمد زكى عبد القادر أن قيام هذه الطبقة واعتبادها على الاحتلال فى حمايتها من بطش الخديو ، والكراهية المتأصلة فى نفسها للحكم التركى . . كانت البدرة الأولى لنشوء « فكرة الاستقلال » عن تركيا وإنجلترا ، وهى الفكرة التى حمل لواءها ونادى بها بعد ذلك حزب الأمة وأحمد لطفى السيد فى الجريدة . . وظلت هذه الطبقة أكثر انحيازًا إلى سلطة الاحتلال منها إلى القصر . ولعبت دورًا خطيرًا فى الحياة السياسية المصرية ، وكان لها شأنها فى ثورة ١٩١٩ وما تلاها من تطورات . . كما كان

لها تأثيرها في الحياة البرلمانية . وما تعرضت له من هزات واضطراب . واتخذت موقف العداء المستمر من القصر ، والمهادنة المسترة للاحتلال ، ليس عن رضاء به ، ولكن عن خوف من استبداد السراى وبطشها . . كان الاحتلال يريد أن يبقى أطول فترن ممكنة في مصر . وكان يعرف أن هذا الهدف لن يتحقق إلا إذا كسب ولاء أعيان المصريين ورضاهم . . ولن يفعل المصريون ذلك إلا إذا شعروا بأن حالهم قد تحسن اقتصاديا واجتماعيا . . بل يفوق حالهم على عهد إسماعيل . . واستطاع كرومر أن يغرس في نفوس المثقفين فكرة الإصلاح التدريجي بديلا عن بدرة الثورة . . وبهذه الخطة الجهنمية نجح في تأجيل الثورة لأكثر من ثلث قرن ا .

#### ثورة النساء

كانت تظاهرات النساء أبرز مفاجآت ثورة ١٩١٩ . . ففي اليوم التالى لاعتقال سعد زغلول اندلعت التظاهرات في شوارع القاهرة ، وخرجت جموع الشعب من كل الفئات والطوائف تواجه رصاص الإنجليز في شجاعة منقطعة النظير . . وتساقط الشهداء والجرحي ، وسالت الدماء في الشوارع ، دون أن يفت ذلك في روح الشعب المتعطش إلى الحرية والاستشهاد . . ولم تكن المرأة المصرية أقل إقداما من الرجل . . وشهدت شوارع العاصمة لأول مرة في تاريخ مصر الحديث وربها في تاريخها الطويل وشهدت شوارع العاصمة لأول مرة في تاريخ مصر الحديث وربها في تاريخها الطويل والحاية .

وفى يوم ١٦ مارس ١٩١٩ ، خرجت أول تظاهرة نسائية ، أى بعد أسبوع من نقى سعد ورفاقه إلى مالطة ، وكانت تضم ٣٠٠ سيدة . .

وقد وصف الرافعي إحدى التظاهرات النسائية فقال:

نظمت السيدات تظاهرة ، فخرجن من جاردن سيتى ، وسرن ماشيات ، وفي مقدمتهن ستة أعلام مكتوب عليها شعارات وطنية باللغتين العربية والفرنسية . . وسارت المتظاهرات وخلفهن مركباتهن ، حتى وصلن إلى شارع قصر العينى وشارع سعد زغلول ، ووقفن أمام بيت الأمة هاتفات لمصر وحياة سعد . . ثم أقبلت قوة كبيرة من البوليس والجنود الإنجليز في سيارات مسلحة ، فضربوا نطاقا حولهن وظل الحصار نحو ساعتين ، وهن واقفات في الشمس . . وأرسلن باحتجاجهن إلى سفارات الدول . . وجاء القنصل الأمريكي بنفسه ، واحتج على هذه الفظاعة . . فصدر الأمر على عجل برفع الحصار ، وتمكين السيدات من الخروج من النطاق

المضروب حولهن . . فركبن السيارات والعربات ، وانصرفن إلى بيوتهن ، بعد وقفن إلى جانب الثوار ، محتجات على قتل الأبرياء مطالبات بحرية مصر .

\* \* \*

وفى يوم ١٠ إبريل ، سقطت أولى شهيدات ثورة ١٩١٩ ، وهى شابة عمرها ٨ سنة اسمها شفيقة محمد . . وعقب وفاتها أصدرت السيدة هدى شعراوى رئيس اللجنة التنفيذية للنساء الوفديات ، منشورًا أعلنت فيه أن شفيقة محمد هى أول امر مصرية تسقط برصاص الإنجليز منذ اندلاع الثورة ، ثم أصدرت قيادة الثورة منشوروت فيه قصة استشهادها على النحو التالى :

شاركت شفيقة محمد في مظاهرة يوم ١٠ إبريل ١٩٢٩ ، وكانت مظاهرة كبير ضمت السيدات من مختلف الطبقات ، وسرن في الشوارع حتى وصلن إلى مة المعتمد البريطاني ، وطلبن مقابلته ليرفعن إليه احتجاجا مكتوبا ، فمنعهن العساك الإنجليز بالسلاح وضربوا حولهن حصارا بالبنادق والسونكيات . . ومع ذلك يعبأن . . وتقدمت واحدة منهن (شفيقة) ، وهي تحمل العلم في يد والاحتجاج في اليد الأخرى ، واخترقت الحصار وجرت حتى وصلت إلى مكتب ه ملن شيتهام اليد الأخرى ، واخترقت الحصار وجرت من وصلت إلى مكتب ه ملن شيتهام القائم بأعمال المندوب السامي البريطاني ، فتناول الاحتجاج من شفيقة ، ودعاه للدخول إلى مكتبه فدخلت وراءه ، وأشار إليها بالجلوس ، ولكنها رفضت قائلة النائي مستعجلة ا

وتصفح شيتهام الاحتجاج ، وتظاهر بأنه لم يفهمه ، مع أنه يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة ، وقال لشفيقة محمد : إن الاحتجاج مكتوب باللغة العربية ، ماذ تريدين ؟ فأجابت : إنه احتجاج على الأعمال الوحشية التي يعاملنا بها جنودك بدون ذنب ، إلا أننا نطالب بحرية مصر واستقلالها . . وسألها شيتهام : وما تلك الأعمال الوحشية ؟ فقالت : ضرب النار على أولادنا وأطفالنا الأبرياء ورجالنا المجردين من السلاح ، لمجرد احتجاجهم بالمظاهرات السلمية على منع زعمائنا من السفر لعرض قضيتنا على مؤتمر السلام ، وذلك مثل باقى بلاد العالم ، وتنفيذًا لمبادئ الرئيس ويلسون . . وسألها شيتهام مرة ثانية : وهل هناك أشياء أخرى ؟ فأجابت نعم ، نحتج على اعتقال زعمائنا ونفيهم إلى مالطة . .

ويئس شيتهام من شفيقة ، وضاق صدره بها ، فوقف وقال لها منذرًا :

تلك هي المرة الأخيرة التي نراك فيها تشاركين في التظاهرات ، وإلا فسيكون الاعتقال مصيرك! فقالت شفيقة : سترونني في كل تظاهرة . . واستدارت الشابة المصرية ، لتغادر الغرفة بخطى ثابتة ، وهي رافعة الرأس . . والعلم في يدها . . وفتحت الباب لتخرج . . وأغلق الحارس الباب خلفها . . وأخل شيتهام الاحتجاج الذي تركته ومزقه ، وألقى به في سلة المهملات . . وقطع سكون الموقف صوت طلقات الرصاص ينهمر . . وأطل المندوب البريطاني من نافذة غرفته ليجد شفيقة عمد جثة هامدة مضرجة في دمائها الزكية . . ومن حولها زميلاتها وهن يهتفن :

تحيا ضحايا الحرية . . في ذمة الله يا شفيقة .

## شهيداسيوط

كان البكباشي محمد كامل مأمورًا لبندر أسيوط ، حين اندلعت ثورة ١٩١٩ وامتد لهيبها إلى الصعيد ، ودارت معارك طاحنة بين قوات الاحتلال والأهالى العزل فيا كان من المأمور البطل إلا أن فتح غرفة ( السلاحليك ) على مصراعيها ، وترك الثوار يغترفون منها البنادق والطبنجات ليقاوموا بها جحافل الغزاة . .

كانت أسيوط قد علمت بنبأ اعتقال سعد ورفاقه ونفيه إلى مالطة ، فخرج طلبة المعهد الديني ومدرسة الأمريكان ومدرسة إخوان ويصا والمدرسة الثانوية في تظاهرة سلمية ، يهتفون لسعد والثورة ، ويرددون هتاف الثورة المجيد و الاستقلال التام أو الموت الزؤام » . . فتصدى لهم جند الاحتلال المتمركزون في أسيوط ، وأطلقوا عليهم الرصاص . . فثارت مشاعر الأهالي ، وشكلوا من بينهم لجنة محلية لتنظيم شئون الحاية والدفاع عن المدينة . . وازدادت حدة التوتر ، عندما أقدمت سلطات الاحتلال على اعتقال بعض الزعاء المحليين : المحامي أحمد علوان ، والمحامي عمود بسيوني ، ومحمد محفوظ باشا . . وتناقل الناس أنباء الإهانات البالغة التي تعرضوا لها في السجن ، فازداد هياجهم . . وانطلقت الجموع نحو معسكرات تعرضوا لها في السجن ، فازداد هياجهم . . وانطلقت الجموع نحو معسكرات الإنجليز ، لتعبر عن سخطها . . فصادفت أكواما من التبن كدستها سلطات الاحتلال لغذاء الخيول ، فأشعلوا فيها النيران ، وتصاعد لهيبها إلى عنان السماء حتى بدت المدينة وكأنها شعلة من الوهج . .

وفقد الإنجليز أعصابهم فأخذوا يطلقون الرصاص على المتظاهرين في وحشية . . وتساقط مثات الشهداء والجرحي ، وسالت الدماء في الشوارع كأفواه القرب ، مما دفع الثوار إلى مزيد من العناد والصلابة والإصرار على مقاومة الاحتلال ، وشددوا من

هجهاتهم على المعسكرات البريطانية ، حتى اضطر الإنجليز إلى تجميع أبناء الجالية البريطانية في مبنى المدرسة الثانوية وفرضوا عليها ستارًا حديديا من الحصار المسلح. . فكان الثوار ينقضون على الثكنة العسكرية في هجهات فدائية جريئة ، مما أثار فزع سلطات الاحتلال ، ودفعها إلى الاستعانة بسلاح الجو الملكى البريطاني .

ولأول مرة فى تاريخ الصعيد . . وفى صباح ٢٤ مارس ١٩١٩ . . قامت طائرتان حربيتان بصب حمولتيهما من القنابل على المدينة الباسلة ، فى غارات وحشية ، لم تفرق بين البيت والمستشفى والشارع والمدرسة . . وتساقط المئات دون أن ينال ذلك من روح الأهالى وصلابتهم .

وأمام هذا العناد الصعيدى ، لجأت سلطات الاحتلال إلى أسلوب دنىء لإذلال الأهالى . . فأعلنت أنها ستقوم بتفتيش البيوت ليلا . وطلبت من الرجال مغادرة بيوتهم وترك نسائهم فيها . . ولم يستسلم الأهالى للتهديد الحقير ، فهجرت العائلات البيوت إلى المقابر والكهوف والصحراء والأديرة ، حفاظا على الأعراض من أن تمسها شراذم الاحتلال .

وعلم أهل أسيوط بقدوم قطار من الأقصر ، يقل بعض كبار الضباط الإنجليز في طريقهم إلى القاهرة . . وأرسلت مديرية أمن أسيوط إشارة إلى جميع مراكز ونقط الشرطة ، لتشديد الحراسة على المحطات . . ولكن الضباط ، بدلا من أن يشددوا الحراسة ، أبلغوا الأهالي حتى لا يفلت منهم الصيد الثمين . . وتحركت جموع الثوار من القرى والنجوع نحو محطة ديروط ، حتى إذا توقف القطار اندفعوا داخله كالسيل ، وإنهالوا ضربا على الضباط الإنجليز فقتلوا منهم اثنين ، ومعها خسة جنود . وكان لهذا الحادث أثره في أسيوط ، فشدد الإنجليز الحصار على المدينة استعدادًا للانتقام منها ، وأخدوا في حفر الحنادق وإقامة المدافع الثقيلة . . وأرسل القائد البريطاني رسالة إلى البكباشي محمد كامل مأمور البندر يطلب إليه فيها التسليم . . فكان جواب الضابط الذي تحول إلى ثائر : لن تدخلوا المدينة إلا فوق أشلائنا . . وبدأت القذائف تمطر المدينة بوابل من النيران . . ولكن المأمور لم يستسلم . . وقام بتوزيع ما لديه من سلاح على الأهالى . . وتقدم مع جنوده للقيام بواجب الدفاع عن المدينة الصامدة ، إلى أن وصلت تعزيزات هائلة من القاهرة . .

وكان أول ما فعلته القوات البريطانية اعتقال مأمور أسيوط ، وتقديمه إلى محكمة عسكرية ، بتهمة التفريط في السلاح ( الميرى ) ، وتحريض الأهالي على التمرد . . وأصدرت المحكمة حكمها بإعدام البكباشي محمد كامل . . وتلقى الرجل الحكم في شجاعة نادرة . . وحاول وجهاء أسيوط إنقاذ رقبة المأمور البطل . . وقامت وفود منهم بمحاولة تخفيف الحكم عنه . . ولكن السلطات البريطانية أصرت على إعدامه . . وفي يوم ١٠ يونيه ١٩١٩ ، سيق البكباشي محمد كامل ، إلى ساحة الإعدام ، داخل أحد المعسكرات البريطانية ، ونفذ فيه الإعدام رميا بالرصاص . . وبقى اسمه في سجل الخالدين الذين أستهم مصر على مدى تاريخها العريق .

## شهيدحلوان

كان ضابط البوليس ، مصطفى حمدى ، عضوا فى المجلس الأعلى للاغتيالات أثناء ثورة ١٩١٩ . . وكان المجلس يضم نخبة من الشبان المتحمسين اللين أصبح فيها بعد نجوما فى المجتمع السياسى ، مثل الدكتور أحمد ماهر باشا ، الذى أصبح رئيسًا لمجلس النواب ، ثم رئيسًا للوزراء ، واغتاله المحامى محمود العيسوى ، فى البهو الفرعونى بدار البرلمان فى فبراير ١٩٤٥ . . ومحمود فهمى النقراشي باشا ، الذى أصبح رئيسًا للوزراء ، واغتاله طالب الطب عبد المجيد حسن ، فى مصعد وزارة الداخلية فى ديسمبر ١٩٤٨ . والمؤرخ والمحامى الشهير عبد الرحمن بك الرافعى . . وعبد اللطيف بك الصوفاني . والسفير محمد بك شرارة . . والفدائي القديم شفيق بك منصور المحامى ، وعضو مجلس النواب ، الذى نفذ فيه حكم الإعدام عام بك منصور المحامى ، وعضو مجلس النواب ، الذى نفذ فيه حكم الإعدام عام في قضية اغتيال السردار .

كان شباب الجهاز السرى ، من العمال وطلبة كلية العلوم ، يصنعون بأنفسهم القنابل المحلية لاستخدامها في قتل رجال الاحتلال البريطانى ، وأعوانهم من الساسة المصريين الخارجين عن الإجماع الوطنى . . وكانت القنبلة عبارة عن قطعة من ماسورة محشوة بالمواد المتفجرة ، ومعها زجاجة صغيرة تحتوى على حامض البكريك . . وكانت هذه القنابل شديدة الخطورة على حاملها لأنها تنفجر بمجرد اهتزاز الزجاجة واختلاطها بالمتفجرات .

وذات يوم من عام ١٩١٠ ، ذهب الدكتور أحمد ماهر واليوزباشي مصطفى حمدى ، إلى صحراء حلوان لتجربة قنبلة جديدة في المنطقة المتاخمة للجباسات حيث تكثر أصوات الانفجارات في الجبل . . وألقى أحمد ماهر بالقنبلة بأقصى قوته

ثم انبطح مع زميله . . ولكن القنبلة لم تنفجر . . فنهض مصطفى حمدى ، وذهب إلى حيث سقطت القنبلة ليتفحصها ، فلم يكد يمسكها بيديه حتى انفجرت وأطاحت بالجزء الأمامي من جبهته . . وارتاع أحمد ماهر ، وهرول إلى زميله فوجد الدماء تنهمر بغزارة من رأسه ، فأخرج منديله ليوقف النزيف . . ثم انتزع قطعة من قياش بطانة البالطو الذي كان يرتديه محاولا وقف الدم . . ولكن محاولاته باءت بالفشل ، ولفظ الضابط الشاب أنفاسه . . وانتاب الفزع أحمد ماهر ، وهو يرى صديقه جثة هامدة ، في هذا الفضاء العريض . . فتركه حيث هو ، وعاد إلى محطة حلوان وغسل يديه من الدم ، ثم ركب القطار وعاد إلى القاهرة . . وذهب من فوره للى بيت عبد اللطيف الصوفاني ، حيث كان باقي أعضاء الجهاز مجتمعين في انتظار للي بيت عبد اللطيف الصوفاني ، حيث كان باقي أعضاء الجهاز مجتمعين في انتظار المحتمى ( وكيل مجلس الدولة ، ثم وزير الداخلية في عهد جمال عبد الناصر ) يحضر الاجتماع ، فأعطاه الحاضرون مبلغ ، ٢٠ جنيه ، جعوها من بينهم ، ليبعث بها إلى أم الشهيد في حوالة بريدية عن طريق مكتب بريد الفيوم . . وكان أحد شباب الفدائيين في الإسكندرية ، واسمه يعقوب أفندي صبرى ، يحضر الاجتماع كذلك الفدائيين في الإسكندرية ، واسمه يعقوب أفندى صبرى ، يحضر الاجتماع كذلك

وفى اليوم التالى ، ذهب أحمد ماهر والأستاذ عبد الرحمن الرافعى ومعها يعقوب صبرى ، إلى مكان الحادث ، حيث دفنوا الجثة فى مكانها . . وعادوا إلى القاهرة وقد ظنوا أنهم دفنوا سر صاحبها إلى الأبد . . وبقى اختفاء الضابط لغزا على رؤسائه . . أما والدته ، فقد أفهموها أنه سافر فى مهمة طويلة إلى إستانبول ، وكانوا يرسلون إليها فى مطلع كل شهر حوالة بريدية بعشرة جنيهات . . وبعد مرور خمس سنوات على الحادث ، وبعد اغتيال السردار ، وقع ما لم يكن فى الحسبان . . فقد اهتزت أعصاب رجل الإرهاب الكبير شفيق منصور ، وهو فى السجن ، فكتب تقريرًا تفصيليًا كشف فيه الستار عن قصة الجهاز السرى الذى ارتكب حوادث الاغتيالات أثناء الثورة ، وعجز الإنجليز عن التوصل إلى خيط يدل عليه ، بالرغم من المكافآت المجزية التى رصدوها لهذا الغرض . . وبلا أى مبرد ، حكى شفيق منصور قصة الضابط مصطفى حمدى ، والطريقة التى لاقى بها حتفه . واهتز منصور قصة الضابط مصطفى حمدى ، والطريقة التى لاقى بها حتفه . واهتز منصور قصة الضابط مصطفى حمدى ، والطريقة التى لاقى بها حتفه . واهتز منصور قصة الضابط مصطفى حمدى ، والطريقة التى لاقى عها حتفه . واهتز منصور قصة الضابط مصطفى عمدى ، والطريقة التى لاقى عها حتفه . واهتز منصور قصة الضابط مصطفى حمدى ، والعربية التى لاقى عها حتفه . واهتز منصور قصة الضابط مصطفى عمروا على أول اتهام يدين ق ماهر » والنقراشى . وقد كانت

الشكوك تحيط بهما بشأن حوادث الاغتيالات ، ولكنها كانت تفتقر إلى الدليل . . وجاءهم الدليل في اعترافات شيخ الفدائيين شفيق منصور

وكلفت السلطات الدكتور سيدنى سميث ، كبير الأطباء الشرعيين ، بمعاينة موقع الحادث الذى أشار إليه شفيق منصور . . فوجد بقايا عظام ، وقطعا من اللابس متناثرة في الصحراء ، وقطعا من الزجاج والمعدن . . فأخذ كل هذه الأشياء لفحصها في المعمل ، فتبين أن العظام لشخص واحد بين الخامسة والعشرين والثلاثين من العمر ، وعلى الجانب الأيمن من جبهته فجوة ، وكثير من الثقوب في الجانب الداخل من الجمجمة ، مما يدل على أن صاحبها قتل عن انفجار قنبلة . . كما عثر على بعض أزرار البدلة تحمل اسم الترزى . . كما أن الطربوش يحمل اسم صانعه من الداخل . . وكانت كل هذه المعلومات ، تنم عن اسم صاحبها وهو اليوزباشي مصطفى حمدى .

أما الشظايا المعدنية والزجاجية التي عثر عليها الطبيب الشرعي ، فقد كانت تتضمن قطعا من أسطوانة حديدية وقطعة صغيرة من قضيب حديدي ، وقطعة مفرطحة من الصفيح ، وعنق زجاجة صغيرة . . وكان الدكتور سميث بحكم خبرته القديمة ، يعرف طريقة صنع القنابل التي استخدمت في حوادث الاغتيال أثناء ثورة 1919 ؛ فاكتشف أن هذه الشظايا تماثل تماما القنابل التي استعملت أثناء الثورة . . ومن سوء الحظ أن البوليس قام في نفس الوقت بتفتيش منزل حفار كليشهات اسمه يوسف طاهر ، فعثر على ١٨ قنبلة في بئر منزله ، وأرسلت القنابل إلى الطبيب الشرعي لفحصها فوجدها مماثلة لشظايا قنبلة حلوان ، ثم اتسعت المفاجأة حين تبين أن يوسف طاهر هو خال مصطفى حمدى . . الضابط الذي شاء القدر ألا يموت سره معه في ذاك الفضاء العريض من صحراء حلوان .

## الشيخ ١٣ يولية

كان الحاج أحمد جاد الله ، يعمل خراطا في ورش السكة الحديد . . كان رجلا متدينا ، لاتفارق المسبحة أصابعه ، ولا تفارق الأدعيات شفتيه ، ولا تظهر عليه علامات العنف أو التهور . . ولا يتصور أحد ، أن يكون هذا الشيخ الوقور ، عضوًا في جهاز الاغتيالات التابع لقيادة ثورة ١٩١٩ ، وأن يستخدم خبرته الفنية في تصنيع القنابل اللازمة لعمليات اغتيال جنود الاحتلال والخونة المصريين المتعاولين مع سلطات الحاية البريطانية .

كان طلبة العلوم والطب الأعضاء في هذا الجيش الخفى ، قد نجحوا في تصميم قنبلة محلية ، وبقى عليهم البحث عن وسيلة لتصنيعها . . فطلبوا من قيادة الجهاز ترشيح بعض الخراطين لتنفيذ المهمة . . وكان المسئول عن حهاز العمال ( جزمى ) اسمه محمد عثمان الطويجى ، فرشح اثنين من عمال العنابر ، أولهما الشيخ أحمد حاد الله ، والثانى هو الأسطى إبراهيم موسى . وتسلم العاملان التصميم ، وقاما بتنفيذه ، فصنعا قنبلتين تسلمتها خلية الطلبة التي تضم سيد محمد باشا ، الطالب بالمعلمين العليا . وأحمد عبد الحي كيرة طالب الطب ، ويوسف العبد الطالب بالجامعة الأهلية ، الذي دعا إخوانه إلى قريته ( شبرا النملة ) بمديرية الغربية بالجامعة الأهلية ، الذي دعا إخوانه إلى قريته ( شبرا النملة ) بمديرية الغربية لتجربة القنبلين في الحقول بعيدا عن أعين السلطة . . ثم عادوا إلى القاهرة ، وأبلغوا قيادة الجهاز بنجاح القنابل ، فطلبوا من الحاج أحمد جاد الله تصنيع عشر قنابل أخرى ، فأتم صنعها على الفور بالاشتراك مع الخلية السرية للعمال . . وبدأ أخرى ، فأتم صنعها على الفور بالاشتراك مع الخلية السرية للعمال . . وبدأ الفدائيون في تنفيذ مهامهم . . وأخذت القنابل تنهال على عبيد السلطان الخارجين على إجماع الأمة : يوسف وهبة باشا ، رئيس الوزراء . . وإسهاعيل سرى باشا ، وذير على إجماع الأمة : يوسف وهبة باشا ، رئيس الوزراء . . وإسهاعيل سرى باشا ، وذير

الأشغال . ومحمد شفيق باشا ، وزير الزراعة . . وحسين درويش باشا ، وزير الأوقاف . ولما وجد الحاج أحمد جاد الله أن القنابل التي صنعها قد آتت ثهارها ونجحت في بث الذعر في نفوس الحكام ، استصغر أن يكون دوره مقصورًا على صنع القنابل ، ورأى أن يشارك بالفعل في العمليات التي يقوم بها نسور الجامعات . . فذهب إليهم قائلا : ( لماذا لا تشركون العمال في العملية ؟ لا يكفينا أن نصنع القنابل . . نريد أن نضرب أيضا . . نحن العمال نتولى القضاء على الكفار ( أي الإنجليز ) وأنتم تأخذون الحونة من المصريين . . » .

واتفق الطلاب والعمال على هذه القسمة . . وتسلم الحاج أحمد مسدسين ـ وكان أسبوع لا يمر إلا ويجهز على ثلاثة من الجنود الإنجليز . . وكانت منطقة نشاطه فى الدراسة والحوض المرصود . . ولم تفلح عيون الإنجليز فى التوصل إليه برغم المكافآت التى كان يعلن عنها عقب كل حادث . . فقد كانت نفوس الناس كبيرة ومعنوياتهم مرتفعة ، ولا يقيمون اعتبارًا للمال الذى يأتى عن طريق خسيس .

وبقى سر الحاج أحمد جاد الله وزملائه العبال مغلقا ، حتى وقع حادث السردار الذى اشترك فيه زميله إبراهيم موسى ، فحكم عليه بالإعدام . . ثم كتب شفيق منصور اعترافاته المشئومة ، وكشف فيها الستار عن دور أحمد جاد الله فى اغتيال الجنود الإنجليز ، فألقت السلطات البريطانية القبض عليه . . وفتشوا بيته فأخرجوا من حفرة فيه صندوقا خشبيا يحتوى على مسدس وذخيرة تولى الطبيب الشرعى د . سدنى سميث فحصها ، فتبين أنها تماثل الأعيرة التى كانت تستخرج من الشرعى د . سدنى سميث فحصها ، فتبين أنها تماثل الأعيرة التى كانت تستخرج من الشرعى د . مدنى الفائلة الرمادية جثث الإنجليز القتلى ، قبل ثلاث سنوات . . ولم يعد لديه شك فى أن أربعة من القتلى لقوا مصرعهم بهذا المسدس الذى وجد ملفوفا فى كيس من الفائلة الرمادية وغيطا بطريقة بدائية . . وبإعادة تفتيش بيت الحاج أحمد ، عثروا على الثوب الذى انتزع منه كيس المسدس .

وقدم الحاج أحمد إلى محكمة الجنايات ، مع ماهر والنقراشي في مارس ١٩٢٦ . . وكان الهدف قطع رءوس زعاء جهاز الاغتيالات . . وتبارى كبار المحامين في الدفاع عن المحد ماهر . . وكان المتهمين . . فتولى الزعيم مصطفى النحاس الدفاع عن أحمد ماهر . . وكان الزعيم سعد زغلول يعكف على دراسة ملفات القضية ، وتنبيه المحامين إلى الجوانب

التي تفيد المتهمين . . وأثناء إطلاعه على محضر تفتيش بيت الحاج أحمد جاد وجد أن ضابط البوليس قال إنه عثر على الصندوق بجوار ( تقفيصة فراخ ) أحمد جاد الله ، بينها كانت زوجته تطل من نافذة بالدور الأول تشرف على تقفيصة الفراخ وهي تولول قائلة : « أخيه . . أخيه . . لقوه ياأختى . . !! » . . فاستدعى سعد زغلول الأستاذ رياض إبراهيم محامى الحاج أحمد ، وطلب منه الذهاب إلى بيت جاد الله ، ومعاينة المكان الذي ضبط فيه الصندوق بجوار تقفيصة الفراخ . . فاكتشف المحامى أن الصندوق لم يستخرج من البيت كها ذكر تقرير البوليس . وإنها وجد في الحارة التي يقع فيها المنزل ، أي في مكان يمكن لأي إنسان أن يصل إليه . . وكانت هذه المفاجأة كافية لإنقاذ رقبة الحاج أحمد جاد الله من حبل المشنقة .

ويعد الحكم على زعيم العمال بالبراءة ، كان أول شيء فعله هو الذهاب إلى بيت الأمة لتحية زعيم الأمة . . وكانت مفاجأة جرت معها سلسلة من المفاجآت المدهشة . . فقد تبين أن الزعيم و سعد » لم يكن يعرف شكل أحمد جاد الله . . فلما وجده أمامه بعد البراءة ، اكتشف أنه نفس الرجل الذي كلفه الجهاز السرى باللهاب إلى بيت الأمة قبل يوم من اعتقال سعد في ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ ، وتسلم ملكراته الخاصة لتكون بمنأى عن أيدى السلطات بعد اعتقال سعد . . وقد شهد مصطفى أمين هذه الواقعة وهو صبى مقيم في بيت الأمة . . فلما ذهب جاد الله لتسلم الملكرات ، قدم نفسه إلى سعد باسم ( الشيخ ١٣ يوليو ) ، وهو اسم كودى بصفته عضوا في المنظات السرية . . وأخيرًا اكتشف سعد أن الشيخ ١٣ يولية لم يكن سوى الحاج أحمد جاد الله الرجل الوقور الذي كان يقضى ليله في العبادة والتهجد . . ويقضى نهاره في صنع أجهزة الموت لأعداء الله والوطن . . ويفلت الرجل من حبل ويقضى نهاره في صنع أجهزة الموت لأعداء الله والوطن . . ويفلت الرجل من حبل المشنقة ، ويستأنف حياته المعادية دون انتظار لمنصب أو جاه أو نفوذ . . وتنتهى حياته كما تنتهى حياة الملايين من الفقراء البسطاء الذين لا يتطلعون إلى الشهرة والمجد . .

يكفيهم أنهم أرضوا ضمائرهم . . وفي ذلك عزاء عن الجحود .

## دولت فهمي

كان عبد القادر محمد شحاته \_ الطالب بالمدرسة الإلهامية الثانوية \_ جالسا على مقهى بميدان باب الخلق بلعب « عشرة طاولة » مع صديق له ، عندما تقدم منها شاب متوسط الطول قمحى اللون ، فسحب كرسيا وانضم إليها في مباراة الطاولة وقدم نفسه باسم « فهمى » . . وبعد التعارف وتبادل الأحاديث الودية ، انصرف «فهمى » لحال سبيله ، ولكن زيارته لعبد القادر تكررت بطريقة مريبة . . كان يببط عليه فجأة في منزله ، وهو في زى عامل أحيانا . . أو زى أزهرى أو فلاح . . وأدرك عبد القادر أن وراء الصديق الجديد سرا غامضا ، ولكنه حار في تفسيره . . حتى جاء اليوم الذى كشف « فهمى » فيه عن حقيقة أمره . . قال له : اسمع ياعبد القادر . نعمن نعرف الكثير عن شجاعتك ، والأعمال البطولية التي قمت بها في المنيا أثناء عدوان الإنجليز على أهلها العزل . ونعرف أنك أنت الذى أشعلت الثورة في المنيا . . علوان الوقت لأكشف لك عن مهمتى . . فأنا مندوب الجهاز السرى ، فهل تقبل أن تكون عضوا معنا في الجهاز السرى للثورة . . ؟

قال عبد القادر على الفور: نعم . . أقبل بلا تردد ، وأقسم على حفظ السر .

وكان الجهاز السرى التابع لثورة ١٩١٩ ، يطارد الوزراء الذين يتعاونون مع سلطات الاحتلال البريطانى ، ويطعنون الثورة فى ظهرها . . ويحطمون إرادة الأمة التى اختارت سعد زغلول وكيلا وزعيها ومتحدثا وحيدا باسمها فى مواجهة الإنجليز . وكان محمد شفيق باشا ، وزير الأشغال فى وزارة إبراهيم سعيد باشا قد ارتكب جريمة نكراء ، حين وافق على إطلاق يد الإنجليز فى تغيير نظام الرى فى

السودان ، خدمة للمصالح الاستعهارية ، وإلحاقا للضرر بالمصالح الوطنية . . وقررت قيادة الثورة قتله .

وفي يوم ١٩ فبراير ١٩٢٠ ، ذهب و فهمى الى عبد القادر ، وأبلغه أن الاختيار وقع عليه لاغتيال شفيق باشا . . ولقنه تفاصيل الخطة المرسومة بدقة . . وقام الشاب الجرىء بالعملية كها طلب منه . وألقى قنبلة على سيارة الوزير أثناء مروره فى العباسية ، وانفجرت القنبلة ، ولكن الوزير أفلت من الموت . . وقبض على الفدائي الجرىء . . وبدأت سلطات التحقيق تمارس معه أفظع ألوان التعذيب لتعرف منه أسهاء قيادة الجهاز السرى للثورة ، خاصة أن بعض شركائه فى المنزل شهدوا بأنه كان يبيت لياليه الأخيرة خارج البيت . . وهنا حدثت المفاجأة التي يرويها عبد القادر فى ملكراته التي نشرها أستاذنا مصطفى أمين فى ( الكتاب المنوع ) :

\* وإذا بي أتلقى ، داخل السجن ، رسالة من الجهاز السرى من خارج السجن بأن سيدة اسمها دولت فهمى ناظرة مدرسة الهلال الأحر سابقا ، ستتقدم للشهادة وتقول إنى كنت في تلك الأيام أبيت عندها ! وإنه يجب أن أعترف بهذا. . رغم أن هذا يسيء إلى سمعتى ، وإلى سمعتها . . ولكنها قبلت أن تقوم بهذه التضحية ! واستدعاني النائب العام ، توفيق رفعت باشا للتحقيق من جديد ، ليسألني : أين كنت أبيت ؟ وكانوا يتصورون أن هذا السؤال هو الخيط الذي سيوصلهم إلى الجهاز كله ا فقلت ، وأنا أظهر الخجل : « إنني كنت أبيت عند السيدة دولت فهمي ناظرة مدرسة الهلال سابقا ، . . وأصدر النائب العام على الفور أمرا بالقبض عليها. . فجاءت مكبلة بالحديد . . ودخلت سيدة حسناء إلى غرفة النائب العام. . وإذا بدولت هذه تهجم على وتقبلني وتناديني : « ياحبيبي ا ياحبيبي ! » واعترفت بأنني أبيت في بيتها ، وأنني عشيقها . . وذهل النائب العام والحكمدار الإنجليزي . . وصدر الحكم بإعدام عبد القادر شحاته ، ثم خفف إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . . وقضى الفدائي الشاب أيامه ولياليه في ليمان طرة ، وهو لا يكف عن التفكير في أمر هذه السيدة التي ضحت بسمعتها من أجل إنقاذ شاب مصرى جسور . . كانت تملأ عليه خياله ، وهو يقطع صخور الجبل . . وتؤنس وحشته وهو يأوى إلى زنزانته . . ويناجي طيفها النبيل عبر قضبان السجن الكثيب . . حتى أحس بأنه يحبها فعلا . . ومضت أربع سنوات تعيسة قضاها عبد القادر شحاته فى ليان طره ، حتى جاءت حكومة الشعب الأولى برئاسة سعد زغلول ، فأفرج عنه ضمن مجموعة من الفدائيين الذين سجنتهم سلطات الاحتلال . . وكان أول ما فكر فيه عبد القادر بعد عودته إلى الحرية ، هو البحث عن دولت فهمى ليتزوجها . . ولكن الجميع كانوا يتهربون منه ، ويطلبون منه أن يكف عن السؤال عنها . .

ولم يكف الشاب عن السؤال ، حتى وجد نفسه أمام الحقيقة المفجعة . فقد عرف أن أهلها قد قتلوها ، ليغسلوا العار الذى لحق بهم أثناء التحقيق . . ولم يدركوا أنها طوقت أعناقهم بأكاليل الغار حين ضحت بسمعتها من أجل إنقاد زهرة شباب مصر . .

## نموت وتحيا مصر

في أعقاب الاعتقال الثاني لسعد زغلول (ديسمبر ١٩٢١)، اتخلت قيادة الوفد قرارًا بتنظيم المقاومة السلبية للاحتلال . وأصدرت عدة منشورات طالبت فيها المواطنين بمقاطعة الشركات والمحلات والبضائع الإنجليزية واستعمال البدائل المصرية ، ونقل ودائعهم المالية من البنوك الأجنبية إلى بنك مصر الذي مضى على إنشائه عام واحد . . وفي اليوم التالي ، اعتقلت السلطات البريطانية قيادة الوفد التي كانت تضم : حمد الباسل ، وويصا واصف ، وعلى ماهر ، وجورج خياط وعلوى الجزار ، ومرقص حنا ، ومراد الشريعي ، وواصف بطرس غالي . وعلى أثر ذلك ، شكلت قيادة جديدة للوفد من : المصرى السعدي ، وحسين القصبي وفخرى عبد النور ، وسلامة ميخائيل ، والشيخ مصطفى القاياتي ، ونجيب الغرابل . . وحملت الهيئة الجديدة راية الكفاح ، فأصدرت بيان طالبت فيه الأمة بالاستمرار في المقاومة ، واعتبار المقاطعة الاقتصادية شكلا من أشكال الجهاد ، لأنه يصيب المصالح البريطانية في مقتل ، ويعمل على تشجيع الرأسمالية الوطنية المصرية الخالصة .

وبعد الإفراج عن المعتقلين ، انضموا إلى زملائهم الجدد ، وتحولت قيادة الوفد إلى كتيبة نضالية تؤجج جذوة الجهاد لملاحقة المصالح البريطانية ، وتسميم الآبار في وجهها . . وإنهالت المنشورات في كل أنحاء البلاد ، تحض الجاهير على مقاطعة أنهاط الاستهلاك الأجنبية ، والإقبال على منتجات بلادهم حتى لو كانت أقل جودة أو أغلى سعرًا عن مثيلتها الأجنبية . . واستجابت الأمة لنداء قيادتها الوطنية . . ونجحت المقاطعة حتى أوشكت المؤسسات البريطانية على الإفلاس ، وتعرضت المنتجات الأجنبية للبوار والكساد .

وفى ٢٥ يوليو ١٩٢٢ أصدرت سلطات الاحتلال أمرًا باعتقال سبعة من قيادات الوفد . . وبدأت الحملة باعتقال حمد الباسل ومرقص حنا وواصف عالى ، وألقى بهم فى ثكنات قصر النيل . . وكان مراد الشريعى فى بلدته \_ سهالوط \_ فلها علم بنبأ القبض على زملائه ركب القطار إلى القاهرة وسلم نفسه إلى سلطات الاحتلال . . وكذلك فعل علوى الجزار اللى قدم من شبين الكوم . . أما ويصا واصف ، فقد قبضوا عليه فى رأس البر . . كها قبضوا على جورج خياط فى الإسكندرية . والتأم شمل الزعاء السبعة فى قشلاق قصر النيل ، دون أن يعرفوا حقيقة التهمة التى اعتقلوا من أجلها ، إلى أن بدأت الصحف البريطانية تنشر تصريحات كبار رجال المحكومة البريطانية ، وجاء فيها أن الزعاء السبعة سيحاكمون بتهمة التحريض على المحكومة البريطانية ، وجاء فيها أن الزعاء السبعة سيحاكمون بتهمة التحريض على الأبطال هذه الأنباء بالسخرية وظلوا يهارسون نشاطهم اليومى فى لعب الطاولة ولا يتصورون أن يبلغ الهلع بالسلطات البريطانية إلى حد إعدامهم لمجرد دعوتهم الشعب يتصورون أن يبلغ الهلع بالسلطات البريطانية إلى حد إعدامهم لمجرد دعوتهم الشعب الى العصيان المدنى .

وهذه صورة وصفية للروح المعنوية العالية للأبطال السبعة سجلها مرقص حنا في ملكواته التي نشرها الأستاذ مصطفى أمين ، ويقول فيها : «كنا في غاية الشجاعة . . ونؤمن بأننا دافعنا ، بتهام الشرف والهمة والإخلاص ، عن بلادنا وعن حقوقها . هل هذا جرم ؟! إن العقاب على هذا الأمر كالعقاب على الأكل والشرب . . غريب أن يسمى نفسه شريفا ، ذلك الذي يسمى الدفاع عن الوطن إجرامًا ! إن الدفاع عن الوطن فضيلة سامية ، فكيف يكون شريفا ذلك الذي يستعمل قوته وسلاحه ضد الوطن فضيلة سامية ، فكيف يكون شريفا ذلك الذي يستعمل قوته وسلاحه ضد أمة عزلاء ليسطو عليها ويسلب أصحابها أموالهم وأرزاقهم ؟! إنهم يريدون عقابنا . . فليكن . . ولكن ماذا يريد أولئك المصريون الذين يتولون الحكم ، ويدفعون فليكن . . ولكن ماذا يريد أولئك المصريون الذين يتولون الحكم ، ويدفعون الإنجليز إلى هذا العمل ؟ وبأى وصف أصفهم ؟ إن أحط الكلهات لا تكفى لوصفهم . . » .

\* \* \*

ولما وجدت السلطات البريطانية أن تهمة التحريض على القتل ، لا تستند إلى دليل ، عدلوا الاتهام وحصروه في دائرة الحض على كراهية الحكومة واحتقارها

وتسلم الأبطال قرارات الاتهام . . واتفقت إرادتهم على مقاطعة المحكمة ، وعدم توكيل محامين للدفاع عنهم . . وأنابوا حمد الباسل ، لإلقاء كلمة أمام هيئة المحكمة العسكرية البريطانية في أول جلسة من جلسات المحاكمة التي عقدت في مبنى محكمة استئناف القاهرة بباب الخلق . . ونهض حمد الباسل ، يرفل في ملابسه البدوية التقليدية ، يقول في صوت عميق اهتزت له جنبات المحكمة : باسم الشعب المصرى . إننا نحى الوكلاء عن هذا الشعب . المكلفون بالمطالبة باستقلاله ، ولهذا لا نستطيع أن نعترف بأى حال من الأحوال بقضاء محكمة الجنبية . . ولو أن هذه المحكمة العسكرية الإنجليزية تأخذ بتصريح الحكومة الإنجليزية أو تعتبره تصريحا جديا ، (يقصد تصريح ۲۸ فبراير) ، وهو أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، لكان حقا عليها أن تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا ! إن لكم أن تحكموا علينا . . ولكن ليس لكم أن تشرفونا بها ، فإننا سنقابلها بالسرور والفخار ، لأنها خطوة إلى الأمام في طريق المجد الذي تسير فيه مصر إلى مصيرها الخالد ا ولو خرجنا من السجن فسنعود إلى جهادنا مرة أخرى . . ولو متنا . . ولا مصر لن قوت . . !!

#### \* \* \*

وخيم على القاعة سكون رهيب . . ووقف بقية المتهمين ، فقال كل منهم إن كلام حمد الباسل يعبر عن رأينا جميعًا . . ورفعت الجلسة للمداولة ، ثم عادت بعد قليل ، لتصدر حكمها بالإعدام على الأبطال السبعة . . وما إن فرغت المحكمة من تلاوة الحكم ، حتى وقف حمد الباسل ليهتف : نموت وتحيا مصر . . ! ! وضبجت القاعة بالهتاف : تحيا مصر . يحيا الاستقلال . . يحيا سعد . .

وأرسل الحكم إلى اللورد أللنبى ، فصدق عليه ، وبعث به إلى حكومته للتصديق. . ووجدت الحكومة البريطانية أن إعدام الأبطال السبعة ، سيؤجج لهيب الثورة من جديد ، فخففت الحكم إلى السجن سبع سنوات وغرامة خمسة آلاف جنيه . .

#### « يهوذا » المصرى

فور نشوب الحرب العالمية الأولى، بسطت بريطانيا العظمى حمايتها على مصر ففقدت شخصيتها المعنوية ، وباتت تحكم عن طريق نائب « جلالته » المقيم فى قصر الدوبارة . . وألغيت وزارة الخارجية ، فلم يعد لمصر وجود دولى . . وبذلك حققت بريطانيا هدفها النهائي من احتلال مصر منذ ١٨٨٢ ، وهو تبعية مصر للاحتلال تبعية صريحة ، بعد أن كانت من وراء حجاب . . وكانت أول خطوة الخذيا بريطانيا لتنفيذ خطتها ، خلع الخديو عباس حلمي الثاني ، ووضع عمه حسين كامل على الأريكة السلطانية ، لينفذ ما يؤمر به ، ويفتح البلاد على مصراعيها ، لتكون في خدمة الجيوش المحاربة .

وكان هذا الحدث الجسيم بمثابة طعنة في صدر الحركة الوطنية التي اشتد ساعدها ، بعد ظهور مصطفى كامل ومدرسته . . وشعر المصريون بالمهانة والعار وخيم اليأس على النفوس . . وبدا هدف الاستقلال وكأنه سراب . . وتبددت الأمال في الحرية . . وشدد الاحتلال قبضته الحديدية على البلاد ؛ فأعلنت الأحكام العرفية لأول مرة في تاريخ مصر الحديث ، وفرضت الرقابة على الصحف ، وطورد الأحرار والوطنيون ، فهم بين معتقل أو سجين أو شريد في الأفاق ، وانحطت الأخلاق ، وشاع النفاق ، وهرول الكبراء إلى قصر الدوبارة يتغزلون في مناقب نائب جلالته . . وتنافس كبار شعراء مصر في تدبيج القصائد التي تشيد بعظمة الأمة الإنجليزية وكرمها وعطفها الزائد على أرض الكنانة .

فى هذا الجو المفعم باليأس والانحطاط ، لم يعد هناك من بصيص أمل سوى شباب مصر الجسور الذى لم يتلوث ولم يتدنس ولم تجرفه موجة الفساد . . لم تكن

هناك أحزاب تستطيع أن تقود حركة النضال وتنظم الصفوف ، ولم يعد أمام الشباب إلا أن يتصرفوا بوحى من ضائرهم اليقظة و إرادتهم الحرة . . وانصب سخطهم على رأس السلطان الذليل . . وعبثا حاول السلطان حسين أن يتودد إلى قلوب المصريين ويدخل في روعهم أنه ما قبل العرش في ظل الحاية إلا لينقد مصر من خطر أكبر كانت تدبره إنجلترا ، وهو ضم مصر إلى التاج البريطاني ، وهي مقولة روجت لها أبواق السلطان لتبرير فعلته . . ولم يقتنع الشباب بهذه الأسطوانة المشروخة ، كما لم ينخدعوا بالقصص الملفقة التي نسجها المنافقون لتحسين صورة السلطان في عيون الشعب ، فهو تارة أبو الفلاح ، وتارة أبو التعليم ، وحينا راعي الشباب . . إلخ .

وفى يوم الخميس ٨ أبريل ١٩١٥ ، كان موكب السلطان يعبر شارع حسن الأكبر فى طريقه إلى قصر عابدين ، فاقترب منه شاب يلوح بباقة ورد تنطوى على مسدس ، وأطلق الشاب رصاصة على السلطان ، ولكنها أخطأته . . وقبضوا على الشاب ، وتبين أنه تاجر حردوات من المنصورة اسمه محمد خليل . . وتبين أنه كان يخفى فى جيوبه حبوبًا سامة ليبتلعها بعد قتل السلطان . . ولكنه امتنع عن تناولها لأنه رأى فى الانتحار عارًا لا يليق بالأبطال .

وقدموا الفدائى الجرىء إلى محكمة عسكرية بريطانية ، فحكمت عليه بالإعدام شنقا ، ونفذوا فيه الجحم دون أن نعرف . . هل كان محمد خليل عضوا فى منظمة فدائية ؟ إن أحدا من الذين أرخوا للحركة الفدائية فى مصر ، لم يقدم دليلا يؤكد صحة هذا الافتراض . . ويبقى القول بأن الأعمال العدائية التى سبقت ثورة ١٩١٩ كانهت تلقائية عفوية نابعة من إرادة أفرادها فحسب .

لقد أفلت السلطان من الموت ، ولكن جذوة الانتقام لم تخمد . . فبعد شهرين فقط ، كان السلطان بالإسكندرية في طريقه لأداء صلاة الجمعة ، فألقيت عليه قنبلة من نافلة أحد البيوت ، ولكن القنبلة لم تنفجر . . وهرول رجال البوليس نحو البيت ، فاكتشفوا أن الشاب الذي ألقى القنبلة استطاع أن يقفز إلى سطوح بعض البيت ، فاكتشفوا أن الشاب الذي ألقى القنبلة وجد بعض النسوة يثرثرن على باب البيت البيوت المحاورة ، ثم هبط من السلم فوجد بعض النسوة يثرثرن على باب البيت فألقى عليهن السلام ، ثم مضى في طريقه في ثقة وهدوء .

وبعد عدة شهور من البحث والتقصى ، قبضت السلطان على تسعة شبان من

الذين سوف تتألق أسهاؤهم فى حوادث اغتيال الإنجليز أثناء ثورة ١٩١٩ ، ولكن النيابة لم تقدم للمحاكمة سوى اثنين هما : محمد نجيب الهلباوى ، ومحمد شمس الدين ، فحكمت عليهما المحكمة العسكرية البريطانية بالإعدام . . ولكن السلطان التمس من الإنجليز تخفيف الحكم فاستبدلت به الأشغال الشاقة المؤبدة .

#### \* \* \*

من يصدق أن أحد هذين الشابين الجسورين سوف ينتقل من معسكر الوطنية والفداء إلى معسكر الخيانة والغدر ، فيعمل مرشدًا وعميلا لسلطات الاحتلال ، ثم يبيع زملاء الجهاد بأبخس الأثمان حتى يسلمهم إلى حبال المشانق . . فيكون مثله مثل « يهوذا » التلميذ الخائن الذي باع المسيح لأعدائه ؟!!

# ثمن الخيانية

كان أول عمل قامت به وزارة الشعب الأولى ، برئاسة سعد زغلول ، هو الإفراعن الفدائيين المحكوم عليهم فى قضايا الاغتيالات السياسية ، ومن بينهم محم نجيب الهلباوى ، الذى ألقى القنبلة على السلطان حسين بالإسكندرية فى يولي نجيب الهلباوى طائ مراحه ، ذهب محمد نجيب الهلباوى طائ مختارًا إلى مبنى المخابرات البريطانية ، ليضع نفسه فى خدمة الاحتلال ، ويسخ خبرته السابقة ومعلوماته الغزيرة عن الأعمال الفدائية لتكون تحت أمر سلطات خبرته السابقة ومعلوماته الغزيرة عن الأعمال الفدائية لتكون تحت أمر سلطات الاحتلال . وكان الإنجليز فى شوق شديد لواحد من هذا الطراز ، يكشف خباء العمليات الجريئة التى قام بها الجهار السرى التابع لقيادة ثورة ١٩١٩ ، وذهب ضحيتها العديد من الإنجليز وأعوانهم من الوزراء المصريين الذين قبلوا العمل مع الاحتلال فى ظل الحاية البريطانية .

وكان الإنجليز، في أعقاب كل حادث، يرصدون مكافآت مالية سخية لأى شخص يدلى بمعلومات تؤدى إلى كشف الستار عن هذا الجهاز الغامض، ولكن مصريا واحدًا لم يتقدم. كان هناك ملايين من المصريين الفقراء في حاجة إلى ثمن رغيف خبز . ولكن لم يكن هناك مصرى واحد، طاوعته نفسه لخيانة بلده، رغم أن حوادث الاغتيال كانت تجرى في الشوارع والميادين في وضح النهار، ويراها العشرات والمثات من أبناء البلد . إلى أن ظهر هذا الشيطان المدعو محمد نجيب الهلباوى ، ليصبح عميلاً في جهاز المخابرات البريطانية تحت اسم « مستر » . . ويتحول من بطل يحمل روحه على كفه ، إلى خائن مهمته ملاحقة إخوانه الفدائيين والاختلاط بهم ومعرفة أسرارهم ونقلها إلى العدو!

لقد رحب الإنجليز بالهلباوى ، واعتبروه مكسبا كبيرا وتركوه يملى عليهم شروطه للتعاون معهم ، وهى شروط رخيصة الثمن ، لا تزيد على راتب شهرى قدره أربعون جنيها بخلاف المسكن والمأكل والمشرب . . فيا هى الدوافع القوية التى يمكن أن تجعل من البطل عميلا ، ومن الفدائي خائنا ؟ وما الذى قلب كيان هذا الشاب الذى وصفه سعد زغلول ، عندما رآه بعد حادث القنبلة ، بأنه يشبه في هيئته وحركاته مصطفى كامل ؟

إن محمد نجيب الهلباوى ، يعترف فى مذكراته المخطوطة التى أودعها عند الأستاذ مصطفى أمين ، بأنه خرج من السجن فوجد بعض زملائه تقدموا عليه فى الوظيفة وأنه كان يطمع فى وظيفة محترمة ، ولكن سعد زغلول عرض عليه وظيفة مرتبها ١٥ جنيها ، بينها عين أحد الصحفيين فى وظيفة بمرتب ٣٥ جنيها . . فهل يمكن أن تكون عشرون جنيها - فرق مرتب - مبررًا للخيانة ؟! وهل نقبل من الفدائى الذى كان قاب قوسين أو أدنى من حبل المشنقة ، أن يبيع روحه للعدو بسبب عشرين جنيها؟! إننا لو قبلنا هذا المنطق العليل لكان حتها أن نقبل أعذار الجواسيس والخونة . . وكلهم يعلق دوافع خيانته على شهاعة الجحود والظلم الذى يعانيه من أبناء وطنه وهو منطق الخونة الذين لا يخلو منهم مجتمع فى كل زمان ومكان .

إن واحدًا من ضحايا الهلباوى ، يضع أيدينا على تاريخ المرحلة الانقلابية في حياة الشاب . . ويقول البطل الجسور عبد الفتاح عنايت ، سليل البيت الفدائى العريق، وأحد الثانية الذين ساقهم الهلباوى إلى حبل المشقة في قضية السردار والوحيد الذي أفلت من الإعدام لصغر سنه ، يقول عبد الفتاح عنايت : ( إن الهلباوى انقلب من وطنى فدائى إلى عميل بريطانى ، لأنه عندما سجن سنة الهلباوى انقلب من ولو كان في ذلك الوقت يوجد جهاز يهتم بالمسجونين لما انقلب هذا الرجل القد خرج من السجن مصرا على الاشتغال مع المخابرات البريطانية ، حاقدا على ثورة ١٩ ، وحاقدا على زعيمها وعلى جهازها السرى وحاقدا على المصريين جميعا ١١!

وكلام عبد الفتاح عنايت ، يدل على أن الهلباوى كان عاقدًا النية على الخيانة قبل أن يخرج إلى عالم الحرية . . فالقضية لم تكن إذن قضية وظيفة ذات مرتب ضئيل - كما

يزعم - ولكنها الرغبة المتأصلة فى التدمير وهدم المعبد على رءوس أبناء وطه جميعا والعدر الذى يسوقه عنايت عن إهمال شئون المسجونين السياسيين ، هو كلام ناس شرفاء طيبين ، يتمنون الكيال فى مسيرة الثورات ، ولكنه لا يمكن بحال أن يكون مبرزا للخيانة والغدر . . فعبد الفتاح عنايت نفسه ، فقد أخاه الأكبر « محمودًا ، مين مات فى السجن سنة ١٩١٧ ، ومع ذلك لم يتحول أولاد عنايت إلى خونة حين مات فى السجن سنة ١٩١٧ ، ومع ذلك لم يتحول أولاد عنايت إلى خونة حاقدين ، بل واصلوا مسيرة أخيهم فى مقاومة الاحتلال بالحديد والنار . . أما الطلباوى فقد سار فى طريق الغواية حتى وقع حادث السردار ، فتكشفت مواهبه الشريرة عن شيطان رجيم .

## زملاء الكفاح القديم

فى الساعة الثانية من بعد ظهر الأربعاء ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ ، غادر السير ( لى ستاك ) ، سردار الجيش المصرى وحاكم السودان ، مقر وزارة الحربية بلاظوغلى عائدًا إلى بيته بالزمالك ( نادى الضباط حاليا ) . . وما إن اقتربت سيارته من شارع قصر العينى ، حتى انهال عليه وابل من الرصاص ، من سيارة تاكسى كانت تلاحقه . . فخر صريعا .

وفى الساعة الخامسة من مساء نفس اليوم ، كان العميل محمد نجيب الهلباوى على موعد مسبق مع ضابط الشرطة المصرى ، اليوزباشى سليم زكى ، الذى كان من أكبر أعوان السلطات البريطانية . . وبرغم حالة الهلع التى أصابت الإنجليز ومعهم جهاز الأمن المصرى من جراء الحادث ؛ فقد كانت تعليات اللواء توماس راسل باشا ، حكمدار بوليس القاهرة ، إلى اليوزباشى سليم زكى بأن يلهب للقاء الهلباوى فى المكان المحدد بضاحية مصر الجديدة ، ليعرف منه أسباب فشله فى التنبؤ بالحادث قبل وقوعه . . وعسى أن يحصل منه على معلومات ، تفيد فى كشف القتلة . . ولكن سليم زكى فوجئ بأن عميله أحيب بما يظن ؛ فلم يكن يعلم بعد بخبر مصرع السردار . . بما وضع العميل فى موقف حرج ، وعرضه لحملة من التقريع والطعن فى كفاءته .

وبالرغم من سقوط الهلباوى ، فى أول امتحان يتعرض له منذ انضامه إلى المخابرات البريطانية ، قبل تسعة شهور ـ فإن الإنجليز لم يفقدوا الأمل فى قدرته على القيام بعمل ما ، يثبت من خلاله إخلاصه فى خدمتهم ، وليزيل الشكوك التى تعمد سليم زكى أن يبثها فى نفسه ، ليدفعه إلى مزيد من الولاء والتفانى فى خدمة سادته الإنجليز .

وبدأ الهلباوي الخطوة الأولى في الطريق الصعب . . طريق الحيانة والغدر . . وانطلق لتوه إلى مكتب شفيق منصور المحامي . . فقد كان واثقًا بأن تدبير حادث مصرع السردار ، لا يمكن أن يتم خارج دائرة شفيق منصور ، ومجموعته الفدائية التي كانت تضم أعتى العناصر جرأة وجسارة ، من أمثال : محمود إسهاعيل ضابط خفر السواحل السابق . . والشقيقين عبد الفتاح عنايت الظالب بالحقوق ، وعبد الحميد الطالب بالمعلمين العليا . . ومحمود راشد مساعد المهندس بمصلحة التنظيم . . وإبراهيم موسى زعيم عمال العنابر . . ومحمد فهمى على زعيم عمال الترسانة . . وهي المجموعة التي قامت باغتيال الإنجليز وأعوانهم في أعقاب ثورة ١٩١٩ . . كان نجيب الهلباوي يعرف كل هؤلاء الرجال من خلال تردده الدائم على مكتب شفيق منصور . وكان هذا المكتب أشبه بخلية نحل يأوى إليها الشباب المتحمس. . يثرثرون في السياسة ويخططون لقتل الإنجليز . . وكان الهلباوي أعلى الجميع صوتا . . وأشدهم حماسة وتطرفا . . كان لا يكف عن إبداء سخطه على الإنجليز وضرورة استئناف عمليات اغتيالهم . . وكان شفيق منصور يعمل على تهدئة هذا الثائر الغيور (!!) ، وأفهمه أن كل شيء بأوانه . فيزداد ثورة وهياجا . . وكثيرًا ما كان شفيق يصحبه إلى بيته ، ليشاركه الطعام ، فقد كان دائم التبرم والتظاهر بالفقر ، حتى أن محمود إسهاعيل صحبه إلى ترزيه الخاص ، وضمنه في صنع بدلة له بالتقسيط ، ودفع له القسط الأول من ثمنها ، وقدره خسون قرشا . . وكان هذا مسلك بقية الشباب الأبرار الذين تقبلوا وجود الهلباوي بينهم لسابقته في الجهاد . . دون أن يتصوروا أنهم بإزاء عميل إنجليزي ، مهمته كشف أسرارهم وسوقهم كالذبائح إلى ساحات الإعدام.

فلما وقع حادث السردار ـ من وراء ظهر الهلباوى أو (المستر (H) ـ أدرك أن كل التمثيليات التى أداها ، وكل الحماسة الجوفاء التى تظاهر بها ، لم تفلح فى كسب ثقة هؤلاء الأبطال الذين كانوا يقدسون سرية العمل الفدائى ، ولم يكونوا من السذاجة ليكشفوا سرهم لأحد ، حتى لو كان مناضلاً سابقا . . وكان الهلباوى يعرف الظروف النفسية لهؤلاء الصناديد ، وأنهم من الصلابة بحيث يصعب اختراق حاجز الصمت الذى فرضوه على عمليتهم . . فكان عليه أن يبحث عن وسيلة للإيقاع الصمت الذى فرضوه على عمليتهم . . فكان البوليس السياسى يلجأ إليها وتنتهى بهم ، تختلف عن الوسائل التقليدية التى كان البوليس السياسى يلجأ إليها وتنتهى

لى إخلاء سبيلهم لعدم كفاية الأدلة . . وكانت القاعدة التي بني عليها خطته هي العندما تلقى القبض على أشخاص ، فيجب أن يكون هؤلاء الأشخاص المذنبين الحقيقيين ، أما إذا ألقيت القبض على أشخاص ( مشكوك فيهم ) . فإن المذنبين الحقيقيين سيعرفون أنك غير واثق بالأمر » .

وبناء على هذه القاعدة ، عكف الهلباوى على رسم خطة جهنمية متقنة الصنع دقيقة التفاصيل ، تشبه سيناريو لفيلم أمريكى من أفلام الإثارة ، وهى مسجلة بالتفصيل ضمن الوثائق البريطانية ، وقد ترجها الاستاذ محسن محمد ، ونشرها المحتور حسين مؤنس فى كتابه ( دراسات فى ثورة ١٩١٩ ) ، كما عرض الاستاذ مصطفى أمين بعض محتوياتها فى ( الكتاب الممنوع - الجزء الثانى ) ضمن اعترافات محمد نجيب الهلباوى التى أسهاها ( إماطة اللثام عن أخطر الأسرار ) .

ولما فرغ الهلباوى من وضع خطته ، دعا إلى اجتماع مغلق فى بيت أنجرام بك مساعد الحكمدار بالجزيرة ، حضره إسهاعيل صدقى باشا وزير الداخلية ، والنائب العام ، وراسل باشا حكمدار القاهرة ، ومساعده أنجرام ، واليوزباشى سليم زكى . . يقول الهلباوى : انعقدت الجلسة ، وبعد مناقشة طويلة ، سلمتهم خطة القبض على الجناة مكتوبة بيدى ، وطلبت منهم تنفيذها بدقة سير عقرب الساعة . وحدرتهم مغبة التأخير أو التقديم ؛ فقد تؤدى غلطة بسيطة إلى الفشل الذى سوف يعقبه المذلة لجميع سكان وادى النيل . . قال راسل باشا : وإن لم تنجح الخطة ، فها مصيرك يامستر H ؟ قلت : سوف أقتل نفسى على الطريقة اليابانية ، لأنى لا أطيق صبرا على ذل بلادى ومليكى .

وتم تنفيذ خطة مستر H ، بالدقة التي طلبها ، وانتهى بالقبض على الرجال الشهاتية الذين خططوا ونفذوا الحادث ، ونفذ حكم الإعدام في سبعة منهم ، وخفف عن الثامن ، وقبض الهلباوي المكافأة التي رصدتها الحكومة له وقدرها عشرة آلاف جنيه ، ولينعم بالحياة التعيسة على رقاب زملاء الكفاح القديم .

# عندما ينقلب السحر على الساحر

كان لغز مصرع السردار ـ ولا يزال ـ محصورًا في معرفة الجهة التي حرضت عليه . . وفي أعقاب الحادث ، كانت أصابع الاتهام وهي أصابع بريطانية ـ تسعى إلى تعليق التهمة في عنق الوفد ، ووضع رقبة سعد زغلول في حبل المشنقة ، باعتباره الأب الروحي للشباب الثوري الذي ارتكب الحادث ، وارتكب من قبله عشرات الحوادث الماثلة .

وفى مقابل فكرة اتهام الوفد بالتحريض على قتل السردار ، ظهرت فكرة أخرى تحاول أن تنهم الإنجليز أنفسهم بتدبير الحادث ، كذريعة للتخلص من وزارة سعد زغلول ، التى كانت تمثل التشدد الوطنى إزاء الأطاع البريطانية . . وصاحب فكرة اتهام الإنجليز هو الأستاذ مصطفى أمين ، الذى جمع عددا من الأسانيد استخلصها من بعض الوقائع ، التى تصادف وقوعها قبيل الحادث . . غير أن مصطفى أمين لم يقف بفكرته عند حد اتهام الإنجليز ، بل انتقل منها إلى اتهام الملك فؤاد بتدبير الحادث عن طريق رجل القصر القوى حسن نشأت ، الذى حرض صديقه محمود إسهاعيل على قتل السردار .

ولكن المناقشة المنطقية للأسانيد التي قدمها مصطفى أمين لا تلبث أن تكشف عن صعوبة قبولها . فهو قد بني فكرته على أساس نظرية \* ابحث عن المستفيد من الجريمة تصل إلى الفاعل » . ولكن . . إذا كان من الصحيح أن الإنجليز والقصر استغلا حادث السردار إلى أقصى مدى لتنفيذ مآربهم ، إلا أن الاستثمار في حد ذاته لا يقف دليلا ماديا على أن المستفيد هو المحرض ، ومن ثم يسقط اتهام الإنجليز والقصر بتدبير الحادث ولا يبقى مطروحا للمناقشة سوى اتهام الوفد .

وأصبحاب هذا الاتهام ، يستندون إلى الاعترافات المذهلة إلى كتبها شفيق منصور قبل إعدامه ، وكشف فيها النقاب عن وجود مجلس أعلى للاغتيالات ، كان تابعا لقيادة ثورة ١٩١٩ ، ويتكون من زعاء شباب الوفد المقربين من سعد ، مثل : المدكتور أحمد ماهر ، ومحمود فهمى النقراشي ، وحسن كامل الشيشيني ، وشفيق منصور ، وغيرهم . . أما عمليات الاغتيال ، فكان يقوم بها جهاز تنفيذي ، يتلقى أوامره من المجلس الأعلى ، عن طريق ضابط اتصال هو محمود إسهاعيل . . وكان بعض أفراد جهاز التنفيذ : أولاد عنايت ، ومحمود راشد ، ومحمد فهمي على ، هم الذين قاموا باغتيال السردار .

ومن الثابت تاريخيا أن هذا الجيش السرى من الشباب الثورى هو الذى تكفل بكل عمليات الاغتيال للعناصر البريطانية والموالية للاحتلال أثناء الثورة . . ومن الثابت أيضا أن عمليات الاغتيال توقفت بعد انتقال الحركة الوطنية من مرحلة الصدام المسلح إلى مرحلة الكفاح الدستورى . . وهى المرحلة التى بدأت بصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، وإعلان دستور ١٩٢٣ ، وإجراء أول انتخابات نيابية وتشكيل وزارة سعد زغلول في ٢٨ يناير ١٩٢٤ . . فإذا كانت قيادة الوفد قد شجعت أو باركت أعمال العنف في مرحلة الصراع المسلح مع الاحتلال ، فهل كان شجعت أو باركت أعمال العنف في مرحلة الصراع المسلح مع الاحتلال ، فهل كان من المنطقى أن يستمر أسلوب العنف والاغتيال إلى ما لا نهاية ؟! ولكن إذا كانت قيادات الوفد قد رأت أن العنف قد استنفد أغراضه . . فهل كان من الممكن إقناع الشباب الثورى بهذا المنطق والتخلى عن عمليات الاغتيال ؟! . .

هنا.. تتكشف لنا أبعاد الفصام ، الذي وقع بين قيادة الوفد وجهازها السرى.. وهذا الفصام هو المسئول الحقيقي عن اغتيال السردار ، وتدبير الحادث من وراء ظهر الوفد ، وإرغام قيادته على التخلي عن أسلوب التفاوض (خاصة بعد فشل محادثات سعد ماكدونالد) ، والعودة إلى أسلوب العنف . . ذلك أن المنظمات السرية عند بدء تكوينها تكون أداة طبعة في يد قيادتها ، ولكنها سرعان ما تستمرئ العنف ولا ترى سبيلا غيره لتحقيق الهدف . . عندئذ ينقلب السحر على الساحر ، وتتحول التنظيمات السرية إلى وحش كامر يصعب ترويضه أو السيطرة عليه . . بل إنها تتمرد على قيادتها ، وتتخذ قرارها بطريقة فردية دون احترام لرأى القيادة السياسية .

هذه حقيقة تؤكدها وقائع التاريخ السياسي للجهاعات التي لجأت إلى تشكيل منظهات سرية كوسيلة ضرورية لتحقيق أهدافها في مرحلة زمنية معينة ، ولكن سرعان ما يحدث انفصام بين الجهاعة وتنظيمها السري في مرحلة لاحقة . وتلك هي أخطر عواقب المنظهات السرية . فهي سلاح ذو حدين : أحدهما يقتل الخصم . . والثاني يقتل صاحبه . وهذا ما حدث في قضية السردار . فقد تبين من وقائع التحقيق أن الفكرة نبتت في ذهن بعض أعضاء الجهاز التنفيذي للاغتيالات . الذين عز عليهم أن يتحول سعد زغلول من زعيم ثورة إلى رئيس وزراء في ظل استقلال منقوص يتمثل في التحفظات الأربعة التي نص عليها تصريح ٢٨ فبراير . . وعجزوا عن إدراك الحقيقة التي تقول إن الكفاح السياسي ، كفيل باستكهال هذا النقص عن إدراك الحقيقة التي تقول إن الكفاح السياسي ، كفيل باستكهال هذا النقص ومن هنا . . انفردوا باتخاذ قرارهم .

## سعدأو الشورة

كان حادث اغتيال السردار نكبة على مصر ، بالقياس إلى النتائج الخطيرة التى نجمت عنه ، وهى نتائج لا تتناسب إطلاقا مع حجم الحادث ، أيا كانت شخصية القتيل . . ومن المؤكد أن هذه النتائج لم تخطر على بال الذين خططوا له ونفذوه . . فقد ظنوه واحدا فى سلسلة العمليات الفدائية التى كانت تشكل ضغطا على الإنجليز، وتدفعهم إلى مزيد من التنازلات لمصلحة القضية الوطنية . . ولكن هؤلاء المخططين نسوا الفارق الزمنى ، والتغيرات التى طرأت على بنية العمل السياسى منذ صدور تصريح ٢٨ فبراير وإعلان دستور ١٩٢٣ وما ترتب عليه من إجراء انتخابات عامة دفعت بالوفد من معسكر الثورة إلى مقاعد الحكم . . لقد كانت حوادث الاغتيال السابقة تجرى والوفد فى معسكر الثورة . . أما حادث السردار فقد تم والوفد فى مدح عادث السردار فقد السردار . وثمن كل الحوادث التى سبقته ـ وهو خارج الحكم ـ والتى بلغت فى مجملها السردار . وثمن كل الحوادث التى سبقته ـ وهو خارج الحكم ـ والتى بلغت فى مجملها المصريين الذين قبلوا التعاون مع الاحتلال فى ظل الحاية .

وفى مثل هذه الأحداث الجسام ، فإن نتائجها لا تتم وفقا لحسابات مرتكبيها ولكنها تجرى حسب قدرة الطرف الآخر على استغلالها للحصول على مغانم لا صلة لها بالحادث نفسه . . وهذا هو ما حدث بالضبط . فقد وجدها الاستعارى الشرس لورد اللنبي فرصة ذهبية ليشن هجمة انتقامية بربرية هدفها إهانة المصريين والحط من كرامتهم ، وجرح كبريائهم التي بلغت ذراها إبان ثورة ١٩١٩ ، والإطاحة بزعيمهم سعد زغلول الذي قال إنه يحكم باسم أصحاب الجلاليب الزرقاء . . وارتكب اللنبي في سبيل ذلك سلسلة من الأعمال الشرسة دون استئذان رؤسائه في

وزارة الخارجية البريطانية ، مثل : طرد الجيش المصرى من السودان ، وتوسيع رقعة المساحة المزروعة قطنا في السودان على حساب الإنتاج المصرى ، واحتلال جمرك الإسكندرية ، وفرض غرامة قدرها نصف مليون جنيه بأسعار ذلك الزمان . . [أخح .

وليس من شك ، في أن الإطاحة بحكومة الشعب الأولى ، لقيت ترحيبا وقبولا من رأس الأتوقراطية الغشوم الملك فؤاد الذي سمع بأذنيه هدير الجهاهير عبر نوافل قصر عابدين ، وهي تهتف السعد أو الثورة ، قبل أسبوع واحد من مصرع السردار . ووجدها الملك فرصة للتخلص من هذا الفلاح الثائر العنيد ، الذي يصحب ترويضه ، ولم تفلح مباهج السلطة في التخفيف من نزعته المتشددة وتمسكه بحقوق الشعب التي كفلها الدستور ، بعد أن اصطبغت بلون الدم أثناء حوادث الثورة -

وترك سعد الوزارة بعد تسعة شهور فقط من التجربة الليبرالية التى تمخضت عن مصبح دستور ١٩٢٣ . وكانت تلك أفدح الحسائر السياسية التى نجمت عن مصبح السردار . لقد جاءت وزارة و إنقاذ ما يمكن إنقاذه به برياسة أحمد زيور ، لتلبى كل المطالب التى فرضها الإنجليز وزيادة وأصبح إقصاء الوفد عن الحكم هدفا ثابتنا في لاتحة القصر الملكى ودار المندوب السامى . . وفي الانتخابات العامة التى أجريت عام ١٩٢٦ ، وحصل فيها الوفد على أغلبية ساحقة تخوله الحكم ، ولاحت بوادر عودة سعد إلى رياسة الوزارة ، في هذه اللحظة تحركت البوارج الإنجليزية تحو الإسكندرية لتجعل من عودة سعد أمرا مستحيلا . ودخلت مصر في دوامة الانقلابات الدستورية التي أسلمت زمام الأمور إلى حكومات مستبدة لا تستند الى تأييد الشعب ، وإنها تستمد وجودها من قصر عابدين أو قصر الدوبارة .

والثابت تاريخيا ، أن سعد زغلول كان يعتبر حادث مصرع السردار طعنة فى ظهر الوفد . . وأثبتت الأحداث التالية صدق هذا الرأى . . فمن إذن الذى أمر يقتل السردار . . ؟!

### بنىك مصر

كان قيام بنك مصر في مايو ١٩٢٠، هو أعظم إنجاز اقتصادي لثورة ١٩١٩.. ولكى ندرك أهمية هذا الصرح الشامخ في تاريخ مصر الحديث ، ينبغي أن نتذكر الحالة التي كان عليها الاقتصاد المصري منذ التغلغل الاستعباري الأوربي الذي بدأ في عصر الخديو إسهاعيل ، ثم بلغ ذروته باحتلال مصر عسكريا وخضوع الاقتصاد المصري للسيطرة البريطانية ، حتى تحولت مصر بكاملها إلى مزرعة قطن لخدمة مصانع النسيج الإنجليزية ، وتحول المصريون إلى مستهلكين للمنتجات الإنجليزية . وانفتحت مصر على مصراعيها للبنوك والشركات والمؤسسات الأجنبية . وباتت مرتعا للمرابين الخواجات الذين انتشروا في المدن ، وانبثوا في القرى يمتصون عرق أبنائها بأرخص الأثبان . .

كنت تمشى فى قلب القاهرة التجارى ، فلا تجد محلا مصريا عليه القيمة . . فكل المحلات الكبرى تحمل أسماء أجنبية : شيكوريل ، شملا ، أوركو ، أفرينو بنزايون ، صيدناوى ، عمر أفندى ، داود عدس . . حتى محلات البقالة الكبيرة احتكرها الطليان والأرمن واليونانيون ، واقتصر نشاط المصريين على تجارة العطارة فى المحلات الصنعيرة المكدسة فى الغورية وبين الصورين ، وعربات الفول والطعمية والكشرى التى تزين جدرانها بشعارات انهزامية تقول : ملك الملوك إذا وهب . . لا تسألن عن السبب . . !! وكانت البنوك \_ عصب الاقتصاد \_ تابعة للمصالح الأجنبية بها فيها بنك الدولة القائم على إصدار العملة \_ البنك الأهلى المصرى \_ ، فقد كان بنكا إنجليزيا لحها ودما . . ولا يحمل من سهات المصرية سوى الاسم المزيف . . فلم يكن أهليا . . ولا مصريا . . !!

في هذا الجو القاتم . . وفي هذه الغابة التي تمرح فيها وحوش كاسرة ، ظهر شاب مصرى مشبوب العاطفة ، صادق الوطنية ، متقدم الفكر ، اسمه طلعت حرب ، استحوذت على فؤاده فكرة أشبه بالخيال ، هي إنشاء بنك مصري ، يعمل على تجميع مدخرات المصريين واستخدامها في إنشاء صناعات مصرية وتمويل مشروعات مصرية . . ويعمل فيه مصريون ويستخدمون في معاملاته اللغة العربية . . وعندما بلغ طلعت حرب سن الخامسة والعشرين أصدر في عام ١٩١٠ كتابا صغيرًا عنوانه (علاج مصر الاقتصادي ومشروع بنك مصر أو بنك الأمة) . وإذا كان الخطاب يقرأ من عنوانه ، فإن عنوان الكتاب يكشف عن مضمونه ، وهو أنه الكي يتم الاستقلال السياسي ، فإنه من الضروري أن تتوفر للوطن إمكانات التحرر الاقتصادي التي ترسى دعائم اقتصادية وطنية يستطيع الوطن أن يواجه بها التحرر الاقتصادي التي ترسى دعائم اقتصادية وطنية يستطيع الوطن أن يواجه بها الاختناقات التي سوف يجتازها في مراحل نضاله مع الاستعمار . . تغذى كفاحه وتدعمه وتمنحه الصلابة وقوة الصمود . . » .

لقد وضع طلعت حرب يده على بيت الداء . . إن الاستعار الاقتصادى هو الهدف الحقيقي للاحتلال . . ورأى بفكره الثاقب أن الاستقلال السياسي لن يكتمل، إلا إذا تحررت البلاد من أغلال الرق الاقتصادى . وكتب بيده روشتة العلاج في هذا الكتاب الصغير . . وكان العلاج قيام بنك مصرى خالص يرعي مصالح المصريين ويأخذ بيدهم من مهاوى العجز والخمول .

ولكن . . كيف يمكن لهذا المشروع الأسطورى أن يرى النور وسط الدياجير المظلمة التى تخيم على مصر فى ظل جبروت كرومر . . وتواطؤ عباس الثانى . . وسلبية كبار الملاك الدين هادنوا الاحتلال وارتبطت مصالحهم بمصالحه . ولم ينظروا للى أبعد من أقدامهم ؟! فلم يتخيلوا إمكانية قيام بنك مصرى ، متحرر من أغلال القهر الإنجليزى ، يعمل فيه مصريون . . كانوا يتصورون أن حرفة المال والتجارة سر لا يتقنه سوى الخواجات . . !

\* \* \*

مثل هذا المشروع ، كان لا يمكن أن يرى النور إلا فى أحضان ثورة شعبية وطنية تقلب موازين القوى وتفتح عيون الغافلين على حتمية الاستقلال الاقتصادى . .

وقامت الثورة في مارس ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول . . وتفتحت ينابيع الوعى في الشخصية المصرية . وترددت أصداء الحرية في جنبات الوادى وتاقت نفوس المصريين إلى الحرية بمعناها الشامل . . وبأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتهاعية . . وارتبط شعار « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » بشعار « مصر للمصريين » وتحرير المصالح المصرية من السيطرة الأجنبية . . واستجاب المصريون إلى نداء سعد زغلول للمساهمة بقروشهم القليلة في رأسهال ( بنك مصر ) . . ومن حصيلة هذه القروش ، تجمع مبلغ لا يزيد على ثهانين ألف جنيه ، كان هو النواة الأولى في بناء الصرح الكبير . . وارتبط بنك مصر بثورة مصر ، وأصبح أولى ثمراتها المباركة . . وأروع إنجازاتها العملية . .

وكان تشجيع بنك مصر هدفا ثابتا من أهداف الثورة الوطنية . . فحين لجأت الثورة إلى أسلوب المقاطعة الاقتصادية للمصالح الأجنبية ، طلبت من المصريين أن يسحبوا أموالهم من المصارف الإنجليزية ، وأن يودعوها في بنك مصر . . وحثتهم على شراء أسهم بنك مصر « حتى يبلغ رأسهاله مبلغا يتناسب مع حالة البلاد الاقتصادية ، وبذلك يتسنى للبنك أن يساعد في إحياء المشروعات الوطنية وتنشيط الصناعة والتجارة المصرية » .

وشب الوليد عن الطوق ، واتسع نشاطه حتى بلغت شركاته ١٤ شركة ، تمارس نشاطها في جميع فروع الاقتصاد الوطنى . . وأثبت قدرة المصريين على الوقوف على أقدامهم . . وخرجت إلى الأسواق منتجات مصرية أقبل عليها المصريون وهم يشعرون بالفخار والاعتزاز لأنها من صنع بلادهم . . وكان من بين الشركات التى أسسها بنك مصر شركة اسمها (شركة بيع المصنوعات المصرية ) . تخصصت في بيع السلع المصنوعة بأيد مصرية . . ولكنها تحولت الآن \_ في ظل الانفتاح \_ إلى مركز لترويج السلع المستوردة ، مثل غيرها من شركات القطاعين العام والخاص . . وتبدد الحلم الذي كافح من أجله طلعت حرب منذ ستين عاما ، على أيدى الغافلين الخين لا يدركون معنى الاعتزاز بالوطنية المصرية .

### سنمار المصرى

ما إن فرغ طلعت حرب من بناء قلعة الاقتصاد الوطنى ـ بنك مصر ـ حتى كان جزاؤه نفس جزاء البناء الشهير ( سِنِهَار ) الذى بنى قصرا فخيها لأحد ملوك الفرس الاقدمين . . فلها انبهر الملك من روعة البناء ، خاف من سنهار أن يبنى لغيره أفخم منه . فصعد به إلى سطح القصر ، وألقى به من حالق !! وبات جزاء سنهار رمزًا على الجحود ونكران الجميل . . وكان جزاء طلعت حرب ، الإبعاد عن الصرح الذى بناه على كاهله طوبة طوبة ، ولكن عزاءه الوحيد أن البنك رسخت جلوره فى تراب مصر . وفاءت ظلاله على الروابي الخضر ، وبات حقيقة ماثلة على صلابة الإرادة الوطنية فى مواجهة البطش الاستعمارى . . !

\* \* \*

فعلى مدى عشرين عاما ( ١٩٤٠ - ١٩٤٠ ) استطاع طلعت حرب أن يجعل من بنك مصر بينا مصريا خالصا يأوى إليه المصريون ، هربا من نار النفوذ الأجنبى الذى يأخذ بخناقهم ، ويستنزف أموالهم ، ويسخر بلادهم سوقا استهلاكية لتصريف منتجات المصانع الإنجليزية . . فظهرت شركات بنك مصر لتبنى قواعد النهضة الصناعية والتجارية والأدبية والفنية والثقافية . . وبمقتضاها تحولت مصر من بلد زراعى خامل ، إلى بلد مزدهر بالحركة والوعى ، وانطلقت المداخن إلى عنان السها في المحلة الكبرى وكفر الدوار ، لتقدم إلى المصريين نسيجا من أقطان بلادهم ودارت عجلات ( مطبعة مصر ) لترعى حركة التثقيف والتنوير ، وتقدم إلى العقل ودارت عجلات ( مطبعة مصر ) لترعى حركة التثقيف والتنوير ، وتقدم إلى الناس فنا مصريا راقيًا ، وغذاء ثقافيًا مفيدًا ، حتى صناعة السينها لم تفلت من نشاط طلعت

حرب، وقام ستديو مصر في صحراء الهرم ليرعي صناعة السينها التي كانت حكرا على الأجانب، واتسع نشاط ٢٤ شركة ليشمل كل مجالات العمل الوطني من التأمين إلى العقارات، ومن صناعة الزيوت والألبان إلى صناعة الأسمنت المسلح والمناجم والمحاجر، ومن السياحة والفنادق إلى النقل والملاحة البحرية والطيران. وباختصار لم يترك طلعت حرب فرعا من فروع الاقتصاد إلا غزاه، وأقام له شركة تحمل اسم ( مصر ) العزيزة، وبأموال مصرية خالصة، وبسواعد مصرية شابة وضعت في موضع الاختبار، فكشفت عن جدارتها، وتولد لديها الإحساس بالثقة والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالنسب المصري. وأضحت شركات بك مصر مدارس لتفريخ الخبرات التي حملت عبء النهضة الوطنية، واستردت أرضا كانت سداحا مداحا للغرباء والأجانب.

\* \* \*

فعل طلعت حرب كل هذه الأفاعيل ، فى ظل الوجود الإنجليزى المتسلط على شئون مصر والمتحكم فى إرادتها . . كانت مصر فى ذلك الحين ، قد حطمت بالثورة أغلال التبعية ، ومضت تمزق أكفانها وتستروح نسيات الحرية . . ولم يكن الطريق سهلا ميسورا . . كانت الحركة الوطنية تشق طريقها فى الصخر لاستكهال مسيرة الثورة ، وتكافح كفاح الصابرين من أجل تحرير الإرادة الوطنية من نفوذ ممثل الاحتلال القابع فى قصرالدوبارة ، واستبداد الطاغية القامع فى قصر عابدين ، وهى بين هذا وذاك تتقدم خطوة وتتعثر خطوات . .

وفي هذا الجو الملبد بالدسائس والمؤامرات ، استطاع طلعت حرب أن يقود سفينة بنك مصر في غفلة من عيون الاحتلال ، ولو شئت الدقة لقلت إنها كانت غفلة الدئب الذي يترك فريسته حتى تتعثر في شباكه وتسقط مستسلمة في بؤرة الفشل والإحباط . في البداية كان الإنجليز يظنون أن بنك مصر مشروع محكوم عليه بالفشل انسياقا وراء الوهم المستحكم بعدم قدرة المصريين على اقتحام دنيا المال والتجارة والصناعة . . ولكن الأيام أثبتت لهم كذب ما يزعمون ، ووقف البنك على قدميه كالمارد العملاق . . فلما ثارت غيوم الحرب العالمية الثانية ، واشتدت قبضة الإنجليز على اقتصاد مصر ، حانت لحظة الانتقام من طلعت حرب ، وهدم البنك

واجتمعت الحكومة المصرية ، وبدلا من أن تصر على بقاء طلعت حرب على رأس البنك الوطنى ، استجابت للمطلب الإنجليزى وأعدت مشروعا تحل فيه الحكومة محل البنك الأهلى ، واجتمع البرلمان لبحث الاتهامات الدنيئة التى وجهت إلى طلعت حرب ، وتبين للمجلس أن الرجل لم يزل كها كان دائها مشرق الصفحة وضاء الضمير، وأن كل ما قيل عنه مفتريات أملاها الحقد . .

ووافق البرلمان على مشروع على ماهر ، وذهب طلعت حرب . . وجاء حافظ عفيفى المعروف برعايته للمصالح الإنجليزية ، لينفذ الجزء الأخير من المؤامرة ، وهو ملاحقة رجال الأعمال المصريين ، الذين كانوا يتعاملون مع البنك ، وفرض عليهم تسديد القروض في وقت جفت فيه ينابيع السيولة النقدية ، فبيعت بيوتهم في المزاد .

وقضى طلعت حرب أيامه الأخيرة في سكون ، بعيدا عن الصرح الذي شيده بإصراره وجلده وإيانه . . ولم يندم إذ أوى إلى الظل بقوة القهر . . وبقى البناء شاخا يواصل عطاءه النبيل . . وظل اسم طلعت حرب مقترنا بأغلى اسم لم يزل مرفوعا على هامات المصانع . . اسم مصر .

## بنسات الحسور

لا تزال ظاهرة خسوف القمر دعوة إجبارية إلى كل أطفال مصر ، لكى يخرجوا إلى الخلاء وهم يحملون الطبول والصفائح الفارغة ، يدقون عليها في إيقاع منتظم ، بينها صيحاتهم تتعالى إلى عنان السهاء تلتمس من بنات الحور أن يترفقن بالقمر ويتركنه حرا يدور في فلكه ، كى تنساب أشعته الفضية على الكون ، فتطارد أشباح الظلام وتبعث الأنس والبهجة في القلوب .

وليست ظاهرة الدعاء للقمر عند الخسوف مقصورة على أبناء الريف ، وإنها هى ظاهرة مصرية عامة يشترك فيها أبناء مصر فى الريف والحضر ، فينطلق الجميع إلى الفضاء أو يصعدون فوق أسطح البيوت ، ويتوجهون بأبصارهم إلى القمر وقد بدا لهم شاحبا مخنوفا . . وكلها ازدادت رقعة الظلال على وجه القمر . . ازداد حماسهم وارتفع ضجيجهم وهم ينشدون :

يابنات الحسور سيبوا القمر يدور يارب احنا عبيدك يارب والأمر بيسدك يسسارب

ويظل أطفال مصر على إيقاعهم وضجيجهم ، إلى أن تستجيب بنات الحور إلى توسلاتهم ، فتنحسر الظلال . . ويزول الشحوب . . ويتحرر القمر من خناقه . . ويعود له بهاؤه وجماله . . وعندئذ يعود الصبية إلى بيوتهم ، وقد غمرت السعادة نفوسهم ، بعد أن نجحوا في تخليص القمر من ( خنفة ) بنات الحور . . !!

وتذهب الدكتورة فاطمة حسين المصرى ، في دراستها العلمية عن ( الشخصية المصرية ) من خلال الفولكلور المصرى ، إلى أن هذه العادة التي يتبعها المصريون إلى

الآن عند حدوث خسوف القمر . ربها لا يوجد لها مثيل في أي بلد من بلاد العالم . . وانفردت بها مصر حتى أصبحت هذه العادة من الفولكلور المصري الخالص . .

وفي عاولة لتأصيل هذه الظاهرة عن طريق تفسير ألفاظها ، تغوص بنا الباحثة في أعياق التاريخ الفرعوني العتيد . . وترى أن جذور هذه العادة ضاربة في القدم حتى أنها تعود بها إلى عصر ما قبل الأسرات ، وقبل توحيد الوجهين البحرى والقبلى على يد الملك مينا ، حين كان المصريون القدماء يعبدون إلها من أشهر الهتهم المتعددة وهو الإله ( حور ) ، وكانوا يرمزون إليه برسم ( الصقر ) . . وكانت ديانة هذا الإله منتشرة في غرب الدلتا ، ومقر عبادته مدينة دمنهور الحالية ، أو إحدى ضواحيها . . ثم اتسع نفوذ هذه المدينة وبسطت سلطانها على المدن المجاورة ، إلى أن فرضت نفوذها على الوجه البحري كله . . وبذلك انتشرت عبادة الإله ( حور ) بانتشار نفوذ بلدته ، وأصبح لهذا الإله أسماء متعددة في البلدان المختلفة . . فهو الإله ( حور خنتي خت ) في منطقة بنها الحالية ، وهو الإله (آن حور ) في منطقة سمنود ، وهو الإله ( حور خنتي أرتي ) في منطقة أوسيم . . وحدث ذلك كله قبل وحدة الوجهين . . فلم توحد الوجهان انتقلت عبادة حور إلى الوجه القبلي أيضًا ، وأصبح من أشهر آلحة مصر ، حتى إن الأسطورة القديمة جعلت من ( حور ) أحد أفراد الثالوث المقدس: إيزيس وزوجها أوزوريس وابنها حوريس. وهو الذي ساعد أمه إيزيس على الانتقام من عمه (ست ) الذي قتل أخاه وقطع جسده إربا أخفاها في الأقاليم المصرية ، فكانت مصدر النهاء والخضرة . . مثلها كانت دموع إيزيس على زوجها مصدر فيضان النيل . ولكن ( حور ) الذي جعلت منه الأساطير إلها عيناه الشمس والقمر ، استطاع أن يقضى على روح الشر وينتقم لأبيه ويتربع على عرشه بفضل أمه التي اعتبرها المصريون مثلا للأم الرءوم .

\* \* \*

وتروى الأسطورة ملاحم الصراع بين (حور) وعمه (ست) ، وقد قامت بينها حروب طويلة . . فكان حور كلما أراد أن يهوى بخصمه قلف به إلى الأرض ، وقد أمسك به من مقتله . . فيكفهر وجهه . ويتغير لونه . . ويجاول أن يتخلص من خصمه . . وعندما يرى المصريون تغير لون القمر يدركون أن الإله حور ، يحاول أن

يقتل غريمه . . فيفزعون إليه بالصلوات والترتيلات والأناشيد حتى يترك ( حور ) خصمه ( ست ) استجابة لرغبة الشعب .

هذا هو تفسير مصر القديمة الفرعونية لظاهرة خسوف القمر . . وأصبح من عادات المصريين منذ العهد الفرعوني أن يهرعوا إلى حور ليترك القمر . . ولم يقلع الشعب المصرى في كل عصوره التاريخية عن التضرع للإله حور ليترك القمر ، بالرغم من وجود الديانتين السهاويتين : المسيحية والإسلام في مصر .

وتذكرنا الدكتورة فاطمة حسين المصرى ، بأن ظاهرة الدعاء للقمر لا تزال قائمة في عصرنا الحالى حيث تغلب الديانة الإسلامية ، كل ما هنالك أن المصريين يصبغون هذه العادة الفرعونية القديمة بصبغة إسلامية فينشدون :

### يابنات يا حور الجنة ما تسيبوا القمر يتهنى

وجاءت الصياغة الجديدة تمشيا مع ما ورد فى القرآن الكريم عن ذكر حور الجنة فقال العامة والدهماء فى مصر إن بنات الحور هن حور الجنة . . أما الباحثة فتفسر قولهم هذا بأن الحور هم جنود وأتباع الإله (حور ) عند قدماء المصريين .

#### \* \* \*

وليس المهم إذا كان المصريون يقصدون حور الجنة ، أم جنود حور . . ولكن المهم هو بقاء هذه الظاهرة إلى الآن لتكشف عن قوة العادات والتقاليد القديمة وأثرها في تكوين الشخصية المصرية ، وبقاء الخرافات والأساطير مصدرا للسلوك ومنبعا لكثير من التصرفات التي نهارسها ولا ندرك أصلها ، خصوصا في مراسم الموت والدفن وما يصاحبها من نواح وعويل واحتفالات ذكرى الأربعين .

# مدبح الإنجليز

لو كان سلطان مصر العظيم ، الظاهر ركن الدين بيبرس ، يعلم أن مسع الكبير الذي يجمل اسمه ، سوف يتحول ذات يوم إلى مخبز ومصنع للصابون ، مذبح للإنجليز ١١ لفكر ألف مرة قبل أن يقدم على إنشاء هذه التحفة المعها الجليلة ، التي تعتبر أحد معالم القاهرة المملوكية . . ولكنها سنة الحياة التي تحالقوة وتحتقر الضعف . . وكأنها شاءت الأقدار لهذا المسجد الكبير أن يكون سعحيا لهذه الحقيقة التاريخية الهامة . . فيتلألأ بالأنوار في عصور القوة والاقتدار ويتحول إلى خرابة في عصور الضعف والانحطاط . .

لقد شرع بيبرس فى بناء مسجده هذا عام ٦٦٥ هـ بعد أن أرسى نفوذ مصر الشرق الإسلامى ، وجعل منها قوة عالمية مرهوبة الجانب ، فى وقت أوشكت جحافل الغزاة أن تطبق عليها من الغرب والشرق . . ولكن هذا الفارس الذى أو جحافل الغزاة أن تطبق عليها من الغرب والشرق . . ولكن هذا الفارس الذى أو المنصورة وأسر ملكهم لويس التاسع ، ثم استدار ليواجه التتار فى عين جالوت عارض فلسطين قبل أن تطأ أقدامهم حدود مصر ، فأذاقهم كأس الهزيمة النكراء النالم يبتلوا بها منذ خروجهم كالطاعون من بطن آسيا المجدبة ، وأطاح برأس قائده المتوحش كتبوغا . فبدد نشوة الزهو والغرور التى أسكرتهم ، وكانت بداية انحسم خطرهم الذى هدد الحضارة العالمية . . وما إن فرغ بيبرس من انتصاراته الباهرة حت تفرغ للإنشاء والتعمير . . وكان أول الحكام الماليك اللين فتنوا بإقامة المنشآء العمرانية حتى قال عنه المؤرخ أبو المحاسن بن تغرى بردى : بنى فى أيامه بالدي المصرية ما لم يبن فى أيام الحلفاء المصريين \_ يقصد الفاطميين \_ ولا ملوك بنى أيود من الأبنية والرباع والحانات والقواسير والدور والمساجد والحهامات . .

وتستطيع أن تتأكد من صدق مقولة ابن تغرى بردى ، إذا قمت بجولة تفقدية في حنايا القاهرة المملوكية لترى بقايا هذه المنشآت لا تزال قائمة شاهدة على افتتان الرجل بالعمران وشغفه بالبناء . . وكأنها ورث هذه الحرفة عن أسلافه الفراعين الذين جلسوا على عرش مصر ، فجمعوا بين وظيفة الحكم وحرفة البناء . . ففي قلعة الجبل عمر دار اللهب ، وبني بها قبة عظيمة محمولة على أثنى عشر عمودا من الرخام الملون . . وكذلك عمر بالقلعة طبقتين مطلتين على رحبة الجامع ، وأنشأ بجوار باب القلعة العمومي ( برج الزاوية ) ، وهو البرج الذي لا يزال قائما حتى اليوم في الزاوية الشمالية الغربية من السور القديم للقلعة ، ثم أنشأ بيبرس على هذا البرج قبة وزخرف سقفها ، ثم أقام بسجوارها طباقا ( مسكنا ) للمهاليك ، وفي رحبة القلعة أنشأ دارا كبيرة لولده الملك السعيد . . وجدد بيبرس أيضا الجامع الأنور والجامع الأزهر . . وبني جامع العافية بالحسينية ، وأنفق عليه فوق الألف درهم ، وأنشأ بالقرب منه زاوية الشيخ خضر ، كما أنشأ قبة جميلة عند مقياس الروضة ، وجدد قلعة جزيرة الروضة . . هذا فضلا عن الحمامات والطواحين والأفران والخانات والأسواق العديدة . . ولم تحرم ضواحي القاهرة من عناية بيبرس فشملت عنايته العمائر ، من مسجد التبر ، إلى أسوار القاهرة ، إلى الخليج وأرض الطبالة . . واتصلت العمائر من باب المقس ( ميدان رمسيس ) إلى باب اللوق ، وقلعة الكبش ، ومشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها .

ولم تقتصر اهتهامات بيبرس العمرانية على الديار المصرية ، وإنها امتدت إلى الحجاز بصفته خادم الحرمين ، فأتم عهارة الحرم النبوى الشريف بالمدينة ، وعمل منبره ، وجعل بالضريح النبوى النبوى الزاوية والمعاجين والأكحال وبعث إليه وجدد البيهارستان بالمدينة ونقل إليه سائر الأدوية والمعاجين والأكحال وبعث إليه طبيبا مصريا . . وكان بيبرس أول حاكم مصرى يبعث (المحمل) إلى الحجاز حاملا الكسوة للكعبة الشريفة . وكان يوم خروج المحمل عيدا شعبيا ، يخرج فيه أهل القاهرة ، لتوديع المحمل ومعه (الصرة) للإنفاق على مجاورى الحرمين الشريفين . . وبقى هذا التقليد ساريا يحرص عليه حكام مصر حتى سنوات قريبة .

أما عن جامع الظاهر ، فتقول الدكتورة سعاد ماهر ، نقلا عن جامع السيرة

الظاهرية: إن السلطان اهتم بعمارة جامع بالحسينية ، وسير الأتابك فارس الدين أقطاى الستعرب ، والصاحب فخر الدين وجماعة من المهندسين ، لكشف مكان يليق بأن يعمل جامعا ، فتوجهوا لذلك ، واتفقوا على مناخ الجمال السلطانية ؟ فقال السلطان: لا والله . . لا جعلت الجامع مكان الجمال . . وأولى أن أجعله ميداني اللي ألعب فيه بالكرة ، وهو نزهتي . . ثم ركب السلطان وصحبته وخواصه والوزير والقضاة ، ونزل إلى ميدان قرقوس ، وتحدث في أمره وقاسه ورتب أموره وأمور بنائه ، ورسم بأن يكون بقية الميدان وقفا (حكرا) على الجامع ، ورسم بين يديه هيئة الجامع ، وأشار بأن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرة ، وأن يكون على عرابه قبة قدر قبة الإمام الشافعي .

ويضيف المقريزى: وكتب السلطان فى وقته الكتب إلى البلاد بإحضار عمد الرخام من سائر البلاد، وكتب بإحضار الجهال والجواميس والأبقار والدواب من سائر الولايات، وكتب بإحضار الآلات من الحديد والأخشاب النقية برمسم الأبواب والسقوف وغيرها. كما عين عدة ملاحظين على عمارة الجامع.

وبقى جامع الظاهر يؤدى وظيفته المقدسة ، طوال العصر المملوكى . . فلها دخل العثمانيون مصر ، ضنوا بالإنفاق عليه بحجة اتساع رقعته ، وعجز الخزانة عن الصرف عليه . وكان من نتائج ذلك \_ كها تقول الدكتورة سعاد ماهر \_ أن ساءت حالة الجامع ، وأصابته يد الاهمال والتخريب ، فحوله العثمانيون إلى مخزن للمههات الحربية ، كالخيام والسروج وغيرها . . وفي عهد الحملة الفرنسية ، تحول الجامع إلى قلعة وثكثات للجند ؛ وعرف الجامع في ذلك الوقت باسم ( قلعة سيكوفسكى ) . ويضعوا المدافع على أسواره ، وبنوا مساكن للجند بين جدرانه . .

وكأنها شاءت الأقدار أن ينتقم الفرنسيون ـ على يدى نابليون ـ من هزيمة لويس التاسع باتخاذهم مسجد الظاهر ـ حامل لواء النصر عليهم ـ موطئا لخيولهم وقلعة يصبون منها النار على أهل القاهرة ١١

واستمر إهمال مسجد الظاهر ، طوال القرن التاسع عشر ، فتحول في عصر محمد على إلى معسكر لإحدى الفرق العسكرية الوافدة التي ساندت محمد على ، وفي

بعض الأوقات تحول إلى مخبز ، ثم استعمل بعد ذلك مصنعا للصابون . ولم يسلم الجامع من جريمة السطو على أعمدته ، عندما طلب الشيخ الشرقاوى نقل أعمدة الجامع الرخامية وكذلك بعض أحجاره لبناء رواق الشراقوة بالجامع الأزهر . كما نقلت بعض أعمدته لاستخدامها فى بناء قصر النيل ، ولما دخلت القوات البريطانية القاهرة بعد إخماد الثورة العرابية سنة ١٨٨٨ اتخذوا من المسجد مخبزا . . ثم سلخانة للبح المواشى الملازمة لإمداد قوات الاحتلال . . ومنذ ذلك الحين أطلق العامة على مسجد الظاهر اسم ( مدبح الإنجليز ) . ورغم أن عملية الذبح توقفت منذ عام مسجد الظاهر اسم ( مدبح الإنجليز ) . ورغم أن عملية الذبح توقفت منذ عام الدولة تهتم بالمسجد ، فتسلمته لجنة حفظ الآثار العربية ، فأصلحت بعض أجزائه وقامت بترميمها وخاصة الجزء المحيط بالمحراب ، وأعدته لإقامة الشعائر . وفي سنة وقامت بترميمها وخاصة الجزء المحيط بالمحراب ، وإعادته إلى حالته الأولى . . ولا تزال الجهود مستمرة لإعادة مسجد الظاهر إلى عجده القديم . .

# عاقر رغم أنفها

كانت باحثة البادية (ملك حفنى ناصف) ، أشهر فتاة مصرية في العقد الأولى من هذا القرن ، ودوَّى اسمها في أنحاء الشرق من خلال المقالات التي كانت تكتبها على صفحات ( الجريدة ) تحت عنوان ( نسائيات ) ، وتعبر فيها عن تطلعات المرأة الشرقية إلى حياة كريمة في إطار التعاليم الدينية والمبادئ السامية التي تتمشى وحاجة المجتمع وتطوره ورقيه . . فكانت تدعو إلى مجاراة العصر بقدر ما تسمح به الحاجة والاقتباس من الحضارة الغربية بقدر ما يلائم ظروف البلاد وينفع الحياة العائلية والاجتماعية ولا ينافي الروح القومية وروح الاستقلال الوطنى .

ولم يكن جهاد باحثة البادية مقصورا على الكتابة فى الصحف ، وإنها كانت تخطب فى المجتمعات والمنتديات . . فكانت أول فتاة مصرية ـ بل شرقية ـ انبرت تكتب وتخطب وتنظم الشعر دفاعا عن قضايا بنات جنسها . . ورغم أن ملك ظهرت فى وقت ذاعت فيه دعوة قاسم أمين التحررية ، إلا أن أفكار ( باحثة البادية ) كانت أشد تأثيرًا فى عواطف الناس من أفكار ( عرر المرأة ) ، الذى كان يحارب قضية غيره . . ويطرح آراء جريئة متطرفة تصدم مشاعر مجتمع محافظ . . أما ملك فكانت تغمس قلمها فى قلب الأنثى ، وتعبر بصدق عن محنة بنات عصرها ، وهن يتعرضن للهوان بسبب التقاليد الظالمة ، والسلوكيات المجحفة . . وكانت صرحاتها الأدبية أشبه بزفرات حزينة توقط الضهائر . . وتحرك المشاعر الرقيقة . . وتثير الدموع والعبرات . ولم يكن أحد من جماهير قرائها ـ باستثناء المقربين ـ يعرف أنها تعبر عن مأساتها الشخصية ، وتصور نكبتها الخاصة ، وترسم خفايا محنتها الفاجعة .

كانت ملك كبرى سبعة أبناء ، أنجبهم الأديب الشاعر المرموق حفني بك

ناصف ، فنشأت في بيت علم وأدب ، وحفظت من عيون الشعر وقطوف الأدب ما لم يتهيأ لأترابها من طالبات المدرسة . . فلها تخرجت عينت معلمة في نفس المدرسة . وكان احترافها للتدريس - في حد ذاته - خطوة تقدمية في عصر كان العمل فيه مقصورًا على ذوات الحاجة المعوزات . وانطلقت تدعو بنات العلية للنزول إلى ميدان العمل ، بدلا من حياة الثرثرة والخمول والاتكال على الآباء والأزواج . واجتذبت شهرتها أحد سراة البدو في إقليم الفيوم ، فخطبها وتزوجها ، وهي لم تزل في ميعة الصبا ، وجملها إلى مضارب القوم على حافة الصحراء . وودعت الفتاة حياة القاهرة بأضوائها وشهرتها . وخلعت رداء المجتمع المصرى ، وتزيت بزى البدوى ونفس قانعة . وبدت لها البادية طريفة شائقة ، يزيدها الغموض والإبهام سحرا على سحر ، فأسلمت في ملك ، نفسها إلى فتنة غامرة ، واستسلمت لقدرها يقودها خيالها الشعرى إلى المجهول الساحر . وتمثلت لها رؤى بعيدة رأت فيها نفسها تحمل قبس النور ومشعل الحياة ، إلى مجاهل البادية ، وتنقل إلى أهلها ما اختزنته روحها من علم ومعرفة وحب صادق .

ومرت السنوات الأولى من الحياة الزوجية لا يعكرها غير نظرات قلقة من جانب الزوج الذى كان ينتظر من زوجته الجديدة ، أن تلد له أولادا ، يرفعون من قدره فى عبال الزعامة القبلية ، ثم تحول القلق إلى محنة ، عندما تأكد للزوجة الشابة أنها لن تحقق للزوج أمله فى الوريث . أما هو فلم يثر حوله الشكوك فى قدرته على الإنجاب فقد سبق له الزواج بابنة العم وأنجب منها فتاة ، وبذلك لصقت تهمة العقم بالزوجة الطارئة ، وحكم الناس عليها بأنها عاقر عقيم . . وتحولت نظراتهم إليها إلى سهام مسمومة ، تنال من كرامتها وكبريائها فى مجتمع يزن المرأة بعدد ما تلد من أولاد . . وليس بمقدار ما تحمل من علم وثقافة وحب للإنسانية . وأدركت و ملك ، أن عليها أن تخوض معركتين فى وقت واحد : معركة استرداد كرامتها الجريحة أولا . . ومعركة تحرير نساء القبيلة من هذا العرف الصارم الظالم الذى يهدر حق الأنثى فى الحياة إذا لم تلد . . وهو أمر لا ذنب لها فيه . . وحول هذه المرحلة الحرجة من محنة باحثة تلد . . وهو أمر لا ذنب لها فيه . . وحول هذه المرحلة الحرجة من محنة باحثة البادية ، تقول الدكتورة عائشة عبد الرحن ( بنت الشاطئ ) ! إن ملك حشدت للمعركة قوى شبابها وعلمها ، وظاهرتها قوى أخرى من كبريائها الجريحة ، وسعادتها للمعركة قوى شبابها وعلمها ، وظاهرتها قوى أخرى من كبريائها الجريحة ، وسعادتها للمعركة قوى شبابها وعلمها ، وظاهرتها قوى أخرى من كبريائها الجرعة ، وسعادتها

الموءودة ، وأمومتها المحرومة ، وقلبها الممزق . . وخاضت المعركة بجسمها وروحها بقلمها ولسانها ، ببشريتها وإنسانيتها ، بدمها وأعصابها . . ولكنها وجدت نفسها فجأة تنساق بالرغم منها مع تيار العرف السائد ، فتشتهى الولد اشتهاء قاهرا قاسيا وتكابد من أهوال الحرمان ما لا طاقة لبشريتها باحتماله ثم بلغ بها الأمر مداه ، فإذا هى المتعلمة المثقفة الممتازة \_ تنظر إلى خادماتها الحوامل والأمهات ، نظرة من تود لو دفعت كل جاهها وثروتها وكل علمها وثقافتها ، ثمنا لوليد \_ أى وليد \_ تحمله مثلهن وتاقت نفسها إلى عيشة خشنة متواضعة مع زوج لها وولد ، في عش من قش ، وخيمة من صوف ، وكوخ من خشب . . !!

وقد روعها هذا الانهيار النفسى ، أكثر مما روعتها المحنة ذاتها ، فانصرفت عن حرب القوم لتحارب نفسها ، ولاح لها وسط هذه الظلمات المتراكمة شعاع هزيل من نور . . لقد كتب عليها الشقاء ، فما تستطيع أن تمحو هذا المكتوب ، ولا أن تجعل من العاقر ولودا . . ولكنها تستطيع أن تفعل شيئا لسواها من التعيسات اللاتى يتجر عن الخسف والهوان ، وتستطيع أن تصور للناس تلك المحنة التى نغصت حياتها ، وتقص على الضمير الإنساني قصة تلك المخلوقة البائسة التى أهينت لأنها عاقر . . !!

تقول بنت الشاطئ في تاريخها لحياة باحثة البادية : من ذلك الحين ، اتجهت ملك إلى الحياة العامة تحارب في الميدان الاجتهاعي ، وتكافح من أجل جميع النساء . وراحت تبعث من مأواها النائي صيحات تسجل قضية « الجنس » تسجيلا صريحا دقيقا ، وتعبر عن آلامه بصوت مؤثر . . وقد رددت « الجريدة » صدى هذه الصيحات التي ظلت تنطلق من البادية أعواما طوالا ، فيا أضعفها طول العهد . . وأصغى الناس مبهورين إلى « النسائيات » ، وتلقاها شيوخ الأدب مقدرين ، ورأى عميدهم أحمد لطفي السيد باشا أن هذه النسائيات قد اشترك في تأليفها « ما ورثته ملك عن أبيها من ذوق في الكتابة وملكة الانتقاد » . أما بنت الشاطئ فترى أنها ثمرة حياة « ملك » في البادية بعد زواجها : تلك الحياة التي انضجتها التجربة ، وهذبها الألم ، وأرهفها الحرمان . . لقد ظلت المسكينة تتلوى في باديتها من حرقة الظمأ ، وأمست حياتها قطعة من العذاب ولونا من الاستشهاد . .

أجل . . الاستشهاد في سبيل قضية خاسرة . . فقد شاء القدر لهذه المخلوقة المعلبة أن تعرض نفسها على طبيب شهير في الآستانة ليعالجها من العقم . . وفحصها الطبيب مرة . . ومرات . . ثم كانت المفاجأة المرعبة عندما اكتشف أنها ليست عاقرا . . وأن قدرتها على الإنجاب لا تقل عن قدرة غيرها من بنات حواء . . !!

### من أين إذن جاءت تهمة العقم . . ؟؟

لقد تبين أن الزوج - بعد إنجابه من زوجته الأولى - أجريت له عملية جراحية عاد بعدها عقيها لا ينجب . . !! ولم تتحمل المسكينة هول الصدمة . . فذابت كها تلوب الشمعة المحترقة . . وذوى رحيقها في احتضار بطيء حتى أسلمت الروح في المدوب الشمعة المحترقة . . وفي في ريعان العمر وعز الشباب . . ولم تتعد الثلاثة والثلاثين ربيعا . . ولم يصمد أبوها المسكين للفاجعة فأصيب بالشلل ولحق بابنته بعد شهور .

### محامى العظماء

كانت أول مرة ، رأيت فيها الأستاذ عباس محمود العقاد ، في أواخ الخمسينيات. كنت وقتها طالبًا بالجامعة ، وأخطو خطواتي الأولى في بلاط صاح الجلالة . . وسمعت عن الندوة التي يعقدها العقاد كل يوم جمعة في منزله في مص الجديدة . فسعيت إليها مع نفر من زملائي القادمين من الريف ، وفي طليه اهتهامنا أن نرى الأدباء والمشاهير الذين قرأنا لهم ، ورأينا صورهم في الصحف والمجلات وسمعنا أصواتهم من الراديو . . ولم تكن رؤية العقاد مفاجأة لى . كانت حقيقته تقارب الصورة التي رسمتها له في خيالي . . عملاقا . . أشبه بفارس قاة على صهوة جواده ، شاهر سيفه ، وكأنه على استعداد دائم للنزال . . ولكن المفاج كانت في اعتداده بنفسه واحترامه لذاته إلى حد الغرور !

أذكر فى إحدى الجلسات أنه كان يتكلم عن جائزة نوبل ، والسبب فى عد اقترابها من منطقة الأدب العربى ، فتطاول أحد زملائنا وسأله : ومن ترشح م الأدباء العرب لنيل هذه الجائزة ؟ فأجابه العقاد على الفور :

أنا يا أخى . . وهل يوجد من يستحقها عن جداره غيرى ؟ !! ورغم أن الردكا أشبه بمزحة أو نكتة ، إلا أن أحدًا من الجالسين لم يجرق حتى على الابتسام . وواصل العقاد حديثه عن نفسه ، معددا جوانب العظمة في قيمته الأدبية ، حتر لكأنه كان يتحدث عن شخص آخر . !! ووجه المفاجأة لي وزملائي \_ ليس في ألعقاد لا يستحق جائزة نوبل ، فهو بلا جدال أكبر منها ، ولكن في أنه كان يتحدد عن نفسه بطريقة تصادم طبيعة التواضع التي نشأنا عليها في الريف . ولكن العقا عن نفسه بطريقة تصادم طبيعة التواضع ، لتتجاهل جوانب العظمة التي يراه أجدر بالجلاء ، وأحق بالذيوع والتبيان .

لم أكن ، في ذلك الوقت المبكر ، أعرف أن العقاد من المؤمنين بالعظمة والمبشرين بالعبقرية التي ترقى بأصحابها وترتفع بهم من صفوف العامة إلى مراتب العلية النادرين . ثم اقتربت من العقاد في كتبه ، وعايشت أبطاله المرموقين فوجدته و محاميا ) بليغا يصول في محكمة التاريخ بصوته الجهوري ، وحججه القوية ، وعباراته اللاذعة ، مدافعا عن أبطال الإنسانية وقادتها وعظمائها ، كاشفا عن جوانب العظمة والسمو في شخصياتهم ، ماسحا ما علق بهم من افتراءات الجهلة وتجنيات الحاقدين ، رغم ثقته بأن أبطاله ليسوا في حاجة إلى دفاع ، فيكفيهم عدا أنهم أدوا رسالتهم ، وقالوا كلمتهم واحتلوا مكانا عليا في مراتب الخلود . إنها كان العقاد يهمه أن تعرف الإنسانية أن قيمتها لن تتحقق ما لم تعرف لعظمائها السالفين واللاحقين حقهم من الاحترام والتوقير .

كان أشد ما يؤلم العقاد ، أن تتفشى تلك الجراثيم الخلقية عند الناشئة ، فتجنح بهم إلى الغض من قيمة البطولة والاستخفاف بالعبقرية الفردية ، التى هى قيمة مغروسة فى النفس قبل أن تبرزها الأعمال والتجارب . وكان من أخطار هذه النزعة المريضة أن أصبح التطاول على العظهاء موضة تقدمية يتباهى بها الجهلاء والحاقدون . وإذا سألت العقاد عن سر تمجيده للبطولة والأبطال فسوف تجد عنده الجواب الأوفى: إن إيتاء العظمة حقها ، لازم فى كل آونة وبين كل أمة ، ولكنه فى زماننا هذا ألزم منه فى أزمنة سالفة . وعالمنا المعاصر أحوج ما يكون إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللإنسانية كافة ، ولكن كيف يتاح لمصلح أن يهدى قومه وهو مغموط الحق !! معرض للجحود والنكران !! وهل تستطيع الإنسانية أن تفرز أبطالا جددًا ما لم توف أبطالها السالفين حقهم من التوقير والإجلال ؟!! .

لقد هال العقاد ، كما هال كل غيور ، أن يرى الناس قد اجترءوا على العظمة رغم حاجتهم إلى هدايتها ، وأفزعه أن يرى الجهلاء والدهماء والغوغاء يغضون من قيمة الأبطال ، وينالون من مكانتهم ، ويتجنون على أقدارهم ، وتلحق بهم المثالب والنقائص . وهذا التجنى له عند العقاد مسببات كثيرة ، أهمها ذيوع الحقوق العامة وشيوع نزعة المساواة ، مما أغرى صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة للعظهاء الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة . وهو يرى أن بعض الناس قد أساءوا فهم

(الديمقراطية) ، وظنوا أنها حرية الصغير في تجريح الكبير ، وأن المساواة القانونية تلغى الفوارق الطبيعية ، وأن الثورة على الحكام المستبدين معناها الثورة على كل ذى مكانة من العظهاء ، فكثر التطاول على كل عظمة إنسانية ، ولكن إلى أى مدى كان هذا المنهج صحيحا في تقييم الأبطال ؟

لقد كان الأستاذ العقاد مفتونا بأبطاله إلى درجة الوجد الصوف . . فهو لا يقبل نقدا لتصرفاتهم ، حتى لو كان التصرف بسيطا هينا . ويرى في نقد الأبطال محاولة مفتعلة للتطاول عليهم والزراية بهم . . وكان العقاد يسخر من مناهج البحث التاريخي ، التي تتناول حياة الأبطال بعين فاحصة تفصل ما بين الحسنات والسيئات في سلوكهم ، ويستنكر مسلك الكتاب الذين ( يزعمون ) الإنصاف عندما يضرقون بين الثناء والملام ، ويسترسلون في سرد الحسنات ، ثم ينقلبون من كل حسنة إلى عبب يكافئها ، ويشفعون كل فضيلة بنقيصة تعادلها ، فهم في رأيه يفعلون ذلك توقيا لمظنة المغالاة والإعجاب المتحيز ، بينها هو يرى في التحيز شيئا لا يستحق الملام ، بل يمضى إلى أبعد من ذلك ، فيصف هذا المنهج بالمراءاة والكذب والتمسيح بالعدل والإنصاف والموضوعية ، وهي منه براء . . وأصحاب هذا المنهج \_ عنده \_ لا السوقة ، فحكم القاضى على الملك بغير الحق ليغنم سمعة العدل في محاسبة الملوك السوقة ، فحكم القاضى على الملك بغير الحق ليغنم سمعة العدل في محاسبة الملوك في كان من الملك إلا أن عزله لأنه حكم بالظلم وهو يبتغى الرياء بظلمه ، فكان الملك عادلا ؛ لأنه أنصف ، وهو مستهدف لتهمة الظلم ؛ وقاضيه قد ظلم ، وهو يتاوى بالإنصاف .

\* \* \*

وبهذا المعيار انبرى العقاد للدفاع عن أبطاله وتبرير تصرفاتهم جملة وتفصيلا فكل تصرف منهم له عنده مسوغ ، وكل خطأ له دوافع وظروف تنقله إلى دائرة الحسنات التي يستحق عليها التقدير والإعجاب . فلا يثير العقاد شيء قدر أن تحاسب أبطاله ، وتخضعهم لمقاييس الخطأ والصواب ، فهل بلغ العقاد بأبطاله مرتبة العصمة التي لا يجوز معها نقد أو حساب ؟ وهل أضفى عليهم حصانة لم

يفرضوها هم على أنفسهم ؟ إن قارئ « العبقريات » لابد أن يخرج بهذا الانطباع . . ولا يملك إلى أن يتساءل عن مدى صحة هذا المنهج .

وإذا كان لكل فعل رد فعل معاكس له في الاتجاه ، كما يقول علماء الطبيعة ، فإنه يمكننا أن نتفهم أسباب مغالاة العقاد في حماية أبطاله . . لقد كانت ردة فعل لنزعة الاستخفاف والتطاول التي شاعت في حياتنا السياسية والفكرية والأدبية ، بعد ذيوع مناهيج البحث الأوربية التي تعالج الظاهرة ( الإنسانية ) بنفس البرود الذي تعالج به الظاهرة ( الطبيعية » ، وتتناول حياة الأبطال بأسلوب تشريحي مجرد من اعتبارات التقدير والاحترام والتكريم . فإذا أضفنا إلى كل ذلك نزعة الحقد الكامنة عند بعض المستشرقين ، لأدركنا سر غضبة العقاد ، وتصديه لهذه الهجمة الشرسة ، التي تهدد الأبطال وتزعزع مكانتهم السامية في نفوس الناس . فكان عليه أن يحمى عباقرة الإنسانية عامة ، وأبطال الإسلام بخاصة .. من عمليات التجريح والتشويه التي كانت تجرى باسم العلم والأمانة والموضوعية .

春 春 梅

ولكن الحصانة التى فرضها العقاد على أبطاله ، كان من شأنها أن تؤدى إلى عكس الغرض الذى أراده ، لأنها تتناقض مع أصل من أصول الفكر السياسى فى الإسلام ، وهو حق الرعية فى محاسبة الراعى ، ونزع العصمة عن الحاكم حتى تسهل محاسبته . وكان الخلفاء الراشدون يعون هذه الحقيقة وعيا تاما ، ومحرصون على إعلانها وتأكيدها فى خطب البيعة التى يلقونها على جهور الأمة فى أول يوم من أيام ولايتهم . ومضى علماء الإسلام الأوائل فى تطبيق هذا المنهج المتوازن فى تقدير الرجال ، حتى انتهى بهم إلى تأسيس علم الجرح والتعديل ، وهو علم جليل لم تعرف له سابقة عند الأمم السالفة ، وهدفه التثبت من صحة الروايات والأخبار المتواترة عن طريق نقد الرواة وبعضهم من الصحابة والتابعين والتأكد من أمانتهم وعدالتهم ، أو عكس ذلك من كذب أو غفلة أو نسيان . وكان العلماء يختبرون بأنفسهم من يعاصرونهم من الرواة ، ويسألون عن أحوال من سلف وأخلاقهم وملوكهم ، ثم يعلنون رأيهم فيهم دون تحرج أو شعور بالإثم ، لأنهم كانوا يضعون وسلوكهم ، ثم يعلنون رأيهم فيهم دون تحرج أو شعور بالإثم ، لأنهم كانوا يضعون

الحقيقة وحدها نصب أعينهم . وعلى هذا الأساس المتين نهضت مناهج البحث في ظلال النهضة العقلية والفقهية والفكرية التي يفخر بها الإسلام .

ولم يكن الأستاذ العقاد غافلاً عن ذلك ، ولكنها العاطفة الحارة التى انطوت عليها نفسه الكبيرة تجاه أبطاله ، فآثر أن يقدمهم إلى الناس ، وقد أحاطت بهم هالة من الجلال والجهال . . ولم يكن من اليسير ، أن يمر منهج العقاد ، دون أن يتعرض للنقد من جانب معاصريه الذين كانوا يؤثرون تقديم الأبطال في صورة واقعية متوازنة . وفي ذلك يقول العلامة أحمد أمين :

إن العظيم مهما عظم فله خطآت . . . وإلا ما كان إنسانا . . والعصمة لله وحده . . فهل واجب الكاتب أن يعرض لكل ذلك فى تفصيل ، فيذكر كل ماله ويشيد بذكره ويذكر خطآته وينقدها ، ويعلم بذلك درسا فى نواحى مجده ، ودرسا أخر فى مواضع خطئه ؟ أم أن واجبه فقط تجلية العظمة والتأويل والدفاع الدائم عن نواحى الخطأ . . ؟

ولا يخفى العلامة أحمد أمين انحيازه إلى الرأى الأول . . فها رأيك أنت يا عزيزى القارئ . . ؟

## هـوان الإنسان

مند ما يقرب من قرن ، احترقت مدينة ميت غمر ، فاحترق قلب مصر ، وتبارى الشعراء والأدباء والكتاب لتحريك المشاعر ، وإيقاظ الضهائر ، وإثارة الهمم ، وانطلق صوت شاعر النيل حافظ إبراهيم ، يدوى فى أرجاء مصر بأنباء الكارثة ويروى تفاصيلها المفجعة بحاسة الصحفى ، وعدسة المصور ، وريشة الفنان وصنع من كل ذلك لوحة مبدعة تنبض بالحياة وتثير الشجن . . وأنت حين تسمع القصيدة ، لا تملك إلا أن ترسل الدمع حزنا على الرضيع الذى فقد أمه ، والعجوز التى تبحث عن النجاة من الجحيم ، والضحايا اللين باتوا طعمة للنيران .

وكان أبناء مصر يطالعون شعر حافظ في صدر الصفحات الأولى من الصحف فتهتز مشاعرهم ، وتتشرب نفوسهم قطرات من الجزن النبيل ، وسرعان ما يتجسد ذلك في مشاركة وجدانية توحد بينهم وبين المنكوبين من أبناء وطنهم . إنها وحدة الألم التي صهرت المصريين \_ على مر العصور \_ في سبيكة بشرية صلبة . . وكنا في مرحلة التعليم الإبتدائي ، نحفظ ضمن مقطوعات الأدب المصري الحديث \_ تلك القصيدة الرائعة التي كتبها حافظ في حريق ميت غمر ، ولا تزال الذاكرة تعي منها هذه الأسات :

سائل الليل عنهمو والنهار كيف أمسى رضيعهم فقد الأم كيف طاح العجوز تحت جدار ربّ إن القضاء أخنى عليهم ومر النار أن تكف أذاها

كيف باتت نساؤهم والعذارى وكيف اصطلى مع القوم نارا يتداعى وأسقف تتوارى فاكشف الكرب واحجب الأقدارا ومر الغيث أن يسيل انهمارا

أين طوفان صاحب الفلك يروى أشعلت فحمة الدياجي فباتت غشيتهم والبؤس يجرى يمين

هذه النار فهى تشكو الأوارا تملأ الأرض والسماء شرارًا ورمتهم والبؤس يجرى يسارا

\* \* \*

كان الإنسان المصرى ، فى ذلك العصر « البائد » له قيمة ، إذا أصابه مكروه ثار الرأى العام ، وتحركت الصحافة ، وخفقت قلوب الناس من الإسكندرية حتى الشلال ، وسارعت الأيدى إلى المواساة والنجدة . . كانت روح الألفة والتكافل تمثل قيمة أساسية من قيم المجتمع المصرى . . وفى الحريق الذى دمر قرية الضهرية نوفمبر ١٩٨٤ ، ظهرت النزعة الفردية فى أسوأ صورها . جاءت سيارات الإطفاء فاستولى عليها وجهاء القرية وسادتها الجدد لتأمين بيوتهم . وليدهب الأخرون إلى المحديم . على أن الأنكى والأمر من كل ذلك ، هو موقف الرأى العام ـ ممثلاً فى صحافته وإذاعته وأحزابه وهيئاته وجمعياته ـ من هذا الحادث المفجع . . لقد أكلت النيران ٣٢ إنسانا ، ودمرت ٢٥٠ بيتا بمحتوياتها ، وكان نصيب الكارثة من اهتمام الصحف ووسائل الإعلام بضعة سطور تبشر الناس بصرف مساعدات وزارة الشئون للمنكوبين بمعدل خمين جنيها لكل قتيل . . . !!

تصوروا . . ثمن الإنسان في ملادنا لا يزيد على خسين جنيها ا ا في حين أن ثمن أصغر دابة في سوق التلات يبلغ أضعاف ذلك . . فها الذي جرى على الإنسان المصرى حتى هبط سعره إلى هذا الحد ؟ .

أتوبيسات تقع بركابها فى النيل! مقطورات تنزلق بحمولتها المكدسة إلى قاع المصارف! عمارات تنهار على سكانها وهم نائمون! قطارات تنصادم ويختلط حطامها بأشلاء ركابها! قرى تحترق وتتفحم جثث أبنائها، ولا تجد لكل هذه النكبات صدى فى وسائل الإعلام . . فهل هانت حياة الناس على الناس إلى هذا القدر المخيف . . ؟ !!

منذ أيام كنت أستمع إلى السيد وزير الإعلام ، في حديث إذاعي قال فيه : إن محموع ساعات الإرسال الإذاعي في بلدنا تزيد على ٢٠٠ ساعة في اليوم .

ولكن : ما هو نصيب الإنسان من هذا الحشد الإذاعي الهائل ؟ وما قيمة الكم

الإعلامي إن لم يضع البني آدم في طليعة اهتهامه .. ؟!! هل انتقلت كاميرات التلفزيون ، لتقدم لنا تفاصيل نكبة الضهرية ، مثلها تفعل لنقل السفاسف والتوافه من الأمور ؟! إن الصحف التي تفخر بإنجازاتها الطباعية المتقدمة ، لم تعد تفكر في تغطية هذه الكوارث ، خصوصا ، إذا كانت خارج القاهرة .. والصحف التي أصدرت ست طبعات ، لمتابعة انتخابات الرئاسة الأمريكية ، نسيت أن تتابع أنباء الكارثة التي وقعت في الضهرية .. فهل من أصل الحضارة ، أن نلاحق أخبار أمريكا ، ونتجاهل أخبار قرية مصرية احترقت بمن فيها .. ؟ حقا إنه لا يزال بيننا وبين جوهر الحضارة أمد بعيد .

# أدبالحشيش

لا يعرف بالضبط متى تسلل الحشيش إلى مصر . . وإن كان المقريزى يذكر في خططه ، أن القنب الهندى انتقل إلى بلاد فارس ، ومنها إلى العراق ومصر ، خلال القرن السابع الهجرى ، وأن أول من اكتشف ( الحشيشة ) في خراسان ، هو الشيخ احيدرة المتوفي عام ٥٦٢ ، وأنه جعلها وقفا على رفاقه من رجال التصوف في خراسان ، ولم يشأ أن يذيع سرها على الناس ، وأوصى أصحابه بأن يزرعوها على قبر بعد موته . . ثم انتقلت الحشيشة من خراسان إلى بغداد حيث أكثر المتصوفة هناك من تعاطيها ، وعن طريقهم انتقلت إلى الشام ومصر ، حيث سميت بحشيشة «الفقراء» وهو الاسم الذي كان يعرف به فقراء الصوفية .

ولكن بعض المؤرخين ، يرى أن الحشيش تسلل إلى مصر مع الحملات المغولية على ديار الشرق الإسلامي ، وينقل محمد بن بهاء الزركشي صاحب رسالة « زهر العريش في الكلام عن الحشيس » عن الإمام ابن تيمية قوله إن الحشيشة ظهرت في أواخر القرن السادس الهجري حين ظهرت دولة التتار . . وإن تلك المادة انتقلت مع التتار إلى بغداد . . إلخ .

وبظهور الحشيش في مصر ، أصبح غرضا من أغراض الأدب ، يتغنى به الشعراء ويتغنون بإطهار محاسنه مثلها كان أبو نواس وبشار يمتدحان الخمر في حانات بغداد . . وكان شعراء الحشيش في مصر لا يجدون حرجا في الدعاية له ظنا منهم أن الدين لا يحرمه ، وأن أحدا من كبار الفقهاء لم يفت بتحريمه ، متجاهلين الفتاوى الصريحة التي أعلنها ابن تيمية في شأن تحريم الحشيشة . ومن نهاذج الشعر في ذلك العصر ما نظمه محمد بن على بن الأعمى :

دع الخمر واشرب من مدامة (حيدر) هي البكر لم تنكح بماء سحابة ولا نص في تحريمها عند مالك ولا أثبت النعمان تنجيس عينها

معنبرة خضراء مثيل الزبرجد ولا عصرت يوما برجل ولا يد ولا عند الشافعي واحمد فخدها بحبد المشرفي المهند

فأنت ترى في هذا الشعر تحقيرًا للخمر ، وإشادة بالحشيش ، بزعم عدم تحريمه عند أنمة الفقه الأربعة ، وتلك لعمري مغالطة مفضوحة ، ومحاولة ساذجة لتحليل شيء عرم . . وصدق المجتهدون في تحريم الحشيش قياساً على الخمر ، لاشتراكه معها في علة الحكم . وهو غياب العقل . . والعلاقة بين الحشيش وغياب العقل علاقة تاريخية ، منذ ظهرت طائفة الحساشين \* الإسماعيلية ، في شمال إيران واستخدموا الحشيش في تخدير الأتباع وشل إرادتهم قبل تكليفهم باغتيال الحصوم والأعداء ، وفي ذلك يقول الدكتور على صافى حسين في كتابه \* الأدب الصوف في مصر ، : والرأي الذي نرجحه وترتضيه هو أن الحشيشة عرفت في قلعة \* الموت ، مصر ، : والرأي الذي نرجحه وترتضيه هو أن الحشيشة عرفت في قلعة \* الموت ، في شرق الدولة الإسلامية على يد أتباع حسن الصباح ، الذي تزعم الإسماعيلية الماطنية الشرقية ، تلك الطائفة التي اشتهرت بين المؤرخين باسم \* الحشاشين \* .

وكان الحسن الصباح قد تحصن في تلك القلعة الشهاء ، وأطلق عليها اسم الملوت الوعورة موقعها ، ونشر فيها البساتين الفيحاء وأبهار العسل والخمر لتكون جنة الأرض السرية التي يستمتع فيها أتباعه ، ويقال إنه كان يستخدم الحشيش في تخدير الشباب الأغرار حتى أصبحوا طوع بنانه لا يخالفون له أمرا . وكان يبعث بهم في غارات مفاجئة لاغتيال السلاطين والأمراء والوزراء من خصوم الإسماعيلية في غارات مفاجئة لاغتيال السلاطين وإقدام ، ولقد راح ضحية هذه الاغتيالات عدد كبير من زعهاء العالم الإسلامي وباتت كلمة حشاشين Assassin في اللغات اللاتينية تعنى فرق الإغتيال .

وإذا كان مناك إجماع على نسبة هذه الحوادث إلى طائفة الإسماعيلية ، إلا أن بعض المؤرخين يشكك في دعوى استخدام الحشيش في تطويع إرادة الأتباع ، وحجته في ذلك أن تعاطى الحشيش يؤدى إلى الجبن والخور والتردد . . وهي صفات تناف حالة الحسارة التي كان يتصف ما الفدائيون .

فالمؤرخ المعروف برنارد لويس المتخصص في تاريخ الإسهاعيلية في كتابه والحشاشون ، ترجمة الأستاذ محمد العزب موسى .. يرفض قصة استخدام الحشيش ويرى أنها غير صحيحة إطلاقا . . فاستخدام الحشيش وآثاره ، كان شيئًا معروفا في ذلك الوقت ، ولم يكن بالسر المجهول أو وقفا على زعهاء الإسهاعيلية . . ولم يلكر أحد من الكتاب الإسهاعيليين أو كتاب السنة الجادين أن الإسهاعيلية كانوا يستخدمون هذا المخدر . . أما إطلاق وصف الحشاشين على تلك الطائفة فإن لويس يراه دلالة على احتقار العقائد الفاسدة والسلوك المعيب لأعضاء تلك الفرقة . . فهو تعبير ساخر عن سلوكهم أكثر من كونه وصفا حقيقيًا لأفعالهم . .

وسواء صحت أم لم تصح دعوى استخدام الإسماعيلية للحشيش ، فإن الصحيح أن الحشيش كان أحد مصادر البلاء التي عمت العالم الإسلامي ، ونخرت عظامه ، وأشاعت في شعوبه الخمول والكسل والانحطاط .

## شخصية الزعيم

إذا أردنا أن نبحث عن سر التفاف الأمة حول قائد ثورة ١٩١٩ سعد زغلول فسوف نجده في عبارة ذكية للمؤرخ الجليل محمد شفيق غربال ، يقول فيها : ( إن الأمم بطبعها تحس بمن يجبها فتستجيب له ، وتلقى بثقتها بين يديه ، وتحس بمن لا يجبها الحب الصادق الوفي فتنصرف عنه ) .

وهذا ما حدث لسعد زغلول ، فقد أجمعت الأمة بكل طبقاتها الاجتهاعية ومستوياتها الثقافية والفكرية والدينية على زعامته للثورة ، وأسلمت إليه قيادها وهى تعلم أنه الأمين على ما أؤتمن عليه ، وكانت تثق بحكمه وتقديره للأمور ، وكان يكفى أن يسحب سعد ثقته عن أحد السياسيين فيسقط جماهيريا ، أو يسحب اعترافه بصحيفة تنطق باسم الوفد فينصرف عنها القراء .

وقد ذهب المؤرخون والباحثون فى تفسير سر زعامة سعد زغلول مذاهب شتى فعزاها بعضهم إلى قدرات خاصة كامنة فيه بالسليقة كالعناد والصلابة . وقال بعضهم إن سر زعامته لا يمكن فهمه إلا فى ضوء التغييرات السياسية والاجتهاعية التى طرأت على المجتمع المصرى . أما الدكتور عاطف أحمد فؤاد فيلخص لنا فى كتابه ( الزعامة السياسية فى مصر ) مقومات زعامة سعد فى العناصر الثهائية التالية :

١ ـ الموهبة الخاصة والقدرة المتميزة على التأثير على الآخرين ، وهي من أولى السيات المميزة للقيادة الناجحة والزعامة السياسية القادرة .

٢ ـ التفاف الجهاهير حوله ، والتأييد الشعبى الذى يندر أن نجد مثيله لدى تاريخ أمة من الأمم . ولاشك أن هذا التأييد قد أضاف إلى أبعاد الشخصية الزعامية لسعد بعدا جديدا ، زادها قوة على قوة .

٣ ـ التجربة السياسية والحزبية والتمثل الجيد لظروف المجتمع المصرى والرؤية الواعية لتاريخ هذا المجتمع .

٤ - رغم انتها إلى الصفوة السياسية المثقفة ، فإنه استطاع أن يتجاوز حدود هذه الصفوة ، وأن يكون زعيها اللرعاع على نحو ما شبه سعد نفسه . . ولاشك أن انتهاءه الطبقى للقرية المصرية ، وقربه من نفسية الإنسان المصرى ، وفهمه لعبقرية هذا الإنسان وديناميات شخصيته ، ساعده كثيرا على أن يتجاوز بزعامته حدود صفوته المثقفة .

٥ - لعبت ظروف الحكم الأوتوقراطى ، وأزمة الاحتلال الإنجليزى على تفجير كوامن العبقرية الزعامية لسعد ، وصلابته وعناده والتى ظهرت إرهاصاتها فى الفترة التى تولى فيها وزارة المعارف ، وهى الفترة التى شاهدت صراعه من دانلوب عثل الاحتلال فى وزارة المعارف ، والتى كشفت عن عناد الفلاح المصرى وصلابته وأصالته.

٢ ــ لم تكن زعامة سعد من الزعامات الجوفاء ، أو ذات الحواء الفكرى بل كانت زعامة تجمع بين السهات العملية والرؤية الفكرية ، وإن لم تصل إلى مستوى النظرية أو الأيديولوجية المتكاملة .

٧- استطاع سعد من خلال قيادته للأمة وزعامته لها أن يحدث ما يمكن تسميته بالتحديث السياسى ، اللى تمثل في دستور عام ١٩٢٣ كأول بشير بالحكم الليبرالي وما ترتب على هذا الدستور من نتائج كان لها تأثيرها على المسيرة السياسية للمجتمع المصرى .

٨ – رغم استثثار سعد بالرأى فى كثير من الأمور ، وضيقه أحيانا بالمعارضة ، فإنه استطاع أن يكسب احترام مؤيديه ومعارضيه معا وهو ما تبدى فيها رواه كل من عبد الرحم الرافعى وأمين الرافعى والدكتور محمد حسين هيكل .

### دواء غير صالح

كان الإنجليز في القرن الماضى ، رغم عشقهم للحرية وتقديسهم للحياة النيابية المستورية ، يرون أن شعوب الشرق غير مؤهلة لاقتباس هذه المبتكرات الحضارية الحديثة . . وكانت حجتهم في ذلك أن الحياة النيابية ثمرة تطور تدريجي بطيء على النحو الذي حدث في إنجلترا نفسها . وبدون هذا التطور يصبح الدستور والبرلمان مجرد شكلين واهيين . فلها قامت الثورة العرابية ، لتطالب الخديو بإعلان الدستور وقيام مجلس نيابي على النسق الأوربي ، دهش الإنجليز لهذا المطلب (الغريب) الذي كان في نظرهم أشبه بدواء غير صالح للاستعمال ، بين شعوب استمرأت العلغيان وتعودت الاستعباد . .! وبدلا من أن يكون الإنجليز صادقين في نشر هذه المبادئ والأفكار التي تمثل رموز الحضارة الأوربية ، وبدلا من أن يساعدوا المصريين على الخلاص من الحكم الأوتوقراطي الرجعي . . تكالبوا على الثورة ، حتى على الخلاص من الحكم الأوتوقراطي الرجعي . . تكالبوا على الثورة ، حتى الكرباج . . !

وبعد أن التقط الإنجليز أنفاسهم ، بدءوا في تحطيم كل أثر من آثار التحرر التي أقامتها الثورة العرابية في المجتمع المصرى ، وتم ذلك وفق برنامج زمنى مدروس وضعه أحد أساطين النظام الاستعمارى هو اللورد « دوفرين » الذي قضى ردحا من حياته الدبلوماسية في الهدد ثم تركيا ، واكتسب خبرة في شئون الشرق . . وكان أول بنود البرناميج ، إلغاء مجلس النواب وإقامة مجلس صورى من بعض الطراطير الذين البرناميج ، والمنابع بحمد ولى النعم . . أما بقية بنود البرناميج ، فكانت تسعى كلها نحو هدف واحد ، هو تقليم أظافر الشعب المصرى ، حتى لا يفكر يوما في حكم نفسه بنفسه . . وتولى تنفيذ البرناميج أحد تلاميذ دوفرين النجباء ، واسمه إيفلين

بيرنج الذى صار فيها بعد « لورد كرومر » والذى حكم مصر ٢٣ سنة وكأنها دوقية من دوقيات الإقطاع الإنجليزى فى العصور الوسطى يتصرف فيها كيف شاء ولا راد لشيئته ، منطلقا من أفكار أستاذه التى ترى أن الطغيان الذى عشش فى مصر لم يدمر فقط بذور الحرية ، ولكنه جعل التربة المصرية غير قادرة على إنبات هذه البذور، وأن أمة طال استعبادها تحن بفطرتها إلى قبضة « السيد » القوية أكثر من حنينها إلى النظام الدستورى المتراخى بطبيعته . .

وهذه الفكرة كما ترى موغلة فى الرجعية ، وفضلا عن منافاتها للفطرة الإنسانية السليمة ، التى تأبى الله وتأنف من الاستعباد ، فإن الأحداث اللاحقة كشفت زيفها وبطلانها ، وكان قيام ثورة ١٩١٩ هو أكبر معبر عن إصرار المصريين على التخلص من الاستعباد الخارجى عمثلا فى الاحتلال ، والداخلى عمثلا فى الأسرة العلوية . ولم تفلح الإصلاحات المالية والإدارية التى أنجزها كرومر ، ولا المكتسبات الحضارية التى تمت على أيدى عباس الثانى وأحمد فؤاد فى صرف المصريين عن هدفهم المقدس . ومنذ ثورة ١٩١٩ وحتى ثورة ١٩٥٢ سلك الكفاح الوطنى مسلكين متلازمين هما : الكفاح الوطنى والكفاح الدستورى . فأما الكفاح الوطنى فموضوعه و الاستقلال ، وتخليص البلاد من الاحتلال الإنجليزى الذى وقع عام جديد يقوم على مبدأ السيادة للأمة ، ونشوء حياة نيابية ، ويكون الحكم الملاغلبية عن طريق وزارة مسئولة أمام البرلمان ، على أن ينتظم هذه المبادئ دستور تقوم بإعداده جمعية تأسيسية منتخبة من الشعب ، وبذلك يكون الدستور عقدًا بين الحاكم والمحكومين ، وليس منحة من الحاكم يستردها أو يعبث بها وقتها يشاء .

وكان نشوب ثورة ١٩١٩ سببا فى زعزعة النظام القديم الذى اشتدت فيه وطأة الحاية البريطانية . وتطلعت أبصار المصريين إلى عصر جديد يحمل لهم تباشير الحلاص من قيود الحكم المطلق التى توارثها أبناء عدمد على كابرا عن كابر . وكان الوفد ـ بمقتضى الوكالة الشعبية التى حملها من الأمة عشية الثورة ، وبمقتضى الزعامة التاريخية التى استقرت فى شخص سعد زغلول ـ يرى أنه صاحب الحق الشرعى فى تقرير مصير البلاد ، وتخطيط مستقبلها على ضوء المبادئ والشعارات التى

ظهرت إبان الثورة ، واقتنع الإنجليز بأن التغيير أصبح أمرًا حتميًا ، وأن مستقبل مصر بعد الثورة لا يمكن أن يكون استمرارًا لما كانت عليه قبلها . . ولكن فى أى اتجاه يسيرون ؟ وإلى من يسلمون زمام الأمور . . ؟ إن تسليم المقاليد إلى الوفد معناه تحقيق أهداف الثورة فى « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » ! ومعناه ظهور السلطة الشعبية على المسرح السياسى ، على حساب القصر الذى كان حليفا للاحتلال منذ عهد توفيق . . وانتهت الدبلوماسية البريطانية إلى خطة جهنمية تتلخص فى إعادة ترتيب المسرى . . ثم تسليم مفاتيحه إلى خصوم الوفد .

\* \* \*

وكان تنفيذ هذه الخطة يتطلب إبعاد سعد زغلول عن مصر لكي تجرى الترتيبات في غيبته . . حتى إذا عاد وجد البيت مشغولا بسكان يحملون في أيديهم عقود تمليك قانونية ولكنها غير شرعية . . ففي ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ اعتقل الإنجليز سعد زغلول للمرة الثانية ، ومعه خسة من رفاقه ، ونفوهم إلى سيشل . . وبعد شهرين تقريبا أصدر الإنجليز تصريحهم المشهور في ٢٨ فبراير الذي اعترفوا فيه باستقلال مصر وإنهاء الحماية . وفي اليوم التالي ، ألف عبد الخالق ثروت وزارة مهمتها إعداد الدستور، وشكلت لجنة من ثلاثين عضوا برئاسة حسين رشدى لوضع مشروع الدستور . فاستنكر الوفد عملية إعداد الدستور عن طريق لجنة يختارها الملك وشدد سعد من منفاه هجومه على اللجنة وأسهاها « لجنة الأشقياء ١ . . وسارعت جبهة الأعيان والمثقفين إلى تشكيل حزب الأحرار الدستوريين ليكون الفارس الوحيد في الملعب الذي غاب عنه أصحابه الشرعيون . وانضم أعضاء لجنة الدستور إلى هذا الحزب ليقطفوا ثمرته في الوقت المناسب . وكان أملهم كبيرًا أن يعتمد الملك فؤاد مشروع الدستور على النحو الذي أرادوه ، ولكن الملك خيب ظنهم وأخذ يعدل ويبدل ، ويضيف من المواد ما يرسخ سلطاته المطلقة . وكان أبشع ما أضافه المادة ٣٨١ التي تعطيه حق حل مجلس النواب بصورة مطلقة ودون قيد أو شرط . . وكانت هذه المادة \_ وحدها \_ سببا في نكبة الانقلابات الدستورية التي عانتها البلاد في عهد فؤاد ومن بعده فاروق . . وإستطاع أنصار الحكم المطلق أن يجعلوا من هذه المادة أداة للعبث بالنظام الدستورى ، وتفريغ النظام النيابي من مضمونه ، ونقل السلطة من أصحابها الشرعيين إلى المتسلطين من أذناب القصر.

واستقبل الشعب إعلان الدستور بالفتور ، وأصدر الوفد بيانا قال فيه : لقد احتفلت وزارة من قبل باستقلال ٢٨ فبراير ، فها كنا في عهده بأكثر استقلالا منا قبله في عهد الحياية ، واليوم احتفلت الوزارة بصدور الدستور ، فها نحن بصدوره بأكثر حرية بما كنا قبله ، وأدلى سعد زغلول بتصريح إلى مراسل صحيفة ديلى هيرالد حدر فيه من عواقب السلطة المطلقة للملك ، وقال إذا كان من الخطر أن توضع سلطة كبيرة في أيدى الملوك الذين هم بمعزل عن نفوذ أجنبي ، فالحطر من ذلك أعظم وأشد في بلاد يسود فيها النفوذ الأجنبي ، ويدعى أن العرش في سلامته بفضل جنوده ، فهذه القوة التي تركت للملك ستصبح في الواقع حقوقا في يد الأجنبي يستعملها لأغراضه ضد مصالح الوطن .

وصعح ما توقعه سعد في هذا التصريح الجرىء ، وظل التحالف بين القصر والاحتلال عائقا دون تثبيت السلطة الشعبية وترسيخ النظام الدستورى .

\* \* \*

وأعلن دستور ١٩٢٣ بمسوخا مشوها على الصورة التى أرادها الملك رغم أنف الأحرار الدستوريين ، حتى إذا عاد سعد إلى أرض الوطن فى ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ استقبلته الأمة استقبال الأبطال الفاتحين برغم الملك والإنجليز . وعندما أجريت أول انتخابات عامة فى ١٢ يناير ١٩٢٤ حدثت المفاجأة التى لم يتوقعها أحد ، فقد اكتسح الوفد خصومه فنال ١٩٥ مقعدًا . . بينها حصل الأحرار الدستوريون على ستة مقاعد ، وحصل الحزب الوطنى على أربعة مقاعد فقط ، وفاز مرشح الوفد على رئيس الوزراء يجيى إبراهيم .

لقد حجب الشعب المصرى ثقته عن الأعيان والمثقفين والمحافظين ومنحها لسعد ورفاقه . . لأن الأمم \_ بطبعها \_ تحس بمن يحبها فتستجيب له وتلقى بثقتها بين يديه، وتحس بمن لا يحبها الحب الصادق فتنصرف عنه . . وفى ذلك عبرة لمن يريد أن يعتبر .

### القاضى النزيه

كان يحيى إبراهيم باشا من جيل الساسة المصريين ، الذين صعدوا إلى القمة ـ فى مطلع هذا القرن ـ عن طريق المحاماة والقضاء ، مثل مصطفى كامل وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى ، وكانت مدرسة الحقوق آنذاك معمل تفريخ للقادة ورجال السياسة والحكم . وقد ولد يحيى إبراهيم فى إحدى قرى بنى سويف ، وبعد تخرجه فى الحقوق تدرج فى سلك القضاء حتى صار رئيسا لمحكمة الاستثناف .

ويبدو أنه كان ذا ثقافة موسوعية \_ وكانت الثقافة صفة شائعة في رجال ذلك العصر \_ ورفوف مكتبتى تضم سفرا ضخا صدر في ١٨٩٣ ، ويحتوى على فصول في شتى ألوان المعرفة من الأدب والتاريخ والفقه ، إلى النوادر المنتقاة من عيون التراث من تأليف (حضرة يحيى أفندى إبراهيم \_ نائب قاض بمحكمة الاستئناف) . والظاهر أن هذه الخلفية الثقافية كانت من بين مسوعات تعيينه وزيرًا للمعارف في وزارة يوسف وهبه باشا التي شكلت في أعقاب ثورة ١٩١٩ .

ولكن من السذاجة اعتبار الثقافة مبررا كافيا لاختيار الوزراء . والصحيح أن يحيى إبراهيم كان يتصدر قائمة وزراء « القصر » مثل توفيق نسيم ومحمد سعيد وأحمد زيور وغيرهم . ولهذا السبب وحده كلفه الملك أحمد فؤاد بتشكيل وزارة إدارية في مارس ١٩٢٣ لتسيير شئون الدولة بعد أن بقيت البلاد شهرًا بلا وزارة بعد استقالة توفيق نسيم ، وتصور الملك أن يحيى إبراهيم سيكون طوع بنانه . ووافق الإنجليز على ذلك ، لأن الرجل (كان حصانا أسود مجهولا ، سواء من الرأى العام أو دار المندوب السامى ، وأهم مميزاته أنه لم يكن شخصية معروفة أو سياسيا حزبيا ) على حد تعبير اللورد لويد .

وما إن تولى يحيى إبراهيم رئاسة الوزارة حتى حدث التطور المدهش فى شخصيته وتبين أنه لم يكن ذلك الحمل الوديع كما ظن الملك والإنجليز ، وإذا به يتمسك بإعلان الدستور باعتباره الدواء الحاسم الذى دعت إليه الأمة ، وفيه تتمثل إرادة الشعب وبه تصان سيادة الأمة وتحترم جميع الحقوق . . وخضع الملك لإصرار رئيس الوزراء على إعلان الدستور ، واستجاب الإنجليز لمطالبه فى إعداد المناخ الصالح للانتقال بالبلاد إلى المرحلة الدستورية ، فصدرت عدة قرارات تاريخية ، منها إلغاء الأحكام العرفية ، والإفراج عن زعيم الأمة سعد زغلول وعودته من منفاه فى سيشل والإعداد لإجراء أول انتخابات شعبية فى تاريخ مصر الحديث .

ولا يزال بعض الباحثين التاريخيين ـ كالدكتور يونان لبيب رزق ـ فى دهشة من هذه الإنجازات التى حققتها الوزارة الإبراهيمية ، ويرى أنها لم تكن متوقعة منه بحال من الأحوال . ولم تتم بسهولة وإنها لقيت فى طريقها كثيرًا من العقبات والأزمات . . ومع ذلك فكل إنجازات يحيى إبراهيم تتضاءل أمام إنجازه الأعظم ، وهو إجراء انتخابات نزيهة ألقت به خارج الحكم . . . فدخل التاريخ من أوسع أبوابه .

وكان نجاح الوفد بأغلبية ساحقة فى أول انتخابات شعبية حرة ، من الظواهر التى حيرت المعلقين ونقاد التاريخ . وكان قادة الوفد متعبين مرهقين ، فهم بين خارج من السجن أو عائد من المنفى ، ومع ذلك حصل الوفد على ٩٠٪ من مقاعد أول مجلس نواب فى تاريخ مصر . . فكيف تسنى له هذا التأييد الشعبى الكاسح .

\* \* \*

المؤرخ عبد الرحمن الرافعي يعزو ذلك إلى شخصية سعد زغلول ( وزعامته للأمة والمنزلة التي نالها في نفوس المصريين ، فقد تركزت فيه الثورة لأنه كان زعيمها ، وكان نفيه مرتين بما زاد الشعب تعلقا به والتفافا حوله » . . وتلك شهادة حق من أحد خصوم الوفد الشرفاء ، فالشعوب بحسها المرهف تعرف أين تضع ثقتها . . ومتى تحجبها . ولذلك ظلت صفة ( الشعبية » لصيقة بالوفد ، منذ نشأته وعلى مدى تاريخه الطويل ، حتى الوزارات التي كان يؤلفها كانت تقترن بصفة ( الشعبية » . وكان الارتباط بين الوفد والشعب هو الحبل السرى الذي كتب للوفد البقاء ، بينها

توارت شموس وتهاوت عروش . وظل الوفد أمينا على ثقة الجماهير به حتى في أكثر الظروف إغراء بالانحياز إلى السلطة .

في خطاب التكليف الذي بعث به الملك فؤاد إلى سعد زغلول لتشكيل الوزارة عز على الملك الذي تربى في أحضان الحكم المطلق أن يعترف بالأساس الدستورى الذي قامت عليه حكومة الشعب ، فتجاهل متعمدًا الإشارة إلى إرادة الأمة التي فتحت الأبواب أمام الفلاح ابن الفلاح ليصبح رئيسًا للوزراء . . ولم يسكت سعد زغلول عن هذا الإغفال المتعمد ، وبكل ما يختزنه الفلاح المصرى من عناد وكبرياء رد سعد زغلول على خطاب التكليف بأن حكومته إنها جاءت بناء على ثقة الأمة ونوابها بشخصه الضعيف .

ولم يكن سعد زغلول ضعيفا . . ولا يمكن أن يكون ضعيفا من يحظى بثقة الشعب .

## الوزارة الشعبية

لم تمكث وزارة سعد زغلول الأولى والأخيرة فى الحكم سوى عشرة شهور و ٢٤ يوما، وبعدها بدأت لعبة الانقلابات الدستورية التي باتت طابع الحياة السياسية فى العصر الملكى ، وكان من نتيجتها أن قضى حزب الأغلبية البرلمانية معظم وقته فى المعارضة ، وتربعت أحزاب الأقلية على دست الحكم . . وكان آخر الانقلابات : الانقلاب العسكرى فى يوليو ١٩٥٢ الذى أطاح بالدستور ، وبالبرلمان ، وبالحياتين النيابية والحزبية معا .

والمؤرخون يخلعون على وزارة سعد اليتيمة صفة « الوزارة الشعبية » أو وزارة الشعب الأولى . . وهم على حق في هذه التسمية ، لأنها كانت أول وزارة في تاريخ مصر تتولى الحكم بإرادة الشعب ، وليس بإرادة السلطان . ولقد حاول الملك أحمد فؤاد أن يتملص من هذه الحقيقة الجديدة المؤرقة له ، بأن يخدع نفسه ويخدع معه سعد زغلول ، ويفهمه في خطاب تكليف الوزارة بأن اختياره لهذه المهمة الجليلة لم يكن إلا « لصدق ولائك ، وعظيم خبرتك ، وسداد رأيك في تصريف الأمور » . ولكن سعدا الجسور الواعي لم يبلع هذه العبارات المزوقة التي كانت ترد في خطابات التكليف في عصر الوزراء الأغوات . . وردها لملك مصر الأوتوقراطي : إنني ما توليت الوزارة إلا بناء على ثقة الأمة ونوابها بشخصي الضعيف ، عما يوجب على والبلاد داخلة في نظام نيابي احترام إرادة الأمة وارتكاز حكومتها على ثقة وكلائها .

ومضى سعد القادم على أعناق الجهاهير يضمن « بروجرام » وزارته مبادئ جديدة ثقيلة الوطء على مسامع أحمد فؤاد: التمسك بالروح الدستورية في جميع المصالح وتعويد الكل احترام الدستور والخضوع الأحكامه.

ومضى سعد ، المعجون من تراب مصر وماء نيلها ، يطعم وزارته بوزراء من صميم الشعب ، ولدوا وعاشوا وليس على رءوسهم ريشة سوى ريشة الجهاد الوطنى . . وزير المواصلات مصطفى النحاس ابن تاجر الأخشاب في سمنود . . ومحمد نجيب الغرابلي أفندى المحامى في طنطا . . ومرقس حنا المحامى في أسيوط . . وأحمد ماهر أفندى ، وعلى الشمسى أفندى .

ولك أن تتصور شعور أفندينا المعظم سليل الأرستقراطية التركية المتغطرسة ، وهو يتعامل مع وزراء لا يعرفون الإسموكن والردنجوت ، وليس فى بيوتهم عبيد ولا محظيات ولا جوار . . ورئيسهم نفسه فلاح ابن فلاح و إخوته فى إبيانة بحملون أسهاء شلبى والشناوى وستهم وفرحانة ا

\*\* هل كنت تتصور أن تسكت أوكار الارستقراطية عن هذا التغير الاجتهاعى الهائل الذى حدث باسم الديمقراطية . . وباسم المستور . . وباسم الحياة النيابية . ؟!!

\*\* وهل يمكن لمن تربى فى أحضان الاستبداد والطغيان والحكم المطلق أن يسكت عن هذا الفلاح وهو يدق باب قصره قائلاً: عفوا يامولانا . . إن تصرفك هذا غير شرعى . . لأن الدستور لا يسمح به ١٤ الدستور لا يعطيك حق تعيين أعضاء مجلس الشيوخ المعينين . . والدستور لا يعطيك حق تعيين كبار موظفى القصر دون موافقة الحكومة . . ولا . . . ولا . . . ولا . . . ولا . . . ولا . . . ولا . . ولا . . . ولا . . ولا . . .

### \*\*الله أكبر . .

سلطة الشعب تكبر وتنمو وتتسع لتصل إلى عقر عابدين . . وتسلب صاحبه حقوقا كانت له ولأجداده أشبه بالثوابت والمسلمات غير القابلة للنقاش . . !

\*\* ولكن . . هكذا قال الدستور . . وإذا تكلم الدستور . . فعلى الجميع أن يصمتوا ؛ فهل يصمت أحمد فؤاد الأوتوقراطى بطبعه ، المستبد بالوراثة ، الذى لم يتعود سوى سماع عبارات السمع والطاعة من أفواه العبيد ؟ وهل نلومه إذا امتلأت نفسه حقدا على هذا الدستور يوم ولد . . ويوم صدر . . ويوم أصبح حدا فاصلا بين سلطاته وسلطات الأمة . . ؟!

\*\* وهل يسكت كبار ملاك الأراضى اللين وصفوا أنفسهم بأصحاب المصالح الحقيقية ؟ وظنوا أنهم الورثة الطبيعيون لطبقة الشركس المنقرضين ؟ لقد أسقطهم الشعب في الانتخابات ولم يمنحهم ثقته ، وأسقط هيبتهم في مراكز نفوذهم التقليدي في الريف . . ا فتعجبوا من أمر هؤلاء الفلاحين اللين يعملون في الوسايا والتفاتيش والأبعديات والشفالك . . ما إن اتيح لهم حق الانتخاب حتى تخلوا عن سادتهم وانتخبوا مرشحى الوفد . . ا فكيف يمكن ـ بعد ذلك ـ ترويض هؤلاء الفلاحين وقد انحازوا إلى معسكر سعد ، وأصبح لهم وزراء ونواب وشيوخ . ؟ ا ومن المسئول عن هذا التغير الهائل سوى الدستور والبرلمان والحياة النيابية ؟ ا وهل نلوم هؤلاء الجبابرة ، إذا امتلأت نفوسهم حقدا على الدستور والبرلمان والوزارة الشعبية . . وسعد والوفد . . ؟!!

\*\* وكبار المثقفين القادمين من أكسفورد وكمبريدج والسربون ، وقد امتلأت رءوسهم غرورًا واستعلاء على الشعب ، وظنوا أن الانتخابات سوف تحملهم من أبراجهم العاجية إلى المقاعد المخملية في البرلمان . . فيا بال الشعب خلطم . . ؟ ولقنهم درسا في السياسة . . وعلمهم أن التمثيل الشعبي يختلف عن التمثيل الثقافي . . وأن الزعامة الشعبية لها أربابها ورجالها الذين يحسون بنبض الجهاهير ؟ فهل نلوم هؤلاء أيضا إذا هم نقموا على الدستور والبرلمان الذي ازدحم « بالجهلة » وخلا من العباقرة « الملهمين » . . ؟!!

وتكونت من كل هؤلاء الشراذم جبهة قوية متحدة . . تفرق بينهم المصالح المتباينة ، ويجمع بينهم الحقد على الدستور والنقمة على الوفد ، والتحامل على الحياة النيابية ، والتربص بالسلطة الشعبية . . والتآمر على وزارة الشعب الأولى . . واستجمعت هذه القوى الشرسة أسلحتها يساندها الاحتلال الإنجليزى . . فضربت ضربتها . . وأطاحت بكل المكاسب التي حصل عليها الشعب . . وبدأ عصر التزوير العلنى . . والتزييف الفاضح . . والتدخل السافر لتحطيم إرادة الشعب . وكان سعد يرى هذه المهازل ويتذكر حكومة الشعب فيقول متحسرًا : عبنا الأكبر في تلك الوزارة أننا أخذناها جدا . . وصدقنا أننا مستقلون . . !!

### حزب العرش

شهدت مصر في حياتها النيابية حياة أقصر البرلمانات عمرًا في العالم ، حيث لم يستغرق عمره سوى تسع ساعات ، صدر بعدها مرسوم حله ، قبل أن يتبدد في الفضاء العريض صدى خطاب العرش الذي ألقاه رئيس الوزراء أحمد زيور باشا أمام سيده ومولاه أحمد فؤاد . . لقد فعلها الملك تأديبا وتهذيبا وانتقاما من الشعب الذي أفسد الخطط الملكية ، التي عكف فؤاد على تدبيرها في الظلام ، وكانت تهدف اللى هدم الوفد وإقصاء سعد زغلول عن زعامة الشعب ، وسلب الحقوق الشعبية التي تضمنها الدستور ، وإخماد صوت الشعب الذي هتف تحت شرفة قصر عابدين : سعد أو الثورة 1 لمجرد أن الملك تجرأ على تعيين حسن نشأت وكيلا للديوان الملكي دون إذن من الحكومة . . !

#### \* \* \*

وكانت استقالة زارة سعد زغلول فرصة ذهبية لتدبير هذه المؤامرة واسعة النطاق لضرب الحياة النيابية في الصميم ، ونسف مبدأ السيادة الشعبية والعودة إلى حكم الصفوة المفروضة على الشعب دون سند أو مساندة من الشعب ، وشاركت في هذه المؤامرة كل القوى التي أضيرت في الانتخابات . . فالأحرار الدستوريون الذين صاغوا الدستور وطبخوه على نار هادئة ، انقلبوا عليه وأبدوا استعدادهم لمرمطته انتقاما من الشعب الذي خذلهم في الانتخابات ، وتناسوا خصومتهم التقليدية مع الملك فؤاد ، ما دامت المصالحة سوف تدفع بهم إلى كراسي الحكم ولو عنوة . . أو على جثة الدستور الذي وصفوه بأنه « فضفاض » .

ومع ذلك ، فإن الملك ﴿ فؤاد ﴾ \_ السياسي المحنك \_ لم يسلم ذقنه لخصوم الأمس

ورأى أن يعطيهم قضمة صغيرة من الكعكة ، أما الهبرة الكبرى فتكون من نصيب حزب جديد يقوم بتأليفه أذناب القصر ومن يلوذ بهم من الوصوليين وطلاب المنافع وأصحاب الحاجات ، عسى أن ينجح هذا الحزب الملكى في سحب البساط من تحت أقدام الوفد ، ويقتنص منه الأغلبية الشعبية في الانتخابات .

وفى يوم ١٠ يناير ١٩٢٥ ، وفى حفل مخملى باذخ أقيم فى فندق سميراميس أعلن عن ميلاد (حزب الاتحاد). وشهد الاحتفال نجوم الأرستقراطية المصرية قديمها وحديثها ، تحيط بهم شرذمة من محترفى السياسة ، وتتبعهم زمرة من كبار الضباط القدامى ، وتلحق بهم عصبة من الانتهازيين الباحثين عن اللقمة الدسمة فوق أى مائدة . . وبعض الخارجين على الوفد .

### \*\* هكذا ولد حزب الملك . .

وانفض الحفل . . فانفض الحزب . . ولم يسمع له صوت فى أرجاء مصر الصابرة الصامدة التى كانت ترقب ما يدبر لها ، وهى تكظم غيظها وتتحين لحظة الانتقام كى تلقن هؤلاء الأوغاد درسا فى احترام إرادة الشعب .

#### \* \* \*

وكان تشكيل حزب الملك انتهاكا صريحا لأحكام الدستور ، وخرقا للتقاليد النيابية التي تجعل الملك فوق الأحزاب ، وتنأى به عن المعارك الانتخابية حتى لا يكون فشله فيها استفتاء شعبيا يحسب عليه . . وعلى هذه النقطة يعلق الرافعي المؤرخ قائلا : لم يكن تأليف حزب ( الاتحاد ) على قاعدة أنه حزب الولاء للعرش من المحكمة السياسية ، ولا من الإخلاص للبلاد والعرش في شيء . فالعرش يجب أن يكون بعيدًا عن الأحزاب ، وأن يظل للأحزاب كلها ، لا أن يكون له حزب خاص لأن هذا معناه التشكك في ولاء الأحزاب الأخرى للعرش ، ومعناه أيضا أن الدعاية لأن هذا الحزب إذا لم تنجح \_ وهي لم تنجح \_ ولم تنضم له أغلبية الأمة ، كان ذلك دليلا على أن أغلبية الأمة مشكوك في ولائها للعرش عما يعد كشفا للعرش وإعلاما بأنه لم يكتسب عبة الشعب .

و يعلل الرافعي دوافع إنشاء هذا الحزب في تصور أصحابه ، بأن الشعب يجب أن يسيره الحاكم كما يشاء ويهوى ، وأن تكون السراى هي مرجع الحكم ومصدره . أما

الشعب \_ فى تصورهم \_ فلا يصح أن تترك له إرادة فى ولاية الحكم أو توجيهه ، بل يجب أن يحكم بواسطة حكومة تفرض عليه فرضا ، دون أن يكون له رأى فى قيام الوزارات أو سقوطها ، وبعبارة أخرى ، لا عل لما يسمونه الدستور ، وإذا كان لابد من نظام دستورى فليكن نظاما صوريا ، أو كان لابد من أحزاب فليكن أهمها وسيدها الحزب الذى تنشئه السراى أو يخضع لإرادتها وتحركه كيف تشاء . وهذا الضرب من الحكم هو من أنواع الحكم المطلق ، وأساسه إهدار حقوق الشعب . والرجوع به إلى نطاق الذل والعبودية ، وهو نظام يمتنع معه كل تقدم سياسى أو أخلاقى فى البلاد .

\* \* \*

هذا هو حزب القصر الذي ولد في الظلام ليكون أداة القصر إلى الحكم . . ومعه بدأت الأحزاب السياسية تستنفر أنصارها وتحشد أتباعها استعدادًا لليوم المنتظر . . اليوم الذي تجرى فيه الانتخابات . . ويقول فيه الشعب كلمته الفاصلة . . وفي ذلك اليوم قال الشعب كلمته ، فكان لها وقع الصاعقة على رءوس أعدائه .

## أول انتخابات مصرية

من حسن حظ الحياة النيابية المصرية أنها بدأت بداية نظيفة تبشر بالأمل وتدعو الله الثقة بالنظام البرلماني . وشهدت مصر في مطلع عام ١٩٢٤ أول انتخابات برلمانية في تاريخها في جو مشبع بالحرية والنزاهة ، وفي مناخ صحى خال من الضغط والإكراه ، وبعيد عن التدخل أو التلاعب أو التزوير ، سواء من جانب الحكومة التي أشرفت على الانتخابات ، أو من جانب القصر الملكي وكر الأوتوقراطية العتيد ووريث التقاليد الاستبدادية التي حكمت مصر منذ القدم ، وقبيل إجراء الانتخابات سادت الحياة السياسية المصرية روح جديدة ، ورغبة صادقة في احترام إرادة الناخبين كي يختاروا ممثليهم في أول عبلس نيابي على الوجه الذي يريده الشعب . . وليس على النمط الذي يريده الحاكم .

كان رئيس الوزراء \_ يحيى إبراهيم باشا \_ قد نجح في استصدار الدستور \_ فجأة \_ وفي وقت خبا فيه الأمل في صدوره ، فكانت تلك أولى انجازات هذا الرجل اللغز الذي كان يوصف تارة بأنه أداة طيعة في يد القصر ، بينها كان الإنجليز يرون فيه مجرد رئيس لوزارة إدارية مهمتها تصريف الأمور لحين العثور على الرجل القوى الذي يخرج البلاد من ورطتها ، ولكن لم يلبث يحيى إبراهيم ، وهو مستشار سابق ، أن أثبت للجميع أنه ليس الرجل الذي تصوروه . . وكها يصفه اللورد لويد بقوله : ق إن يحيى باشا كان حصانا أسود مجهولا ، سواء من جانب الرأى العام أو دار المندوب السامى ، وكانت أهم ميزاته أنه لم يكن شخصية معروفة أو سياسيا حزبيا ، ومن ثم فإنه لم تكن هناك أي ضغائن شخصية يمكن أن تقيد حركته ، وقد استغل الرجل هذه الميزة فأعلن أنه غير قانع بمجرد إدارة الأعهال ، ولكنه ينوى إعلان الدستور ومعه قانون الانتخابات .

وبر الرجل بوعده . . وكشف عن عظمة رجل القضاء عندما يجلس على منصة الحكم . . ويروى الرافعى المؤرخ قصة إعلان الدستور ، عندما ذهب رئيس الوزراء إلى قصر عابدين مساء يوم ١٩ إبريل ١٩٣٣ ، وأبلغ الملك « فؤاد » أن مصلحة البلاد العليا تقتضى إمضاء الدستور الليلة . . ! فقبل الملك وأرسل يستدعى الوزراء الذين مضوا على عجل إلى القصر وهم يجهلون سبب استدعائهم . فلما مثلوا أمام الملك وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ـ قدم إليه يحيى إبراهيم نص الدستور فوقع عليه ، وتلاه الوزراء جميعا . . وبعدها صدرت الأوامر إلى جميع القلاع والطوابى وعواصم الأقاليم بإطلاق المدافع ابتهاجا بالحدث التاريخي .

\* \* \*

وعقب إعلان الدستور بدأت عملية تهيئة المناخ الديمقراطي لإجراء الانتخابات العامة ، فألغيت الأحكام العرفية ، وبدأت سلسلة من القرارات للإقراج عن المعتقلين السياسيين اللين كانوا رهن السجون والمعتقلات منذ أحداث ثورة ١٩١٩ . فتم الإقراج عن أقطاب الوقد المعتقلين في سيشل : مصطفى بك النحاس ، وفتح الله باشا بركات ، والأستاذ مكرم عبيد ، وعاطف بك بركات وسينوت حنا بك . وأفرجت السلطات العسكرية عن أعضاء هيئة الوقد المعتقلين في مصر : السيد حسين القصبي ، وفخرى بك عبد النور ، والأميرالاي محمود حلمي بك ، ونجيب أفندي الغرابلي وراغب أفندي إسكندر . وأطلق سراح زعاء الوقد المحكوم عليهم بالسجن في مصر : حمد الباسل باشا ، ومرقص حنا ، والأستاذ ويصا واصف بواصف بطرس غالي ، وعلوي بك الجزار ، ومراد بك الشريعي ، وجورج خياط بك. . كما صدر قرار بالعفو عن ٢٥٠ شخصا ، كانوا يقضون أحكاما بالسجن إبان أحداث الثورة ، وزال الحظر الذي كان مفروضا على بعض السياسيين المنفين بالخارج .

وفى ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ ، عاد الزعيم سعد زغلول إلى أرض الوطن من منفاه فى مالطة فاستقبلته الأمة استقبالا أسطوريا . . وبدأت الاستعدادات للانتخابات العامة ، ودب النشاط السياسي فى أنحاء البلاد ، وقسمت مصر إلى ٢١٤ دائرة انتخابية تقدمت لها أحزاب : الوفد والأحرار الدستوريون والحزب الوطني (حزب

مصطفى كامل). واهتمت الأمة بكل طوائفها بالانتخابات اهتهاما عظيها، دل على ارتقاء النضج السياسى. بين أفراد الشعب، وتتبع الناس فى لهفة إجراءات التمهيد للانتخابات، وتألفت اللجان الشعبية فى مختلف المدن والقرى، وأعلن سعد زغلول أنه سيخوض الانتخابات معتمدا على ثقة الأمة به وبحزبه. وكانت الدلائل المبدئية تشير إلى أن الوفد سينال الأغلبية الساحقة ؛ فشخصية سعد وزعامة سعد وقد تركزت فيه الثورة، ولأن نفيه مرتين زاد الشعب تعلقا به، والتفافا حوله، وتلبية لندائه.

وصدق يحيى إبراهيم فى العهد الذى قطعه على نفسه ، بأن تجرى الانتخابات فى جو من الحيدة والنزاهة ، ولم يسمح لأحد من رجال الإدارة بالتدخل فى إرادة الناخبين . وليس أدل على ذلك من سقوط رئيس الوزراء فى دائرة منيا القمح أمام مرشح الوفد أحمد افندى مرعى ( والد المهندس سيد مرعى ) . . لقد سقط رئيس الوزراء ، ولكنه ارتفع إلى مرتبة الرجال العظام فى تاريخ مصر السياسى .

واكتسح الوفد منافسيه في هذه الانتخابات الحرة ، فحصل مرشحوه على ١٥١ مقعدًا (بنسبة ٩٠٪) بينها سقط أقطاب الأحرار الدستوريين ، وفي طليعتهم عبد العزيز فهمي باشا وإسماعيل صدقي باشا ، ولم ينجح منهم سوى سبعة نواب وكان الوحيد الذي نجح من أقطابهم محمد باشا محمود ، بينها كان نصيب مرشحي الحزب الوطني أربعة مقاعد فقط من بينهم عبد الرحمن الرافعي الذي فاز على منافسه الوفدي بفارق صوت واحد فقط .

\* \* \*

وأثبتت أول انتخابات برلمانية أجريت فى مصر منذ ٦٣ سنة أن النضج السياسى عند المصريين أكبر مما يظن اللهين يحلو لهم تجريح النظام النيابى المصرى واتهامه بالعجز والقصور . . والتزوير .

## ثوب فضفاض

كان إلغاء دستور ١٩٢٣ بأمر ملكى ، نكسة حادة أصابت النظام الديمقراطى في مقتل ، وزعزعت ثقة الناس بجدوى الحياة النيابية . . وكان إلغاء الدستور دليلا واضحًا على أن الملك • فؤاد ، ضاق ذرعا بالقيود الدستورية التى انتزعت جانا من سلطاته لحساب الشعب . وكان من الصعب على من شب في أحضان الحكم المطلق أن يقبل معه شريكا . . وكان الشريك . بنص الدستور . هم بواب الأمة ومجلس وزرائها الذي آلت إليه مقاليد السلطة التنفيذية ، ولم يكن مجلس الوزراء مسئولا أمام الملك ، ولكن أمام البرلمان ، ومعنى ذلك أن القصر . عش الأوتوقراطية العتيد . فقد كثيرًا من جاهه ونفوذه .

ولم يكن الملك فؤاد مسئولا \_ وحده \_ عن هذه الردة وإنها كان هناك بعض المشتغلين بالسياسة ضاقوا هم أيضا بالدستور لأنه لم يحقق أحلامهم في الحكم بالرغم من ثرائهم العريض ، وثقافتهم العالية ، فتحولوا إلى المعسكر المعادى للدستور وتحالفوا مع الملك في كل حركة رجعية دبرها لتعطيل الحياة النيابية ، وكانوا هم أداة القصر في تشكيل الوزارات الانقلابية التي كانت تتولى الحكم دون تأييد من الأمة ودون سند شرعى من الدستور . . أولئك هم أقطاب حزب الأحرار الدستوريين اللين كان الشعب ينأى عنهم في كل انتخابات حرة \_ وينتخب الوفد \_ فامتلأت نفوسهم حقدا على الوفد . . وعلى الشعب . . وعلى الانتخابات . . وعلى الدستور واتهموا الأمة بالجهل والقصور . وقال زعيمهم في خطبة شهيرة ( إنه كان يعتقد أن واتهموا الأمة بالجهل والقصور . وقال زعيمهم في خطبة شهيرة ( إنه كان يعتقد أن الدستور مناسب لمصر ، ولكن العمل أظهر أنه ثوب فضفاض ) . . فلما ألغى الملك الدستور مناسب لمصر ، ولكن العمل أظهر أنه ثوب فضفاض ) . . فلما ألغى الملك الدستور ، شعروا بفداحة الهاوية التي ساعدوا في حفرها . وبدءوا في إقامة الجسور مع الوفد لمواجهة الكارثة التي تهدد الحياة السياسية جميعا .

وكان الدستور الذي أصدره الملك مسخا مشوها جامعا لكل المبادئ الرجعية المعروفة في نظم الحكم الاستبدادي ، فسلب الحقوق التي كانت الأمة تتمتع بها في ظل الدستور الملغى ، وقيد المسئولية الوزارية \_ أى حق مجلس النواب في سحب الثقة من الحكومة \_ بقيود تجعل من استعمال هذا الحق ضربا من المحال ، وأعطى للملك حق إهمال أي قانون يقره البرلمان ، وجعل للملك وحده حق تعيين شيخ الأزهر وغيره من الرؤساء الدينيين بعد أن كان دستور ١٩٢٣ يجعل هذا الحق ١ بواسطة رئيس مجلس الوزراء ، ، وحرم الدستور الجديد على مجلس البرلمان حق التشريع في المسائل الجالية عامة ، وهي المسائل التي لا تخلو منها المرافق العامة ، فلا يستطيع البرلمان اقتراع فتح اعتماد لأى شأن ، ولا فرض ضريبة أو تعديلها ، مع أن هذه الحقوق كانتُ من أوليات القواعد العامة التي أسس عليها النظام البرلماني الذي أعطى للشعوب حق الإشراف على أموالها . . على أن أغرب ما تضمنه دستور صدقى - في ظل قانون الانتخاب الجديد - هو منع الترشيح لعضوية البرلمان عن كل من يزاول إحدى المهن الحرة في بلد غير مدينة القاهرة . . ومعنى ذلك حرمان الأطباء والمحامين والمهندسين والمحاسبين والتجار المقيمين في الأقاليم من التمثيل النيابي بحجة أن عضويتهم ستشغلهم عن ممارسة أعمالهم . . أو أن أعمالهم ستحول بينهم وبين التفرغ للعمل البرلماني . . !!

وبعد أن حجب قانون صدقى عن مثقفى الأمة حق المشاركة فى العمل البرلمانى استدار نحو العمال والفلاحين والطلاب ليضع أمامهم العراقيل فقرر العودة إلى نظام الانتخاب على درجتين ، ( بمعنى أن يشترك كل خمسين مواطنا فى انتخاب واحد ينوب عنهم فى اختيار أعضاء البرلمان ) واشترط فى سن الناخب أن تكون ٣٥ سنة بعد أن كانت ٢١ سنة ، واشترط فى المندوب أن يكون مالكا لأموال ثابتة مربوط عليها ضريبة عقارية ، أو ساكنا فى منزل لا يقل إيجاره السنوى عن ١٢ جنيها ، أو حائزاً على شهادة دراسية ابتدائية أو شهادة تماثلها .

وكان الهدف من كل هذه الشروط التعسفية هو العمل على استحالة عودة الوفد إلى الحكم ، وحرمان جماهيره العريضة في الأقاليم ، وهم فقراء العمال والفلاحين المهنيون والطلاب ، من حق التصويت ، على أمل أن تسفر عملية الانتخاب عن

تشكيل مجلس نيابي « مستأنس » لا يملك من سلطات الحكم سوى البصم والدعاء لولى النعم بطول العمر .

وكان من الطبيعي ، أن يفكر صدقي في تشكيل حزب ( ملاكي ) انسياقا وراء الموضة الدستورية السائدة . وقرر بالفعل إنشاء حزب جديد أسهاه حزب (الشعب) . . !! ولم يخجل الرجل من أن يصدر أوامره إلى المديرين لحشد عمد القرى وإرغامهم على عضوية الحزب ودفع الاشتراك قسرًا . . وأوجب على أعوان الحزب من طلاب الحاجات والمصالح أن يحرروا كشوفا بأسهاء الأشخاص الذين يتوسمون فيهم استعدادًا للعضوية مقابل منافع شخصية تتحقق لهم فور ملئهم استهارة العضوية . . وكان رجل الإدارة النشيط الذي يستحق الرضا والترقية ، هو الذي يستطيع حشد أكبر عدد من الأعضاء الانتهازيين . ولكي يكون للحزب الجديد جهاز كامل منبث في جميع أنحاء القطر ، صدرت الأوامر بتأليف لجان لحزب الشعب في كل مركز من المراكز على غرار لجان الوفد .

و إزاء هذا العبث بالحياة النيابية ، هب الوفد لمقاومة صدقى والملك ودستورهما . وإنقاذ النظام البرلاني من الخطر الداهم .

### البرلمان في الكونتنتسال

في أعقاب حل البرلمان الوفدى ـ بعد تسع ساعات من انعقاده في ٢٣ مارس ١٩٢٥ ـ دخلت الحركة الوطنية مرحلة المواجهة السافرة مع القوى الأوتوقراطية عمثلة في القصر وأذنابه الذين آلت إليهم مقاليد الحكم منذ الخلاص من حكومة سعد زغلول في نوفمبر ١٩٢٤ . وخضعت البلاد لموجة عاتية من الإرهاب ، والتضييق على الحريات العامة يقودها أحمد زيوار باشا ووزير داخليته المرعب إسهاعيل صدقى باشا . وكان الوفد طوال هذه الفترة يسير على سياسته القديمة في رفض التعاون مع الأحرار الدستوريين بسبب عدائهم التقليدي للوفد ومشاركتهم في كل المؤامرات الإلسائس ضده ، وحقدهم الأسود على زعامة سعد زغلول للأمة ، فكان سعد يرفض كل المحاولات التي بذلت للمصالحة مع الأحرار ، لانعدام ثقته بهم ، وكان يقول لمن يحادثه بشأن المصالحة معهم : « لا يمكنني الاتفاق مع أشخاص تزعزعت يقول لمن يحادثه بشأن المصالحة معهم : « لا يمكنني الاتفاق مع أشخاص تزعزعت الثمة بيني وبينهم فيها يتعلق بموضوع توكيلي ، إنهم يطلبون حقوقا أقل مما تطلب الأمة . . ونحن متشبثون بكامل حقوقها . . » .

ولكن . . مع حلول النصف الثانى من عام ١٩٢٥ \_ عام الرجعية والإرهاب وبعد طرد الوزراء الأحرار في أعقاب أزمة كتاب ( الإسلام وأصول الحكم ) ، أدرك الوفد خطورة استمرار الشقاق والانقسام على القضية الوطنية وعلى الحياة النيابية على السواء ، ورأى أن استمرار تعطيل الدستور ومعه الحياة البرلمانية هما في حقيقتيها تعطيل للوفد عن ممارسة دوره في حل القضية الوطنية ، وتحقيق آمال الجهاهير المصرية في حكومة دستورية تعبر عنه أصدق تعبير . وبدأ الوفد يمد يده إلى خصومه التقليديين ، وصادفت هذه البداية ظهور دعوة أخرى إلى الائتلاف بين جميع الأحزاب

لمواجهة المد الرجعى الذى يقوده القصر ، وكان رائد هذه الدعوة الصحفى المعروف أمين بك الرافعي قطب الحزب الوطنى الذى نشر فى ( الأخبار ) سلسلة من المقالات نبه فيها إلى مخاطر السكوت عن استبداد القصر وتعطيل الحياة النيابية ودعا إلى انعقاد البرلمان المنحل من تلقاء نفسه فى اليوم الحادى والعشرين من نوفمبر ١٩٢٥ تنفيذًا للهادة ٩٦ من الدستور التى تقضى بأن « يدعو الملك البرلمان إلى عقد جلساته العادية قبل يوم السبت الثالث من شهر نوفمبر ، فإذا لم يدع الملك إلى ذلك يجتمع المجلس بحكم القانون فى اليوم المدكور » .

ولاقت هذه الدعوة الجريئة صدى كبيرًا عند الرأى العام ، وأعلنت الأحزاب عن موافقتها على عقد الاجتماع في اليوم المذكور ، ودب الذعر في أوصال حكومة زيوار فحاصرت مبنى البهان بقوات عسكرية مدججة بالسلاح ، وأصدرت ثلاثة بلاغات رسمية ، أحدها باسم مجلس الوزراء قالت فيه : « إنها قررت أن تمنع بالقوة كل اجتماع داخل البهان أو في أى مكان آخر » . والبلاغ الثاني من وزير الداخلية صدقى باشا قال فيه : « إنه كلف الجيش والبوليس بمحاصرة البهان ، وإن التعليمات الصادرة إلى الضباط تقضى بإطلاق الرصاص على المشاغبين والمتظاهرين والمقبض على كل من يشترك في أى اجتماع أو موكب أو مظاهرة » . أما البلاغ الثالث فقد أصدرته وزارة المعارف لتحذر الطلبة من مغبة الإضراب وتتوعدهم بأوخم العقوبات إذا اشتركوا في التظاهرات . .

وتنفيذًا لأوامر الحكومة قام رئيس حرس البرلمان بإغلاق جميع مكاتبه وقاعاته وسلم المفاتيح إلى قائد القوة العسكرية التي حاصرت المبنى . . وفي مساء الجمعة ٢٠ نوفمبر ، انتشرت القوات المسلحة في كل الشوارع والمنافذ المؤدية إلى دار البرلمان التي باتت كالقلعة الحصينة ، ووضعت حشود إضافية في ثكنات قصر النيل ( ميدان التحرير ) لتكون على أهبة الاستعداد عند اللزوم . وباتت القاهرة ليلة دهماء يشوبها القلق والتوتر في انتظار ما يسهر عنه الغد

وفى صبيحة السبت ٢١ نوفمبر ١٩٢٥ ، خرج الزعيم سعد زغلول من بيت الأمة في طريقه إلى فندق الكونتنتال ، حيث تقرر عقد البرلمان ، وما إن رآه الضباط والجنود

حتى القوا بالسلاح وانطلقوا يهتفون بحياته وحياته البرلمان . . !! ودخل سعد القاعة الرئيسة في الفندق ، فوجد النواب والشيوخ قد اكتمل عقدهم فهبوا لتحيته . . وعلى الفور بدأت وقائع الجلسة التاريخية ، بينها كانت المتافات الحاسية تزلزل أركان الفندق ، ويتردد صداها في ميداني العتبة وإبراهيم باشا . . ومن المفارقات الطريفة أن رئيس الوزراء زيوار باشا كان يقيم في نفس الفندق ، فهب من نومه مدعورًا على دوى المتافات التي كانت ترج المنطقة ، فأسرع بارتداء ملابسه وغادر الفندق دون أن يهتم به أحد ، وأصدر النواب والشيوخ القرارات التالية «تنفيذًا الأحكام المادة ٣٠ من الدستور اجتمع أعضاء البرلمان اليوم السبت ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، وأرادوا عقد المجلسين في دار البرلمان فمنعتهم القوة من الوصول إليه وعلى ذلك اجتمعوا اليوم في فندق الكونتئتال وتكامل عددهم القانوني . . وبعد المناقشة في الحالة الحاضرة قرروا بالإجماع ما يأتي :

أولا: الاحتجاج على تصرفات الوزارة المخالفة للدستور وعلى منع الأعضاء من الاجتماع في دار البرلمان بقوة السلاح.

ثانيا: قرر مجلس النواب عدم الثقة بالوزارة طبقا للمادة ٦٥ من الدستور .

ثالثا: اعتبار دور الانعقاد موجودًا قانونا واستمرار اجتماعات المجلسين في المواعيد والأمكنة التي يتفق عليها الأعضاء.

رابعا: نشر هذه القرارات في جميع الصحف.

وبعد أن وقع جميع النواب والشيوخ على هذه القرارات ، انسحب الشيوخ إلى قاعة أخرى ، وبقى النواب فى أمكنتهم برئاسة سعد زغلول الذى أعلن افتتاح جلسة عجلس النواب وطلب منهم انتخاب مكتب المجلس ، فانتخبوا بالإجماع سعد زغلول باشا رئيسًا ، ومحمد محمود باشا (قطب الأحرار الدستوريين ) والدكتور عبد الحميد معيد بك ( من الحزب الوطنى ) وكيلين ، وويصا واصف وعلى الشمسى وعبد الجليل أبو سمرة وأحمد عبد الغفار سكرتيرين .

وبينها كانت الجلسة منعقدة ، كانت التظاهرات قد احتشدت في الميدان

والشوارع المحيطة بالفندق وهي تهتف بحياة الدستور وتطالب بإعادة الحياة النيابية وإقالة الوزارة الرجعية . . وكان من بينها تظاهرة تضم تلميذات المدارس فقوبلت من الضباط والجنود بالتصفيق . . بدلا من الصفع والركل كها أمرت الحكومة .

### إضراب العمد

قانون الانتخاب هو عمود الديمقراطية . .

ويمكنك أن تحكم على درجة الديمقراطية فى أى بلد ، إذا فحصت قانون الانتخاب فيه ، وما يتضمنه من قواعد تسمح بتمثيل الشعب تمثيلاً صادقا . . أو قيود تحول دون تمثيل قوى المعارضة المحرومة من الرضاء السامى . . ولا عبرة - فى جوهر الديمقراطية \_ بقيام مجالس نيابية ذات أساء وأشكال وألوان متعددة ، ولكنها لا تمثل الشعب تمثيلا صحيحًا . . فتكون مجرد فترينات مزركشة ، وواجهات مزيفة تخفى وراءها إفلاسا مدمرًا .

وكان قانون الانتخاب في المرحلة الليبرالية - مجالا للصراع بين دعاة الديمقراطية من ناحية ، وأنصار الأوتوقراطية الذين يهمهم قيام مجالس شكلية ، لا تحمل من الديمقراطية غير اسمها من ناحية أخرى . . وحول قانون الانتخاب ، دارت معارك ساخنة ، كان النصر فيها حليف الشعب لصموده وإصراره على مقاومة عمليات التزييف المقنن . فبعد حل مجلس النواب في عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٥ ، عمد الملك فؤاد إلى إلغاء قانون الانتخاب المباشر الذي أصدرته حكومة سعد زغلول ، وعكف على تفصيل قانون معدل ، يحول دون تمثيل جماهير الشعب التي يمثلها الوفد على تفصيل قانون معدل ، يحول دون تمثيل جماهير الشعب التي يمثلها الوفد المصرى ، ويضمن قدوم نواب لا يحيدون سوى التسبيح بحمد ولى النعم والتصفيق الكل كلمة تنطق بها الحكومة .

#### \* \* \*

وفى ٨ ديسمبر ١٩٢٥ ، استصدرت حكومة زيور باشا مرسوما بقانون الانتخاب المعدل ، تمهيدًا لإجراء الانتخابات الجديدة ، وضيقت فيه حق الانتخاب

وخولت الإدارة سلطات واسعة تمكنها من إنجاح مرشحيها ، وعادت إلى نظام الانتخاب على درجتين (كل ٣٠ ناخبا يختارون مندوبا عنهم ، لانتخاب النائب المرشح) . واشترط القانون المعدل في المندوب أن يكون من الأثرياء . وكان معنى ذلك حرمان أصحاب الجلابيب الزرقاء من حق التمثيل ، وأدرك الوقد خطورة هذا الإجراء على جماهيره الشعبية ، فحمل لواء الدعوة إلى مقاطعة الانتخابات على أساس هذا القانون الرجعي . . وتضامنت الأحزاب الأخرى مع الوفد ، وأعلنت عن مقاطعة الانتخابات ، وسرت في الأمة روح المعارضة . . ولكن حكومة زيوار مضت في طريق الاستخفاف بالإرادة الشعبية ، استنادا إلى دعم القصر لها ، ووقوف جهاز في طريق الاستخفاف بالإرادة الشعبية ، استنادا إلى دعم القصر لها ، ووقوف جهاز السلطة في خدمتها ، ولم يخطر على بالها أن يأتيها المطعن من عقر دارها ؟ ومن جماهير العمد الذين شاع في الأذهان أنهم أتباع كل حكومة . . فقد أعلن العمد أنهم لن يشرفوا على انتخابات تجرى على أساس قانون زيور . . !!

وكان عمد مركز تلا منوفية ، أول من أشعل شرارة الإضراب ، فأرسلوا برقية إلى وزارة الداخلية تضمنت رأيهم . . ولكن زيور لم يكترث بهذا التهديد ، وكلف أحد كبار موظفى الداخلية ، بالسفر إلى المنوفية وجمع العمد الذين وقعوا البرقية ، وتخييرهم بين العدول عن الإضراب أو العزل من العمدية ؛ فأصر عشرة منهم على موقفهم لحصدر قرار برفتهم ، وأدى هذا القرار المتعسف إلى اتساع رقعة المعارضة بين العمد . . وفي هذه الآونة ارتفع شعار شهير ، يقول ( يحيا الوفد ولو فيها رفد) . . وتضامن بقية العمد مع زملائهم المرفوتين ، وأعلنوا استقالاتهم من العمدية ، وسرت شعلة الوطنية بين العمد ، في كافة أنحاء البلاد ، فأعلن معظمهم الإضراب عن الإشراف على العملية الانتخابية . . وتحرج مركز الحكومة ، ولكنها بدلا من أن تعالج الأمر بالعودة إلى الحق . . قدمت عددًا من العمد إلى المحاكمة بتهمة الامتناع عن المصرى العادل . المستقل . أحكامه في هذه القضايا ببراءة العمد .

\* \* \*

وكان هذا الموقف الشجاع من جانب عمد القرى والبلاد ، مشجعا للأحزاب السياسية على الائتلاف وتوحيد الصفوف لمقاومة التدابير التي ينسجها الملك وخادمه

زيور ، وأنشئت في يناير ١٩٢٦ لجنة تنفيذية للأحزاب المؤتلفه لتنظيم جهودها وأصدرت قرارًا مشتركا بمقاطعة الانتخابات . . وعقد مؤتمر وطنى يضم زعماء الأمة وشيوخها ونوابها وذوى الرأى والمكانة فيها . وفي يوم الجمعة ١٩ فبراير ١٩٢٦ انعقد المؤتمر في حديقة منزل محمد محمود باشا بشارع الفلكي ، وتصدر الزعيم سعد زغلول المؤتمر ، وجلس بجانبيه عدلي يكن باشا ، وعبد الخالق ثروب باشا ، وبلغ عدد الحاضرين ١٩٧ عضوًا ، وألقى سعد باشا خطابا ذكر فيه اعتداء وزارة زيوار على الدستور وعلى الحياة النيابية ، ودعا إلى توحيد الصفوف ونبذ الفرقة ، ورفض على الدستور وعلى الحياة النيابية ، ودعا إلى توحيد الصفوف ونبذ الفرقة ، ورفض الانتخاب المباشر . . وبعد مناقشة واسعة وافقت الأغلبية العظمى من الحاضرين على تأييد قرارات الأحزاب المؤتلفة ، والمطالبة بتأليف وزارة موثوق بها من الأمة للإشراف على الانتخاب المباشر . وانتخاب لجنة للإشراف على تنفيذ هذه القرارات .

وإزاء هذا الإجماع الشعبى المنقطع النظير ، لم يجد الملك فؤاد مفرا من الإذعان الإرادة الشعب . . فقرر مجلس الوزراء إيقاف العمل بقانون الانتخاب المعدل . والعودة إلى قانون الانتخاب المباشر ، واتفقت كلمة الأحزاب على أن تخوض المعركة الانتخابية في جو خال من العرقة والانقسام والمهاترات . كما اتفقت على توزيع الدوائر منعا للتناحر ، فترك للوفد ١٦٠ دائرة ، وللأحرار الدستوريين ٤٥ دائرة وللحزب الوطنى تسع دوائر ، ولكن نتيجة الانتخابات أسفرت عن فوز الوفد في وللحزب الوطنى على خسة مقاعد والمستقلون ١٠ ، والاتحاديون (حزب الملك فؤاد) على خسة مقاعد فقط .

وانتصرت إرادة الشعب . .

وسقطت إرادة الملك . .

### مهزلة انتخابية

كان إسماعيل صدقى باشا من أشد الحكام مقتا لشيء اسمه سلطة الشعب ومن هنا كان بغضه للنظام البرلماني وتحقيره للمبادئ الديمقراطية ، التي تعطى للشعب حق المشاركة في الحكم عن طريق المجالس النيابية . وكان معروفا عنه الاستهتار بالشعب والاستهزاء بقدرته على اختيار بمثليه . . فقد كان يعتقد أن عبقريته الفردية تفوق مجموع الكفاءات التي يختارها الشعب . ومنذ بدأت المرحلة الدستورية في مصر عام ١٩٢٤ ، وهو يتربص بالدستور وبالبرلمان وبالحياة النيابية وينتهز الفرصة للانقضاض عليها جميعا . . وفي عام ١٩٣٠ جاء به الملك فؤاد إلى الحكم ليهدم المعبد على رءوس أصحابه ، فألغى دستور ١٩٢٣ ، وفصّل دستورًا جديدًا ينقص من حقوق الشعب ، ويركز السلطات في يد السلطة التنفيذية التي يمثلها الملك وكبير وزرائه .

وأدرك الوفد. وهو في المعارضة \_ مخاطر هذه المؤامرة الرجعية التي تعنى عودة البلاد إلى الحكم المطلق ، ورأى أن الدفاع عن الحقوق الديمقراطية يتطلب إشراك الجماهير في المعركة وتكتيل صفوف المعارضة في جبهة واحدة . . واستجاب الأحرار الدستوريون \_ أكبر الأحزاب بعد الوفد \_ لنداء المقاومة ، بينها رفض الحزب الوطنى حزب مصطفى كامل \_ المشاركة في جبهة المعارضة ، وانحاز إلى جانب القصر والحكومة في مؤامرة إجهاض النظام الدستورى . . واغتبط صدقى باشا بقرار الحزب الوطنى . وزعم أن نظامه ، إذا كان يلقى معارضة حزبين (١١) ، فإنه يحظى بتأييد ثلاثة أحزاب هي : الحزب الوطنى وحزب الاتحاد (حزب الملك فؤاد) وحزب (الشعب) الذي اصطنعه صدقى ليخوض به معركة الانتخابات على أساس دستوره الرجعى .

وبدأت المعارضة الوطنية تستعد للمعركة الفاصلة بكل ما أوتيت من قوة غير هيابة من قوى البطش التي أعدها صدقى ، وأصدرت جبهة المعارضة ميثاقا قوميا أسمته (عهد الله والوطن) أعلنت فيه عزم الأمة على مقاطعة انتخابات صدقى والعمل على إعادة النظام الدستورى . . وأعلن الوفد والأحرار ، أنهم يقفون بكل قوة وإخلاص ، فى وجه الدستور الذى تجاول الحكومة بكل وسائل الإرهاب أن تفرضه على البلاد ، مزدرية كل عدل أو قانون . ويكررون أنهم متفقون على مقاطعة الانتخابات التي تجرى فى ظل هذا الدستور مقاطعة لا رجعة فيها ، وأنهم يرون مقاطعتها فرضا على كل مصرى مخلص لبلاده ، ولا يرضون أن يكون لمصر نظام ملحكم غير ما ارتضته بدستور ١٩٢٣ ، وهم فى موقفهم هذا صادرون عن رأى الأمة ، واثقون بتأييدها لهم ، ليعود هذا النظام كاملا غير منقوص ، وليعود الحكم النيابي بكل تقاليده الصحيحة ، حتى يتمتع المصريون جميعا بنعمة الدستور وما يكفله للجميع من حرية وعدالة ومساواة .

وصدر الميثاق ، حاملا توقيع أقطاب الحزبين ، يتقدمهم مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد ، ومحمد محمود باشا رئيس الأحرار الدستوريين . . وكان لهذا الميثاق وقع الصاعقة على النظام بالرعم مما كانت تشيعه الحكومة عن قوتها . وحظر صدقى على الصحف نشر الميثاق ، وصودرت الصحف التى همت بنشره . . ومع ذلك ، فقد أخذ البيان طريقه إلى الجهاهير ، فلقى التأييد التام من كل المنظهات والهيئات والميئات النقابات المهنية والعمائية والأعيان والتجار ، وبدا واضحا أن الرأى العام المصرى يساند المعارضة في معركتها المقدسة ضد الطغيان والرجعية . . ودفع هذا التأييد جبهة العارضة إلى مزيد من الحركة لتنسيق كفاحها ، وشكلت لجنة اتصال من الوفد والأحرار لتنظيم حركة الجهاهير . . وهنا طرأت فكرة نقل المعركة من مجال الخطب وكتابة المقالات إلى الشارع ، حتى تتحمل الجهاهير مسئوليتها في الدفاع عن حقوقها التي يتربص بها المستبدون ، وكان هذا تطورًا خطيرًا أعاد إلى الأذهان ذكرى الانتفاضة الجهاهيرية أثناء ثورة ١٩١٩ ، وما كشفت عنه من وعى وطنى تمثل في الانتفاضة الجهاهيرية أثناء ثورة ١٩١٩ ، وما كشفت عنه من وعى وطنى تمثل في مقاطعة « لجنة ملنر » ثم مقاطعة البضائع والمنتجات البريطانية .

ويروى الدكتور هيكل باشا في مذكراته ، قصة هذا التطور الدرامي في حركة

المعارضة ، حين وجدت أن دعوة الشعب للمقاومة والتضحية لا يمكن أن تثمر ثمرة ما ، إذا لم يتقدم الزعاء صفوف الشعب في هذه المقاومة ، ولم يتعرضوا تعرض الشعب للتضحية . . أما إن اقتصرت الدعوة على عبارات تنشر في الصحف بالغة ما بلغت قوتها وصدق تعبيرها عما يعانيه الشعب في حريته وفي حقوق وطنه فلن يكون من أثرها إلا أن تثير إعجاب المثقفين ببلاغة أسلوبها وقوة عباراتها ، لكنها لا تحرك الشعب إلى عمل إيجابي عنيف منتج .

وتقدم الزعاء الصفوف . . وجرت سلسلة من الصدامات الدامية بين الجاهير والسلطة في المدن التي زارها زعاء المعارضة ، وتساقط القتلي والجرحي بالعشرات دون أن يؤثر ذلك في إصرار صدقي باشا على تنفيذ خطته بالحديد والنار ، وسيطرت على روحه نزعة العناد ، فلم يتراجع عن المضى في إجراء مهزلة الانتخابات . . وطلبت جبهة المعارضة من العمد والمشايخ أن يستقيلوا من وظائفهم احتجاجا على تعسف الحكومة ، فانهالت الاستقالات حتى بلغت في مجموعها حوالي ٠٠٠ استقالة ، تصدى لها صدقي ليحافظ على هيبة جهاز الإدارة الذي سيدير المهزلة الانتخابية ، وبعث إلى القرى التي استقال عمدها ومشايخها بحشود من رجال البوليس والإدارة لإرغام العمد على سحب استقالاتهم ، ولكنهم أصروا على موقفهم الموليس والإدارة لإرغام العمد على سحب استقالاتهم ، ولكنهم أصروا على موقفهم الموليس والإدارة لإرغام العمد على سحب استقالاتهم ، ولكنهم أصروا على موقفهم الموليس والإدارة لارغام العمد على سحب استقالاتهم ، ولكنهم أصروا على موقفهم الموليس والإدارة لارغام العمد على سحب استقالاتهم ، ولكنهم أصروا على موقفهم الموليس والإدارة الإرغام العمد على سحب استقالاتهم ، ولكنهم أصروا على موقفهم المات الفادحة .

وفي يوم الانتخابات ضرب الشعب المصرى أروع أمثلة الكفاح من أجل الديمقراطية .. وقاطعت الأمة انتخابات صدقى مقاطعة تامة .. حتى أقفرت الشوارع الكبرى بالعاصمة .. وذكرت السيدة فاطمة اليوسف ، أنها كانت تطوف على دوائر الانتخابات فتراها خاوية ، والحوانيت القرية منها مغلقة .. ووصف الرافعي حركة المقاطعة بأنها كانت رائعة ، ولا تقل في روعتها واتساع مداها عن مقاطعة الأمة لجنة ملنر عام ١٩١٩ .. بل إن تضحيات البلاد من القتلي والجرحي في هذه الانتخابات ، كانت أعظم وأكبر .. ففي يوم الانتخابات دخل العمال المعركة فأضرب رجال عنابر بولاق والورش الأميرية ، وتظاهروا احتجاجا على المهزلة الانتخابية .. وقامت تظاهرات أخرى في المدن ، وتصدت قوات الحكومة لها المهزلة الانتخابية .. وقامت تظاهرات أخرى في المدن ، وتصدت قوات الحكومة لها

بالعنف الشديد ، حتى بلغ مجموع القتلى فى ذلك اليوم المشئوم مائة قتيل و ١٧٥ جريحا .

ومع ذلك ، لم يخجل إسهاعيل صدقى باشا من أن يصدر فى ختام هذه المهزلة بيانا أعلن فيه أن الانتخابات تمت فى هدوء وسكينة (!!) ، وأن الأمة اشتركت فيها بأكثر مما اشتركت في أى انتخابات سابقة ، وأن نسبة الذين أدلوا بأصواتهم تزيد على ٢٧٪ من مجموع الناخبين . . وكان الناس يقرءون هذه التصريحات الكاذبة فيضحكون ، ويسخرون من صاحبها . . ويضربون كفا بكف . . ويقولون إن الدين اختشوا قد ماتوا . .

# . اجسرام في إجسرام

كانت وزارة إسماعيل صدقي باشا (من ١٩ يونيه ١٩٣٠ إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣) نكبة على الوطن من كل ناحية . كانت نكبة سياسية واجتماعية وأخلاقية ، لأن الحكومة أباحت لنفسها سلطة انتهاك القيم والقوانين والعبث بالحريات الأساسية التي كفلتها الشرائع والدساتير . . لقد ظن صدقي بعد أن ألغى الدستور وطبخ الانتخابات أنه أصبح سيد الموقف . . وأن المسرح قد خلا له . . فركب أعلى خيوله وأخذ يصول ويجول غير عابئ بسلطة الشعب ، وأطلق يد الإدارة للبطش بخصومه ، وأخذ يصول ويجول غير عابئ بسلطة الشعب ، وأطلق يد الإدارة للبطش بخصومه ، وكانت جرائم الضرب والتعذيب والتلفيق والفصل تجرى جهارًا نهارًا ، وتحولت الإدارة إلى أداة انتقام من خصوم الحكومة ، حتى وقر في أذهان الحكام الإداريين أن هذه هي مهمتهم الأساسية ، وأن هذه الوسيلة المقوتة هي السبيل إلى الترقي واعتلائهم المناصب الممتازة .

وبلغت حكومة صدقى أدنى مستوياتها الأخلاقية ، عندما حالت بين القضاء وممارسة سلطاته فى وقف هذا الطوفان المدمر . . وجرأت الحكومة أعوانها من رجال الإدارة على الاستهانة بسلطة القضاء ، مثلها حدث فى المنيا عندما كان وكيل النائب العام يحقى فى شكوى قدمها بعض الأهالى ضد رجال الإدارة ، فمنعه مأمور ضبط المديرية من الاستمرار فى التحقيق ، وحال بينه وبين سؤال الأشخاص المطلوب استجوابهم . . وأثار هذا الافتئات الصارخ على السلطة القضائية ضجة كبيرة داخل حصن العدالة ، بلغت ذروتها فى حادث البدارى ، عندما قام مأمور مركز البدارى بتعذيب بعض الأهالى ، مما دعا اثنين منهم إلى قتله فى مارس ١٩٣٢ . . فلها حوكها أمام محكمة جنايات أسيوط حكمت بالإعدام على الأول وبالأشغال الشاقة

المؤبدة على الثانى . . ولكنها طعنا فى الحكم أمام محكمة النقض والإبرام . . وجاء حكم هذه المحكمة برئاسة عبد العزيز فهمى باشا وثيقة إدانة لجهاز الإدارة ، وأثبتت المحكمة فى حكمها التاريخى أن رجال البوليس أتوا من المنكرات ما وصفته المحكمة بأنه ( إجرام فى إجرام ) ، وأن من وقائعها ما هو جناية هتك عرض يعاقب عليها القانون بالأشغال الشاقة ، وأنها من أشد المخازى إثارة للنفس واهتياجا لها ودفعا بها إلى الانتقام . . ومع أن محكمة النقض رفضت الطعن لأنها لا تملك \_ قانونا \_ تخفيف العقوبة ، إلا أنها لفتت فى حكمها نظر ولادة الأمور إلى وجوب تدارك هذا الخطأ القضائى .

وأثار حكم محكمة النقض والإبرام ردود فعل عنيفة فى الأوساط القضائية فاضطرت وزارة العدل إلى وقف تنفيذ حكم الإعدام على المتهم الأول ، واتخذت الإجراءات القانونية لتخفيف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، وتخفيف الحكم على المتهم الثانى من الأشغال الشاقة المؤبدة إلى الأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة ، وأمرت الوزارة بالتحقيق فى حوادث التعذيب التى أشارت إليها محكمة النقض ، وفى حوادث تعذيب أخرى وقعت من رجال البوليس والإدارة فى بلاد أخرى . . وقطعت النيابة فى تحقيقها شوطا بعيدًا ثبت فيه إدانة بعض رجال البوليس . وانتهت التحقيقات بعد زوال حكم صدقى ، وصدرت الأحكام على من ثبتت عليه تهمة التعذيب . . فحكم على ضابط برتبة ملازم بالحبس مع الشغل لمدة سنة ، وعلى ملازم آخر بالحبس على ضابط برتبة ملازم بالحبس شهرين ، وحوكم الجندى الذى قتل أحد الناخبين في حلوان فحكم عليه بالأشغال الشاقة ١٥ سنة .

وكان من الطبيعي أن تؤدى هذه الفضائح إلى زعزعة أركان حكومة صدقي التي قامت على البطش والتنكيل بالخصوم ، وقدم كل من على ماهر باشا وزير المعارف وعبد الفتاح يحيى باشا وزير الحقانية (العدل) ، استقالته من الوزارة ، لما وجدا من رئيس الحكومة عزما على عرقلة التحقيق في حوادث الاعتداء على حريات المواطنين . ولتطويق هذه الحركة الاحتجاجية ، قدم صدقي باشا استقالة وزارته إلى الملك فؤاد في لا يناير ١٩٣٣ ، ولكن الملك عهد إليه بإعادة تشكيل الوزارة ، بعد استبعاد هذين الوزيرين ، وكان تمسك الملك فؤاد بإسهاعيل صدقي دلالة على إصرار القصر على الاستمرار في سياسة قمع الشعب .

وأدرك رجال الإدارة والبوليس بعد هذا التشكيل ، أنهم مؤيدون من السراى والحكومة ، وأن معناه هو تشجيع نزعة البطش والعسف فى تصرفاتهم ، وإطلاق يدهم فى التنكيل بالأهلين ، غير مراعين حرمة للعدل والقوانين ، فتهادوا فى خطتهم مطمئنين إلى أن الوزارة تحميهم وتسندهم ، وأن السراى ساكتة عن هذا النوع من الطغيان ، ولا تعترض على هذا البغى والعدوان . . وقد وقع فى بلدة ( الحصاينة ) مركز السنبلاوين حادث تنكيل جديد يوم ١١ فبراير ١٩٣٣ دل على تغلغل هذه الروح فى نفوس الموظفين الإداريين مما كان له وقع أليم فى النفوس .

ويتلخص حادث الحصاينة ، فى أن الإدارة عطلت وابور طحين يملكه الشيخ طلبة صقر من أعيان الوفد فى هذه الجهة ، وقام لذلك نزاع بينه وبين الإدارة رفع أمره إلى القضاء ، إذ أقيمت عليه دعوى مخالفة أمام محكمة السنبلاوين .

وفي يوم نظر القضية ، هبطت على القرية قوة من رجال الوليس والإدارة للتفتيش على الوابور ، فاعترضها بعض أقارب صاحب الوابور ، طالبين بقاء الحال على ما هو عليه ، إلى أن يفصل القضاء في دعوى المخالفة . ولم يقتنع رجال الإدارة بهذا المنطق مما كان سببا في قيام مشاحنة بين الفريقين . وعندئذ أمر مأمور المركز رجاله بإطلاق النار على الأهالى ، فقتل منهم ثلاثة ، أحدهم شقيق الشيخ طلبة صقر ، كما قتل اثنان من جنود الشرطة ، وجرح عدد كبير من الأهالى ، واستولى اللعر على الماقين. . ولم يقف عسف الإدارة عند هذا الحد ، فأرسلت الداخلية تجريدة من الماقين. . ولم يقف عسف الإدارة عند هذا الحد ، فأرسلت الداخلية تجريدة من السجون ، إلى أن أفرجت عنهم النيابة . . والمدهش في الأمر أن قضية المخالفة التي نسبتها الإدارة تجاوزت سلطتها بالأمر الذي أصدرته بإلغاء رخصة الماكينة وإقفال الوابور وأن هذا الأمر الإدارى باطل .

\* \* \*

تلك كانت وزارة إسماعيل صدقى ، التى وصفها المؤرخ الرافعى بأنها كانت توهم الناس بأنها ألغت الدستور ، وأهدرت إرادة الأمة ، وزيفت الانتخابات ، لكى تصل إلى إصلاح إداة الحكم في البلاد . . ومن سخرية الأقدار أن الحوادث أثبتت أن

أداة الحكم قد زادت فسادًا في عهدها ، بحيث لم يبقى مسوغ للانقلاب الذي تم على يديها ، وثبت بالبراهين العملية أن الحكومة التي فرضت على الشعب فرضا ، كانت من غير شك أسوأ من أي حكومة اختارها بمحض إرادته . . فقد اعتاد الموظفون في عهد صدقى التلفيق والتزوير في الأوراق الرسمية . . وكانت عملية الانتخابات التي اصطنعها مزورة من أولها إلى آخرها . . فألف الموظفون الإداريون التزوير وفساد الضمير . واعتاد رجال البوليس والجيش التنكيل بكل معارض للحكومة دون مراعاة للعدل والقانون ، وأبيح لهم القتل وسفك الدماء في هذا السبيل .

ومن ناحية أخرى ، جعلت الوزارة من بنك التسليف الزراعى أداة لمساعدة أنصارها . . واستغلت الأزمة المالية لتمييزهم فى التسويات والسلف العقارية . . والضغط على خصومها السياسيين ، ومحاربتهم بسلاح المطالبات المالية ، لكى تضطرهم تحت تأثير الخوف من الفقر والفضيحة ، إلى الخضوع لسياستها والانفصال عن المعارضة . . فكان فى ذلك إفساد للأخلاق والضائر . وتعقبت الوزارة خصومها السياسيين فى أرزاقهم لكى تضطرهم إلى الذل والاستكانة والانضام إلى صفها ، ولم تتورع فى هذا الصدد عن إقفال المحالج والمصانع لأسباب ملفقة للتنكيل بأصحابها وجعلهم عرة لغيرهم . وقد استسلم بعض الأعيان لهذا السلاح الفتاك . . وصمد له آخرون ، فبرهنوا على صلابة فى العقيدة ومتانة فى الأخلاق ، نما يحتاج إليه المجتمع فى بلادنا .

# وفدية .. سعدية .. زغلولية

كان حل مجلس النواب في ٢٣ مارس ١٩٢٥ ، وهو لا يزال في المهد ، أشبه بمهزلة تثير الدهشة والسخط والاشمئزاز . . وكان هذا التصرف الشاذ هو بداية الطريق الوعر الذي اختطه الملك فؤاد المستبد الطاغية . . وتوغل فيه ابنه فاروق المستهتر ، الذي بلغ العبث بالدستور ، والاستهانة بالإرادة الشعبية ، في عهده مبلغا عظيها . . وانتهى كل ذلك بتصدع النظام النيابي . . وزعزعة إيان الأمة بجدوى النصوص الصريحة القائلة بأن الأمة مصدر السلطات . . وانهيار النظام الملكي كله . وعندما تبحث عن مبرر معقول لحل مجلس النواب ، الذي انتخبه الشعب بعد تسع ساعات من انعقاده ـ فلن تجد سوى مبرر واحد هو الحرص على استبعاد سعد زغلول الذي آلت إليه مقاليد الزعامة الشعبية . وبات ـ ومعه الوفد ـ الناطق الرسمي الوحيد باسم شعب مصر ، في وقت ظن فيه الظانون أنهم أحق وأجدر بهذه الوكالة اعتهادًا على ثراء عريض ، أو مجد موروث ، أو علم مكتسب .

### \* \* \*

قبل موعد الانتخابات بشهرين ، جاءوا بإسهاعيل صدقى ليدير المعركة على هوى الملك ، ويضع السدود والمتاريس أمام عودة الوفد إلى البرلمان . وتقبل صدقى التكليف ممتنا ، فسوف تتاح الفرصة له للانتقام من سعد الذى طرده من الوفد ، فانتقل إلى المعسكر الآخر ، ومضى في طريقه غير عابئ بقانون أو دستور . ووضع خطة لتغيير معالم الأرض الانتخابية ، حتى يتوه فيها أصحابها . وسلك في ذلك مسالك أصبحت فيها بعد تقاليد راسخة في عمليات التزييف والتزوير والتأثير على جهاز الإدارة . . فقد عمل على تعديل الدوائر الانتخابية ، بحيث تخدم مصالح

المرشحين غير الوفديين . . ثم تراجع عن نظام الانتخاب المباشر ، وعاد إلى نظام الانتخاب الثلاثيني الذي ألغته حكومة سعد زغلول ( ومعناه أن كل ثلاثين ناخبا في الانتخاب الثلاثيني الذي ألغته حكومة سعد زغلول ( ومعناه أن كل ثلاثين ناخبا في من مثلا عنهم لانتخاب أحد المرشحين ) ، وألقى بكل ثقله على جهاز الإدارة من مآمير وعمد ومشايخ ، مستخدما كل مجرم من وعد أو وعيد . . وإغراء أو تهديد . . حتى أثمرت هذه الخطة ، وظهرت الشائر بتخلي الشعب عن مرشحي الوفد ، لدرجة أن سعد زغلول نفسه لم ينجح في الانتخابات الثلاثينية ( يعني لم يجد ثلاثين شخصا يجمعون على انتخابه في انتخابات الدرجة الأولى ) . . !!

وعندما فرغ إسهاعيل صدقى من إعداد المسرح ، وظن أن كل الترتيبات قد تمت على ما يروم ، مضى إلى مولاه الملك قائلا : تمام أفندم . . كل شيء عال . . وتحدد يوم ١٢ مارس ١٩٢٥ لإجراء الانتخابات ، وتقدمت إليها كل الأحزاب : الوفد والوطنى والأحرار الدستوريون . . ومعهم بالطبع حزب القصر ( الاتحاد ) الذي أطلق عليه سعد زغلول (حزب القش ) .

ويبدو أن الهوية الحزبية للمرشحين ، لم تكن واضحة للسلطات . وإن كانت واضحة للناخبين الذين أفلحوا في إخفاء مشاعرهم عن مرشحيهم الحقيقيين انتظارًا للحظة التي يقفون فيها أمام صناديق التصويت . . وعندها يكشفون عن انتخابهم الصحيح . . ولعل هذه العملية الانتخابية التي تمت في يوم ١٢ مارس انتخابهم الصحيح . . ولعل هذه العملية الانتخابية التي تمت في يوم ١٢ مارس انتخابات عرفتها مصر ، كما وصفها بحق الدكتور يونان لبيب رزق ، فلم تظهر انتخابات عرفتها مصر ، كما وصفها بحق الدكتور يونان لبيب رزق ، فلم تظهر السامي طوال هذه الفترة وهم حياري : كم حصل الوفد . . ؟ وكم حصل الآخرون ؟ وتسرعت الحكومة في صبيحة يوم اجتماع المحلس الجديد وأعلنت أن الأحزاب غير الوفدية حصلت على أغلبية تسمح باستمرار الحكومة ، وبالفعل أصدر الملك فؤاد مرسوما باستمرار حكومة زيور ، وألقي زيور خطاب العرش أمام الملك ، وبعد انصراف الملك أجريت مراسم انتخابات رئيس عجلس النواب والوكيلين ، وهنا انصراف الملك أجريت مراسم انتخابات رئيس عجلس النواب والوكيلين ، وهنا حدثت المفاجأة التي كان لها وقع الصاعقة : حصل سعد زغلول ، على ١٢٣ صوتا مقابل ٨٥ صوتا حصل عليها عبد الخالق ثروت ، مرشح الأحرار الدستوريين . وها

بمنصب الوكيلين ، النائبان الوفديان : على الشمسى وويصا واصف . . !! وتبين أن المجلس يضم أغلبية وفدية سعدية زغلولية . . !!

واكتشف الملك أنه أمام مجلس نواب وفدى ، وأن كل الحيل التى ابتدعها لم تفلح في إبعاد الوفد عن الشعب . . وأن ذكاء شعب مصر أكثر فاعلية من خبث صدقى . . وأحس خصوم الوفد بأن الأرض تميد تحت أقدامهم . . وأن ما حسبوه تحطيها لقوة الوفد ، انقلب فأضحى إثباتا لهذه القوة . . ويصف الدكتور هيكل هذه اللحظة التاريخية بقوله : لقد وجم أنصار الحكومة ، وجعلوا يضربون أخماسهم في أسداسهم ويتساءلون : ما عسى أن يتمخض عنه الموقف بعد . . ؟؟

#### \* \* \*

ولم يضيع زيور باشا وقته فى التفكير . وإنها عكف سحابة النهار ـ وهى المسافة الممتدة بين انتخابات الصباح واجتهاع المجلس فى المساء ـ على إعداد مرسوم حل المجلس ، وذهب به إلى الملك فؤاد فوقعه على الفور . . وعاد زيور إلى النواب المجتمعين ، وتلا عليهم مرسوم حل المجلس ، وكأنه يقول لهم : نحن لا بريد الموقد ، ولا نريد سعدا . . ولا نريد الدستور . . ولا نريد البرلمان . . ولا نعترف بشىء اسمه إرادة الشعب .

## لطمة ملوكية

كان أحمد فؤاد ، سادس أبناء الخديو إسهاعيل الثهانية . وعندما طرد أبوه من مصر في عام ١٨٧٩ ، كان هو لا يزال صبيا ، تخطى العاشرة ، فكتب عليه أن يقضى صباه وصدر شبابه ، منفيا في العواصم الأوربية . . فعمل ضابطا في الجيش الإيطالي ، ولقى العطف من كبار القادة الذين عاملوه على أنه (عزيز قوم ذل) . . وارتبط فؤاد بالحياة الإيطالية شكلا وروحا . . وظلت المؤثرات الإيطالية واضحة في حياته ، حتى بعد أن صار ملكا . . فكان للإيطاليين وجود كبير في القصر ، وفي المشروعات الكبرى . . وورث فاروق عن أبيه حب الطليان ، فكان منهم معظم العاملين في القصر : الحلاق والطباخ والكهربائي والجنايني . . حتى منسق السهرات الخاصة أنطون بوالي .

واستنكف السلطان العثماني ، أن يعمل أحد رعاياه ضابطا في الجيش الإيطائي فاستدعى الأمير أحمد فؤاد إلى الأستانة ، وألحقه بمعيته ، ثم أوفده ملحقا عسكريا في فيينا ، إلى أن مات أخوه الخديو توفيق سنة ١٨٩٧ ، وخلفه ابنه عباس حلمى الثاني ، فاستدعى عمه أحمد فؤاد من المنفى ، وعينه رئيسا للحرس الخديوى · وعاد فؤاد إلى مصر ، ليبدأ مرحلة الصعلكة والفساد في حياته التي قاربت السبعين . وكان المعروف عنه \_ في هذه الفترة المبكرة \_ أنه زير نساء ، وزبون دائم على الحانات وعلب الليل وصالات القيار . . يشرب ولا يدفع ، . ويخسر ثم يستدين . ولا يتحرج من أن يمد يده إلى الجرسونات طالبا قروضا غير مردودة لكى يواصل اللعب . . وهناك كثير من أثرياء مصر يفخرون \_ صدقا أو كذبا \_ بأن الأمير فؤاد مدين لآبائهم بخمسة جنيهات أخذها على مائدة القيار . .

وتزوج فؤاد إحدى أميرات الأسرة العلوية ، وهى الأميرة شويكار ، فأنجب منها فتاة وحيدة هى الأميرة فوقية . وكان فؤاد دائم الإلحاح على زوجته الثرية لتمده بالدعم اللازم للمجون ، فكانت تأبى حينا ، وتذعن أحيانا . وذات يوم رفضت الأميرة شويكار تلبية طلباته فاستشاط غضبا . . ورفع يده وهوى بها على وجه زوجته في لطمة ، دوى صداها في أنحاء البلاد ، حتى بلغ مسامع أخيها الأمير سيف الدين ، وكان شابا عصبيا حاد المزاج لا يحسن التفاهم باللسان ، فها كان منه إلا أن حشا مسدسه بالرصاص ، وانطلق كالثور الهاقيج بين البارات والكباريهات ، بحثا عن زوج أخته ليغسل العار الذي لحقه من اللطمة الملوكية ، حتى عثر عليه في عن زوج أخته ليغسل العار الذي لحقه من اللطمة الملوكية ، حتى عثر عليه في النادى الخديوى \_ نادى محمد على فيها بعد \_ ودارت بين الأميرين مشادة ساخنة باللغة التركية ، طبعا ، انتهت بأن أخرج الأمير سيف الدين الطبنجة وأطلق مها رصاصة استقرت في حنجرة الأمير فؤاد . . وفشل الأطباء في استخراجها فيقيت حيث هي . وبقيت مؤثراتها على حباله الصوتية . فكانت تصدر عنه أصوات أشبه بالنباح مما يسبب الارتباك لسامعيه . .

وقع هذا الحادث يوم ٧ مايو ١٨٩٨ . . وبعدها قدم الأمير المعتدى إلى المحاكمة ، فحكم عليه بالسجن سبع سنوات ، ثم خفف إلى خس . . واستكبر بعض الأمراء الأقوياء أن يعيش أحدهم في السجن بين اللصوص والنشالين وقطاع الطرق ، فتدخلوا لدى حاكم مصر الفعلى ـ اللورد كرومر ـ واستعانوا بتقرير طبى كتبه أحد أطباء الأمراض العصبية ، وأفتى فيه بأن الأمير لا يتمتع بكامل قواه العقلية . . واقتنع كرومر بهده الفتوى . . واستطاع أن يقنع بها حاكم مصر الشرعى الحديو عباس حلمي ـ فأصدر مرسوما بالإفراج عن سيف الدين ، على أن يقضى بقية حياته تحت العلاج في إحدى المصحات النفسية بإنجلترا . . ومرت السنون بقية حياته تحت العلاج في إحدى المصحات النفسية بإنجلترا . . ومرت السنون والشاب سبجين المصحة العقلية ، حتى ودع الشباب والكهولة ، وأشرف على الشيخوخة دون أن يتمتع بالضياع الواسعة والثروة الطائلة والنعيم الرغد الذي خلفه في مصر .

\* \* \*

وتطورت الأمور في مصر ، على المستويين العام والخاص ، فطلق الأمير أحمد فؤاد

زوجته شويكار انتقاما من أخيها المتهور ، ثم أصبح سلطانا على مصر بعد وفاة أخيه حسين كامل ، واعتذر ابنه كال الدين عن ولاية العرش . . وجلس فؤاد على الأريكة السلطانية ، فواتته الفرصة لتعويض أيام الضنك والصعلكة التي قضاها في البارات والحانات متسولا ومقترضا . . وفكر في الزواج الثاني فوقع بصره على الفتاة الجميلة ـ نازلي ـ كريمة عبد الرحيم باشا صبرى مديرالمنوفية السابق ، وحفيدة الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي) . . وكانت الفتاة على علاقة عاطفية بشاب يمت إليها بصلة القربي ، ويعتزمان الزواج ، عندما شاءت إرادة عظمة السلطان أن ينفرد هو بالفتاة دون خاطبها . واتخذت إجراءات الزفاف بسرعة بالغة . وفي ليلة الزفاف ، هربت نازلي من قصر أبيها ، ولجأت إلى بيت خاطبها . وأخذ العاشقان يتنقلان من بيت إلى بيت هربا من جحافل السلطان التي جدت في البحث عنها . وأخيرا استسلم الشاب وأعاد مخطوبته ليلا إلى بيت أبيها لتزف في البحث عنها . وأخيرا استسلم الشاب وأعاد مخطوبته ليلا إلى بيت أبيها لتزف في البوم التالى عنوة واقتدارًا ـ إلى عظمة السلطان أحمد فؤاد . . وشاعت أنباء الحادثة في أرجاء مصر . . وسجلها بيرم التونسي في قصيدة مشهورة ، تدخل تحت باب الأدب ألفاضح أو الجارح ـ أو الهابط . . ودفع بيرم ثمن تطاوله نفيا وتشريدًا .

### نزاهة النحاس

وقع اختيار شوكت بك ، وكيل الأميرة نوجوان ، على المحامين الثلاثة : مصطفى النحاس ، ويصا واصف ، جعفر فخرى ، لرفع الدعوى لإلغاء الحَجْر المفروض على الأمير أحمد سيف الدين وتقرير نفقة سنوية له تتناسب مع ثروته الهائلة ومكانته العالية . . وحرر الوكيل مع المحامين الثلاثة عقدا بالأتعاب وطريقة دفعها ، وبدأ المحامون في ٢ فبراير ١٩٢٧ ، الإجراءات القضائية ، وسارت الدعوى سيرها الطبيعي أمام المحاكم .

ولكن القضية ، لم تكن كغيرها من آلاف القضايا التي تنظرها المحاكم ، فبطل القضية هو الرجل الذي حاول قتل الأمير أحمد فؤاد ، وأطلق عليه رصاصة استقرت في حلقه ، وسببت له عاهة مستديمة جعلته عاجزًا عن توضيح مخارج الحروف فيصدر عنه فحيح أشبه بالنباح .

لقد أصبح فؤاد ملكا على مصر ، ورأسا لعائلة محمد على ، فأنى له أن يصفح عن الرجل الذي حاول قتله ، وتسبب له فى كل هذه الأوجاع ؟! وهل كان له أن يتخافل عن هؤلاء المحامين ، ويغفر لهم جرأتهم ، عندما قبلوا الوكالة عن الرحل الذي حاول قتل الملك قبل ثلاثين عاما ؟! لم يكن فؤاد بالرجل الديمقراطى الذي يقدر معنى الواجب الإنسانى ، الذي يفرض على المحامى الوقوف إلى جانب موكله ليستخلص له حقه الضائع . . بل كان يرى فى القيام بهذا الواجب مساسا بذاته المصون . . ومن ثم بيت النية على الانتقام .

\* \* \*

وأخدت الأحداث السياسية الكبرى تختلط بالأمور الشخصية التافهة ، حتى

ليصعب على الناقد الفصل بينها . . في ذلك الوقت كان الائتلاف قائما بين الحزيين الكبيرين : الوفد صاحب الأغلبية الشعبية . والأحرار الدستوريين صاحب الأغلبية الأرستقراطية . كان الائتلاف وحسن التفاهم ، صيغة فرضتها الضرورة بعد الانتخابات العامة التي أجريت في ٢٥ مايو ١٩٢٦ وفاز فيها الوفد ـ للمرة الثائثة بأغلبية ساحقة ، لكن بات مفهوما أن الوفد لن يسمح له بتولى سلطاته الدستورية حسبها تقضى به التقاليد النيابية من تسليم مقاليد الحكم إلى صاحب الأغلبية . .

فعندما ظهرت نتائج الانتخابات ، تحركت بارجتان بريطانيتان نحو ميناء الإسكندرية ، إشارة إلى إصرار بريطانيا على منع سعد زغلول من العودة إلى كرسى الوزارة ، حتى لو كان شعب مصر يريد ذلك . . وتقبل الملك فؤاد إشارة الأسطول البريطاني سعيدًا مسرورًا . . فقد كان أبغض ما يتصوره عودة سعد \_ أو عودة الشعب ـ إلى المشاركة في شنون الحكم . وللخروج من هذه الورطة ، ولكي لا تتكرر مهزلة حل مجلس النواب مرة ثالثة ، تم الاتفاق على أن يتولى عدلى يكن رئاسة الوزارة. ويتولى سعد زغلول رئاسة مجلس النواب. وبعد أقل من عام استقال عدلى وخلفه عبد الخالق ثروب . وفي عهد وزارته انتقل سعد زغلول إلى جوار ربه . وتصور الأحرار الدستوريون ، أن موت سعد قد أزال من طريقهم خصما عنيدا ، وتوقعوا انفضاض الجهاهير من حول الوفد بعد غياب زعيمه الأكبر . . ولكن الشعب التف حول مصطفى النحاس بنفس القوة التي التف بها حول سعد . . وبويع النحاس خليفة وزعيهًا . . ثم انتخب بالإجماع رئيسًا لمجلس النواب ، فاجتمعت له زعامة الأمة ورئاسة المجلس النيابي . . ثم دخل ثروت في مفاوضات يائسة مع الحكومة البريطانية ، لحل المسائل المعلقة بتصريح ٢٨ فبراير . . فلما فشلت المفاوضات استقال ثروب ، فعهد الملك إلى النحاس بتشكيل أولى وزاراته في ١٦ مارس ١٩٢٨ فلم جلس النحاس على كرسى الوزارة ، رأى أن التقاليد القضائية تفرض عليه التنحى عن نظر القضايا التي كان موكلا فيها ، ومن بينها قضية سيف الدين وكتب النحاس خطابا إلى شوكت بك وكيل الأميرة نوجوان يخطره فيه بتنحيه عن الموكالة . . أما ويصا واصف الذي خلف النحاس في رئاسة مجلس النواب ، فقد عهد بمهمته في القضية إلى المحامى محمود بك بسيوني .

ووجد الأحرار الدستوريون أن سياسة الائتلاف مع الوفد لم تحقق لهم أغراضهم

فيد النحاس وإحدا بعد الآخر . . وحانت الفرصة للملك فؤاد للانتقام من وزارة النحاس وإحدا بعد الآخر . . وحانت الفرصة للملك فؤاد للانتقام من مصطفى النحاس عن طريق تلويث سمعته وتعريض نزاهته المعروفة للشكوك . . وبدأت المؤامرة الدنيئة بسرقة عقد الاتفاق المبرم بين المحامين الثلاثة والوكيل . . وعاولة إثارة الأقاويل حول فداحة الأتعاب التي تضمنها العقد . وأخلت المؤامرة طريقها إلى العلنية على وجه الصحف المعادية للوفد ، وفي شكل حملة تجريح لم يسبق لها مثيل ضد النحاس ، وهو لا يزال على رأس الوزارة . ففي يوم ٢٤ يونية ١٩٢٨ خرجت صحيفة « السياسة » تحمل العناوين الآتية : « مصطفى النحاس وويصا خرجت صحيفة « السياسة » تحمل العناوين الآتية : « مصطفى النحاس وويصا كما يسعى أحط الانذال لابتزاز أموال هذه الأسرة ابتزازا . . » وقالت « الأخبار » لصاحبها أمين الرافعي . . إلا إنه شرف النعال ، وإنها لكرامة الأوحال ، وإنها لكرامة الأوحال ، وإنها لأمانة المحتال ، وإنها لصيانة دستور الدجال . . ألا تخشى أن يتلطف معك صاحب الجلالة ويسألك أين استقالتك ؟ فيهاذا تجيب أيها النتن القذر . . ! » .

وصدقت نبوءة الصحيفة . وفي اليوم التالى انكشفت أبعاد المؤامرة . . فأصدر الملك فؤاد مرسوما بإقالة النحاس زعيم الأغلبية . وهكذا دبر ونفذ أشد الانقلابات الدستورية إسفافا ، وأفسدها ، أسلوبا . . وأحطها تعبيرا . . وأوى مصطفى النحاس إلى الظل ، ينتظر عدالة السماء ، لتقضى بينه وبين خصومه الألداء . . حتى بَرَّاه الله مما قالوا .

# اليدالحديدية

كشفت إقالة أول وزارة للزعيم مصطفى النحاس فى ٢٥ يونية ١٩٢٨ ، عن مؤامرة محبوكة شارك فى تدبيرها أصمحاب القصرين : عابدين والدوبارة ، بالإضافة إلى حزب الأحرار الدستوريين الذى كان مؤتلفا مع الوفد فى وزارة النحاس .

لم يكن هدف المؤامرة \_ فقط الإطاحة بوزارة النحاس ، وتلويث سمعة الرجل الثائر الذي عمل قاضيا ومحاميا ووزيرا ، فكانت نزاهته أبرز صفاته . وإنها كان الهدف أعمق ، وهو الانقلاب على الدستور ، وتصفية البرلمان ، ووضع البلاد تحت مظلة حكومة استبدادية ، ليس لها سند سوى تأييد القصر والإنجليز ، فأطلقت على نفسها اسم « اليد الحديدية » ، دلالة على انتهاجها العنف والقمع وكبت الحريات وتكسير فوانيس الديمقراطية . .

تلك كانت وزارة محمد محمود بأشا زعيم حزب الأحرار الدستوريين الذى كان وزيرًا فى وزارة النحاس ، ثم استقال بإيعاز من الملك ، حتى يترنح الائتلاف ويوجد مبرر أمام الملك لإقالة الوزارة بحجة تصدع الائتلاف . . وتلاقت إرادة المتآمرين الثلاثة : الأحرار والإنجليز والملك على تصفية الائتلاف . بعد أن فشل كل طرف فى استثاره لمصلحته الخاصة .

أما الأحرار الدستوريون ، فقد أرادوا من الائتلاف أن يهيئ لهم فرصة الاستيلاء على تراث الوفد ، بعد رحيل زعيمه الأكبر سعد زغلول . وكان ظنهم أن شخصية مصطفى النحاس ، لن تسد الفراغ الهائل الذي تركه سعد . ولكن النحاس خيب فألهم . . وكشف عن شخصية عنيدة صلبة يصعب أكلها ، ومن ثم تبخرت آمال الأحرار في تعويض ضعفهم الشعبى ، عن طريق هز شعبية الوفد ، فاتجهوا إلى فض

الشركة حتى ينفردوا بالحكم ولو على جثة الدستور الذى ينتسبون إليه اسها وتاريخا . . ولكنهم انقضوا عليه طمعا في السلطة .

أما الإنجليز ، فقد وقعوا فى نفس الشرك الذى وقع فيه الأحرار بالنسبة لشخصية النحاس ، وظنوا أنه سيكون أقل صلابة من سعد ، وأكثر استعدادًا منه لقبول العروض البريطانية ، لعقد معاهدة تحدد علاقة مصر بإنجلترا . . ولكن النحاس لم يكن أقل صلابة من سعد . ولم يكن لديه أدنى استعداد للتهاون فى حقوق مصر القومية . . وتعمد لويد جورج المندوب السامى - أن يقدم للنحاس نفس العروض التى سبق أن رفضها النحاس ، عندما عرضها عليه عبد الخالق ثروت فى الوزارة السابقة . وكان معنى ذلك الإطاحة بحكومة النحاس الائتلافية ، وتشكيل وزارة أقلية تكون أكثر ليونة .

وأما الملك ، فقد قبل صيغة الائتلاف بين الوفد والأحرار لأن سعد زغلول ارتضاها . . أما وقد مضى سعد إلى جوار ربه ـ فلا محل لبقاء الائتلاف ، ولا معنى لبقاء النحاس شوكة في حلق الملك مثل الرصاصة التي أطلقها عليه سيف الدين ومن ثم تولدت الرغبة في العدول عن الحكم النياسي والعودة إلى الحكم المطلق عن طريق وزارة ( اليد الحديدية ) ، التي استفتحت عهدها بتعطيل البرلمان لمدة شهر قامت خلاله بحملة دعائية غوغائية ضد الدستور والحياة النيابية ، وتسميم المناخ الديمقراطي ، والزعم بأن الشعب المصري لا يصلح للحياة البرلمانية ، ولا يستحق الدستور ، وأن الأغلبية تمارس الاستبداد ، من هنا ظهر تعبير ( طغيان الأغلبية ) الذي ورد كثيرًا على لسان الدكتور هيكل باشا . وقبل نهاية الشهر ، استصدرت الوزارة أمرًا ملكيا بحل مجلسي النواب والشيوخ ، لمدة ثلاث سنوات ، حتى تتهيأ للوزارة فرصة العمل في هدوء !!

وهكذا تحت وقائع الانقلاب الدستورى الثالث ، خلال خس سنوات ، هى عمر الحياة الدستورية المصرية ، وتم حل البرلمان للمرة الثالثة ، ولم يتجاوز عمره سنتين وبضعة أيام ، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحكم الاستبدادى بقيادة الملك أحمد فؤاد ، وبرعاية المندوب السامى البريطاني . . أما أداة الانقلاب فكانت الأحرار الدستوريين . . وبدأ محمد محمود سياسة القمع والإرهاب بتعطيل الصحف

اليومية ومنع الاجتهاعات السياسية ، وفتحت السجون أبوابها لتستقبل أحرار الساسة والكتاب والصحفيين . واستدار الملك لينتقم من مصطفى النحاس ورفيقيه ويصا واصف وجعفر فخرى ، لقبولهم الوكالة عن الأمير سيف الدين . واستحكمت حلقات الانتقام بتقديمهم إلى النيابة ، ومنها إلى المحاكمة التأديبية ، في ظل حملة غوغائية شرسة لتلطيخ سمعة مصطفى النحاس ، ووقف مكرم عبيد المحامى مدافعا عن رفيق جهاده مصطفى النحاس . موجها الكلام إلى القضاة :

العندما بدا للنيابة ، أو أبدى لها ، أن ترفع هذه الدعوى التأديبية وجاءنا نبؤها كنت مع صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا ، وأتيح لى أن أتبين أثر ذلك النبأ السيئ فى نفسه قبل أن أتبينه فى نفسى ، فرأيته يضحك من خصومه ويهزأ بأساليبهم . . ولولا بريق فى عينيه ، وهزة فى صوته دلت على كمين جرحه وثورة فى نفسه . لظننت أن شعوره كان مقصورًا على عدم المبالاة والازدراء . . ولكن مصطفى النحاس الذى عُبئت جميع القوات لمحاربته ، وشُحد كل سلاح ونُبشت كل قاذورة ، إما للنيل من شجاعته ، أو من كرامته ، هذا الرجل ما كان خصومه ليعبئوا بمقاتلته إذا لم يكن مقاتلا ، أو يجمعوا جموعهم لمناضلته إذا لم يعرفوا فيه مناضلا ، ولذلك لم يدهشنى أن رأيته يستبشر بتلك المعركة النهائية الحاسمة بين حقه وباطلهم ، وأن يعد لها العدة ، لا من صحيفة الاتهام ، بل من صحيفة نفسه الطاهرة » .

## حادث سرقة!

فور تعيين النحاس باشا رئيسا لمجلس الوزراء في ١٦ مارس ١٩٢٨ ، بادر إلى التنازل عن الوكالة في قضية الأمير سيف الدين ، وبعث إلى شوكت بك وكيل الأمية نوجوان ، أم سيف الدين ، إخطارًا بتنحيه عن نظر القضية . . لقد فعل النحاس ما يمليه عليه ضميره ، وما تفرضه مقتضيات الأمانة والشرف ، فلم يكن مقبولا ولا معقولا أن يستمر ـ وهو رئيس الوزراء ـ في محارسة مهنة المحاماة ، وتصور الرجل الطيب أن الأمر انتهى عند هذا الحد . . ونسى أن الخير قد ينام مطمئنًا ، ولكن عيون الشر لا تنام ، وأن أبناء إبليس يتحركون في الظلام يدبرون له المكائد والدسائس، ويبحثون عن كل نقيصة لتلويث سمعة رجل كان كل رأسهاله الشرف والنزاهة . . ولم يتورعوا في سبيل تحقيق مأربهم عن ارتكاب جرائم تماثل تلك التي نراها في القصص السينهائية .

### \* \* \*

قبل أسبوع من تعيين النحاس باشا ، وقع بالإسكندرية حادث سرقة تافه في مظهره ، خطير في مغزاه وأبعاده ، كان جعفر بك فخرى المحامى وشريك النحاس وويصا واصف في الوكالة عن سيف الدين ، يقضى مع أسرته إجازة بالقاهرة . وترك بيته في حراسة الخدم بعد أن أحكم إغلاق النوافذ ، ولكن في صبيحة ٨ مارس بيته في حراسة الخدم أن إحدى النوافذ مفتوحة على مصراعيها ، فأبلغوا مكتب جعفر بك ، فخف إليهم بعض المحامين العاملين بالمكتب ، ودخلوا إلى المنزل عبر النافذة المفتوحة ، فاكتشفوا أنها مكسورة من الداخل ، ثم تفقدوا أثاث البيت فوجدوه سليها من كل عبث فأطمأنوا وأقفلوا النافذة وأخطروا جعفر بك تليفونيا

بالأمر ، فاطمأن لما علم بأن شيئًا من التحف الثمينة لم يُسرق . . فلما عاد إلى بيته بعد بضعة أيام ، تبين له بعد البحث الدقيق فى غرفة المكتب ، أن سرقة قد وقعت بالفعل ، وأن السرقة قد اقتصرت على مستندات خاصة تتعلق بقضية سيف اللين أهمها عقد الاتفاق المبرم بين المحامين الثلاثة وشوكت بك وكيل الأميرة . . واتهم جعفر بك طباخ البيت بالسرقة فقبض عليه وسيق إلى النيابة للتحقيق ، وقد صحب معه أحد المحامين العاملين في دائرة الأمير سيف الدين ، نما يقطع بأن الدائرة كانت على علاقة بحادث السرقة ، وإن لم يكن الطباخ هو السارق الفعلى . . فقد تبين بعد ذلك أن اللص هو كاتب في مكتب جعفر بك ، خان سيده لحساب المتآمرين الكبار.

### \* \* \*

وانتهى الفصل الأولى من هذه الكوميديا السوداء ، بالإفراج عن الطباخ لعدم كفاية الأدلة ، وبقيت المستندات المسروقة مخفية في انتظار الوقت المناسب لنشرها في شكل فضيحة تحط من كرامة المحامين الثلاثة ، على أساس أنهم اتفقوا مع الوكيل على أتعاب باهظة مقابل العمل على رفع الحمر عن الأمير أمام مجلس البلاط ، وأنهم استغلوا نفوذهم السياسي للتأثير على الوكيل .

وجاء الوقت المناسب لتفجير القضية ، عندما فقد الإنجليز الأمل في تعلويع إرادة مصطفى النحاس ، وجمله على قبول عروضهم لعقد اتفاق ينظم العلاقة بين مصر وإنجلترا . وأضاء الإنجليز النور الأخضر للملك فؤاد للتخلص من النحاس – زعيم الأغلبية الشعبية . . !! \_ فأوعز بدوره إلى الوزراء التابعين لحزب الأحرار الدستوريين ، كي يستقيلوا ، فيتصدع الائتلاف الوزاري ويقال النحاس .

وقبل الإقالة بيومين ، فوجئ الناس بالمستندات المسروقة منشورة فى الصحف الموالية للقصر ، وفى جريدة الأهرام ، وسط سيل من الشتائم والقاذورات الموجهة إلى شخص مصطفى النحاس ، واتهامه بالنصب والاحتيال والرشوة واستغلال النفود وإن كان الهدف الحقيقى منها هدم الدستور وتحقير الحياة البرلمانية وإقناع الرأى العام بعدم جدوى النظام النيابى ، والربط المتعمد بين قضية الوثائق المسروقة وقضية بعدم جدوى النظام النيابى ، والربط المتعمد بين قضية الوثائق المسروقة وقضية الديمقراطية فى مصر . . فتحت عنوان « مساكين » قالت صحيفة « السياسة » لسان

حال الأحرار الدستوريين في ٢٥ يونية ١٩٢٨ : ﴿ إنهم يتآمرون بالوطن وحقوقه حرصا منهم على البقاء في الحكم ، لينصبوا وليسرقوا وليرتشوا وليفعلوا ذلك كله بالوثائق موقعة بأسائهم ، وقعوها في غير خجل ولا حياء . . » إلى أن قالت : «دعك من أنهم لا يقدرون شيئًا اسمه الشرف ولا الكرامة ، فليس يطلب إلى الناس جميعا أن يكونوا ذوى شرف وكرامة ، ما دام في الناس مجرمون بالفطرة يستحقون أن يتخلص المجتمع منهم تخلصا حاسما » .

#### \* \* \*

وما هو إلا يوم أو بعض يوم ، حتى تكشف الهدف الأعمق من إثارة قضية سيف المدين ، وتلويث سمعة النحاس وزميليه . فقد عهد الملك إلى محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار المستقيل من وزارة النحاس بتشكيل الوزارة الجديدة . . فعطل البرلمان لمدة ثلاث سنوات بحجة أن الفساد قد دب فيه فاستحق التعطيل . . وقال في حديث مع مراسل صحيفة شيكاغو تريبيون ونشرته الأهرام : ﴿ إن البرلمان عندما يصير مشوبا بالفساد ، لا يعود دستوريا . . وهذا هو البرلمان الذي عطلته ، فقد كان زعهاء البرلمان الماضي ، يتاجرون بمناصبهم العالية . . » .

\*\* فهل صحيح أن النحاس تاجر بمنصبه العالى . . ؟؟!

\*\* ألم يتنازل الرجل عن وكالته في القضية وتنحى عن النظر فيها فور تعيينه رئيسًا للوزراء . . ١٩٢

ولكنها الأحقاد السياسية والضغائن الحزبية ، التى دفعت خصوم النحاس إلى التغاضى عن مسالك الحق . . وارتكاب أساليب الفحش من أجل الإطاحة بالرجل وتلطيخ صورته في عيون الجهاهير ، التي تحبه وتثق بنزاهته وأمانته وشجاعته . .

﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ صدق الله العظيم .

# أمسير في المنفسي

سبعة وعشرون عاما ، قضاها الأمير سيف الدين ، حبيس السجن واليأس والضياع بسبب رصاصة طائشة أطلقها على زوج أخته الأمير أحمد فؤاد ، منها سنتان عاشهما في أحد السجون المصرية ، أما ربع القرن الذي امتص عصارة حياته ، فقد قضاه منفيا في إحدى المصحات العقلية في قرية تقع بالقرب من لندن عاصمة الإمبراطورية البريطانية ، وهي فترة كانت كفيلة بتدمير قواه العقلية والجسمانية والنفسية ، حتى تحول إلى كائن سقيم .

وكانت عملية إبعاد الأمير سيف الدين من سجنه المؤقت في مصر ، إلى منفاه المؤبد في بريطانيا عام ١٩٠٠ تحت ستار العلاج ، قد تمت من خلال مؤامرة دنيئة من مؤامرات القصور التي كانت شائعة في ذلك العصر ، وشاركت فيها القوى الحفية التي كان يهمها الحلاص من الأمير الثرى الأهوج ، حتى يخلو لها الجو لاستلاب ثروته الطائلة التي قدرت يومئذ بعشرة ملايين جنيه ، ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم في تلك العارات الشامخة بشارع قصر العينى ، وفي العارات المتكررة القائمة على أرض خان الحليل ، ولا تزال أبوابها الحديدية تحمل اسم : سيف الدين .

ولقد تم تنفيذ المؤامرة وفق خطوات محسوبة ، بدأت باستصدار حكم بتوقيع الحجر عليه ، حتى يحرم من التصرف في أمواله . وكانت الخطوة الثانية إبعاده عن مصر نهائيًا ، ووضعه في مكان سحيق يقضى فيه بقية عمره . . وعلمت أمه الأميرة نوجوان ـ وكانت تقيم بصفة دائمة في تركيا ـ بها يدبر لابنها في الخفاء ، فكتبت إلى اللورد كرومر ، مستنجدة ومحذرة ، ليقطع على المتآمرين سعيهم ، ووعدها اللورد بها أثلج صدرها ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى وقع ما خشيته الأم ، وتمكن علية

القوم من تنفيذ مخططهم ، ولم يتحرجوا من ارتكاب التزوير لتنفيذ مسعاهم . . فحاءوا بإحدى أميرات البيت المالك ، فانتحلت لنفسها صفة أم الأمير ، وحررت التهاسا إلى حكومة الخديو عباس حلمى تطلب فيه نقل ابنها \_ المزعوم \_ من سجنه ليلقى الرعاية والعلاج في مصحة ( تايسهرست ) في بريطانيا ، واستجابت الحكومة لطلب الأم المزيفة ، وتم بالفعل نقل الأمير إلى منفاه السحيق دون أن تدرى أمه الحقيقية بها جرى له .

وبدأت الأم المنكوبة ، نوجوان ، رحلة البحث عن ابنها الضائع في المدن الأوربية ، حتى عرفت المكان الذي وضع فيه . وفي عام ١٩٢٤ ، طلبت الأم رؤيته، فرفضت إدارة المصحة ، وقالت لها إنها لا تعرف له أما غير الأم التي طلبت إدخاله المصحة ، ولجأت الأم إلى أحد كبار المحامين الأتراك ، اسمه جلال بك عارف ، كان سفيرًا سابقا لتركيا في روما ، فانتقل إلى بريطانيا ، وقابل رئيس الوزراء رامزي مكدونالد ، وعرض عليه مأساة الأم المحرومة من لقاء ابنها . . وقضية الأمير المسجون رغم أنفه . . ولكن إدارة المصحة أظهرت له نص الطلب الأصلى الذي تقدمت به الأم المزيفة لعلاج الأمير ، ويحتوى على أمر صريح منها يحظر على الأمير مقابلة أى إنسان . . ! وبالرغم مما ينطوى عليه هذا الطلب من ريبة ، فقد التزمت به إدارة المصحة ، عما يدل على أنها كانت متواطئة مع المتآمرين . . ومع ذلك تمكن المحامى من لقاء الأمير سيف الدين عن طريق الرشوة ، فوجده شيخا دب فيه الضعف والوهن ، وحصل المحامي على تقرير من الحارسين المكلفين بحراسته فالا فيه : كان الأمير عند دخوله المصحة في حالة طيبة للغاية ، واستمرت هذه الحالة خمس أو ست سنين ، وكان محبوبا من الجميع ، وقد بدأ الاضطراب العقلي بعد ذلك، من جراء التضييق عليه ، ولأنه كان محروما من الاختلاط الجنسي ، ولأن حياته كانت متشابهة جملة ، ولأنه كانت تعطى له كمية هائلة من الخمر والدخان . . الأمر الذي يكشف عن رغبة مبيتة لتدمير الرجل.

وعندما اطلعت الأم البائسة على حالة ابنها ، جن جنونها ، وأصرت على تحريره ليقضى ما بقى من عمر فى حضانتها ، واستخدمت سلاح الرشوة ، حتى تمكنت من تهريبه إلى تركيا فى أغسطس ١٩٢٥ . وهناك أتبحت له رعاية طبية مكثفة

لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقايا عمره الضائع ، وأرادت الأم أن تستخلص ثروته التي تكالب عليها النهابون ، فأوفدت وكيلها محمد شوكت بك إلى مضر ليرفع قضية أمام المحاكم المصرية ، يطلب فيها رفع الحجر عن الأمير سيف الدين ، وتقرير نفقة شهرية من أمواله المجمدة تتناسب مع مكانته الاجتماعية ، ووقع اختيار الوكيل على ثلاثة من مشاهير المحامين ليباشروا القضية ، أما أول هؤلاء المحامين فكان حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا ، وكان الثاني ويصا بك واصف ، وكان الثالث جعفر بك فخرى ، وأما عن سبب اختياره لهؤلاء المحامين الثلاثة من دون خلق الله ، فقد قال : لمعرفتي لأهمية القضية أردت أن أنتخب أناسا أصحاب علم غزير وقوة دفاع ، وشجاعة مدنية ، وأصحاب ذمة طاهرة ، ولهذه الأسباب انتخبت صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا لكونه صاحب هذه الصفات كلها وصاحب الشجاعة المدنية ، صحيح والله . . ما شفتش في عمري إلا إميل زولا في فرنسا ومصطفى النحاس باشا في مصر . . فهما الاثنان اتهما النيابات في القوة المستبدة بقولها: إنى اتهم . . وده وجه مشاجتها لبعض . فترجيت من حضرة رئيس النيابة إذا كان لديه معرفة بالشخص الثالث اللي يهاثلهما في الشجاعة المدنية حتى أفتخر به بصفتي إنسانا ، وإنتخبت ويصا وإصف بك لعلمه الغزير وطهارة ذمته ، وإنتخبت جعفر فخرى بك أولا لمعرفته باللغة التركية ، وثانيا لمعرفتي بهاضيه الشريف .

ولكن هذا الاختيار كان سببا في ابتلاء المحامين الشرفاء وتعريضهم لأبشع أنواع الانتقام.

### بسراءة

كان المنتظر \_ وقد ظهرت المستندات المسروقة من بيت المحامى جعفر بك فخرى منشورة في الصحف \_ أن تبادر النيابة العامة إلى إعادة التحقيق في جريمة السرقة للتوصل إلى الفاعل بعد أن ظهر جسم الجريمة ، ولكن النيابة سكتت سكون أهل الكهف . . عندئذ ، تقدم جعفر بك إلى النيابة طالبا التحقيق . مرة أخرى ، لم تتحمس النيابة ، للبحث عن اللص لأنها كانت تعرفه وتعرف القوى الجبارة التي تقف خلفه . واكتفت النيابة بسؤال مديرى صحيفتى الأخبار والسياسة ، عن كيفية حصولها على الوثائق المسروقة ، فاحتمى كل منها وراء ( سرية المهنة ، . فأبلغ جعفر فخرى النائب العام بأن الاحتماء وراء سرية المهنة هو تضليل ، الهدف منه إعانة المتهم على الهرب من وجه العدالة . ومرة ثالثة ، لم تحرك النيابة ساكنا ، مما دفع مكرم عبيد المحامى إلى نقد موقف النيابة نقدا لاذعا . . واعتبره تقصيرًا معيبا في وقعدت ، وقتشت جميع المطابع والمحال القريبة والبعيدة للبحث عن ذلك المنشور وقعدت ، وفتشت جميع المطابع والمحال القريبة والبعيدة للبحث عن ذلك المنشور ولو لم تكن عناصر الإجرام متوفرة ، أما والجريمة ظاهرة والدليل ملموس ، فالنيابة لم تتحرك ، بينها تجهد نفسها في تحقيق المفتريات ضد النحاس وزميليه ، وتنتقل من بلد تتحرك ، بينها تجهد نفسها في تحقيق المفتريات ضد النحاس وزميليه ، وتنتقل من بلد تتحرك ، بينها تجهد نفسها في تحقيق المفتريات ضد النحاس وزميليه ، وتنتقل من بلد عسى أن تصل إلى دليل أو شبهة إدانة .

واختتم مكرم عبيد هذا الشق من دفاعه بهذه العبارة البليغة في قسوتها : حقا إن عدالة النيابة في هذه القضية عدالتان . . وإذا كانت هناك عدالتان فلا عدالة بالمرة . . !

كان هذا موقف النيابة من قضية سرقة الوثائق . . أما موقفها من حملة السباب

والقذف في حق الزعيم مصطفى النحاس ، فقد كان أدهى وأمر . . لقد تقدم النحاس باشا ببلاغ إلى النيابة ضد الصحف التي وجهت إليه أقدع التهم وأشنعها وأحطها . . ومع ذلك حفظت النيابة التحقيق بالنسبة للقاذفين ، وقدمت النحاس وزميليه إلى المحاكمة التأديبية . وهم ضحايا القذف والسب . . !! وكان هذا الموقف من النيابة من أغرب المواقف في تاريخ القضاء المصرى . وارتكنت النيابة في قرار الحفظ إلى أن الوقائع المنسوبة للنحاس باشا وزميليه صحيحة ، وأن ما يشكون منه فقط ـ هو التعليق عليها . . وارتكنت أيضا إلى أن الأحكام القضائية تبيح نقد الخصوم السياسيين .

وانبرى مكرم عبيد لتفنيد حجج النيابة ، فقال إن الطعن في هذه القضية ليس موحها إلى الخصوم السياسيين بوجه عام ، بل إلى أشخاص معينين بالذات ، هم النحاس وزميلاه . ولذلك فالألهاظ الموجهة إليهم تعتبر من قبل الإهانة والسب . وإذا كان النقد مباحا في النظم الديمقراطية ، إلا أنه يجب أن يبصب على العمل دون غيره . ثم تساءل : فأين هذا من تعليق الصحف على الوثائق المسروقة ؟! هذا التعليق لم يتناول العمل ، بل تناول الأشخاص ، وجاء بعيدا عن الاعتدال والإخلاص اللذين جعل منها القانون شرطا أساسيا في النقد ، لا يمكن أن يكون منه أن ينسب إلى المطعون عليهم أنهم نصابون ومرتشون ومجرمون بالفطرة وأحط الأنذال . قذرون . . ونتنون ؟ إنه بذلك لا ينقد عملهم أو سياستهم . . ولكنه طعن في الشرف والأمانة بأجلي معانيه . . ولو قلنا بأن هذا نقد مباح ، لفسد الجو الذي نعيش فيه وأصبح جو شتائم وسباب !!

ونهض مكرم عبيد لتفنيد تهمة استغلال النهوذ السياسى التى وجهتها النيابة إلى النحاس وزميليه فقال: إن الاتهام لا يحدد كيفية استخدام النفوذ ، بل يتهرب من التحديد عمدا بحجة أن هذا التحديد لا يهم الاتهام!! وتساءل مكرم عبيد: ما هذا المزل في قالب الجد؟! هل من المعقول أن توجه إلى متهم تهمة عائمة حائرة لا تستقر على حال ، حتى إذا سد الدفاع بعض الأبواب استفتح الاتهام أبوابا أخرى ؟! وهكذا دواليك إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا . .

ولم يكن مكرم عبيد باشا هو المحامى القدير الوحيد في هذه القضية المثيرة ، وإنها

كان يعمل ضمن فريق من فطاحل المحامين تطوعوا للدفاع عن زعيم الوفد وزميليه هم : محمد نجيب الغرابلي باشا ، وحسن صبرى باشا ، ومحمود بك بسيوني وكامل بك صدقى ، وانبرى كل منهم للرد على جانب من جوانب الاتهام ، وشغلت مذكرات دفاعهم أكثر من ألف صفحة ، كانت في مجموعها شهادة فخار وتمجيد لمصطفى النحاس ، وبيانا لسلوكه البعيد عن مواطن الشبهات .

وفى يوم ٢ فبراير ١٩٢٩ ، انتهت إجراءات المحاكمة . وانعقد مجلس تأديب المحامين ، المنبثق عن محكمة استئناف مصر الأهلية برئاسة حضرة صاحب المعالى حسين درويش باشا ، وكيل المحكمة ، وبحضور حضرات أصحاب العزة عبد الحكيم عسكر بك ، ومحمود سامى بك ، ومحمد بهى الدين بركات بك المستشارين بالمحكمة ، وعبد الخالق عطية أفندى عضو نقابة المحامين وأحمد شرف الدين بك رئيس نيابة الاستئناف ، وأحمد عوض الشاذلي أفندى سكرتير المجلس . وأصدر المجلس حكمه التاريخي ببراءة كل من :

- \* حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا.
  - \* ويصا واصف أفندى رئيس مجلس النواب .
    - # جعفر فخرى بك المحامى .

وأسدل الستار على هذه القضية التي شغلت الرأى العام ، لكثرة ما استخدم فيها من فنون الدس والتآمر والتلفيق والسب القذف ، ومع ذلك لم تفلح كل هذه الأساليب الدنيئة في إطفاء نور الحق . . ولم تنل من سمعة النحاس بأكثر مما تنال ويح السموم من المعدن الأصيل . . ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوة الله العظيم .

# في خندق الشعب

كان مصطفى النحاس من الزعماء القلائل الذين اعتنقوا الديمقراطية فكرًا وسلوكا . لدرجة يصعب معها الفصل بين أفكاره وبمارسته العملية . فكان يقول ما يفعل ، ويفعل ما يقول ، وهو في هذا يختلف عن طراز من السياسيين المصريين كانوا يتغنون بالديمقراطية ، ما دامت الديمقراطية تعود عليهم بالمغانم ، ويتغزلون في عظمة الشعب بشرط أن يدفع بهم إلى السلطة ، ولكنهم سرعان ما يتنكرون للديمقراطية إذا حالت بينهم وبين الحكم ، وسرعان ما يسبون الشعب إذا حجب ثقته عنهم ، ولا يتورعون عن الانضام إلى صفوف أعدائه وفرض الوصاية عليه بحجة أنه قاصر . . ومضلل . . ولا يعرف مصلحته .

كان مفهوم الديمقراطية ، عند مصطفى النحاس ، بسيطا لا تعقيد فيه ولا فللكة ، إنه يعنى الاحتكام إلى الشعب ، واحترام إرادته ، واحترام مبادئ الدستور التي تنظم السلطات العامة ، وتنص على أن الأمة ـ وليس الملك ـ مصدر السلطات. وكان الخروج على الدستور أو انتهاك أحكامه ـ كبيرة الكبائر التي لا تغتفر ولا تقبل التساميح عند مصطفى النحاس ، ولذلك كانت حياة النحاس السياسية سلسلة من المعارك والحروب الشرسة مع أعداء الدستور وأذناب القصر وأنصار الحكم المطلق، وجميع القوى الرجعية والفاشية التي أرادت أن تجعل من الدستور مجرد ديكور مستورد من بلاد الفرنجة ، يرضى أحلام المثقفين المفتونين بنظم المكم الغربية ، ولكنه ـ في النهاية ـ يعنى استمرار الحكم الأوتوقراطي الموروث عن عصر الأغوات .

من أين اكتسب مصطفى النحاس هذه النزعة المتشددة في احترام الدستور

والقانون والانحياز إلى الكتلة الشعبية العريصة ؟ هل تعود إلى سليقته التى فطرت على عشق الحرية والنفور من الاستبداد ؟ ربا . . هل تعود إلى نشأته القانونية محاميا وقاضيا ؟ ربها . . هل تعود إلى جذوره الاجتهاعية الممتدة فى الشريحة الوسطى من السبيكة المصرية الخالصة ؟ يجوز . . على أية حال كان مصطفى النحاس ظاهرة فريدة فى تاريخ مصر بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ . . وشاء حظ مصر الطيب أن يظهر مصطفى النحاس على هذه الصورة المتشددة فى التمسك بحق المصريين فى يظهر مصطفى النحاس على هذه الصورة المتشددة فى التمسك بحق المصريين فى إدارة شئونهم عن طريق حكومة مسئولة أمام برلمان منتخب . . وشاء حظ النحاس العاثر أن يعاصر الحلقات الأخيرة من سلالة الأسرة العلوية ، وهى تدخل مرحلة الاحتضار وتحارب معركة البقاء ، وتدافع عن وجودها الاستبدادى فى مواجهة الاحتضار وتحارب معركة البقاء ، وتدافع عن وجودها الاستبدادى فى مواجهة الشعب المصرى ، وهو يتلمس طريق الحلاص والفكاك . .

فالملك فؤاد كان يعطوى على بغض دفين للديمقراطية ، ويرث عن آبائه احتقارا خسيسا للشعب المصرى . وفي خلال السنوات الست الأخيرة من حكمه ، وهي الفترة التي شهدت مولد الحياة النيابية بعد دستور ١٩٢٣ ، استخدم هذا الأوتوقراطي العريق حقه في حل مجلس النواب بكثرة لم يشهدها إطلاقا تاريخ الدساتير . . فقد بلغت مرات الحل أربعا، ، انتهت بإلغاء الدستور نفسه .

أما فاروق - الغلام العنيد الأحق - فقد ورث عن أبيه كراهة الدستور ومصطفى النحاس ، ولذلك قضى النحاس - زعيم الأغلبية الشعبية - ما مجموعه عشر سنوات، بعيدًا عن حقه الدستورى في الحكم ، خلال عهد فاروق الذي بلغ ١٦ سنة ، وكانت سنوات الغيبة العشر من نصيب أحزاب الأقلية وأذناب القصر الذين استخدمهم فاروق في انتهاك الدستور والمشاركة في حكومات لا تحظى بثقة الشعب.

\* \* \*

كان مصطفى النحاس يرى رفاق النضال القديم ، وقد تقطعت أنفاسهم من طول الكفاح ، فيضعفون أمام وهج السلطة الزائف ، ويتساقطون في مستنقع القصر ويتحولون إلى أدوات في يد الملك يلهب بهم ظهر الشعب ، ثم لا يلبث أن يلفطهم

لفظ النواة . . ويبقى مصطفى النحاس \_ وحده \_ فى الميدان . . تتناوشه السهام فلا يساوم . . ولا يضعف . . ولا يبيع ثقة الشعب برضاء الملك . . كان يقف فى خندق الشعب غير عابئ بمجد زائف أو سلطة زائلة . . فالوقوف مع الشعب هو ذروة الفلاح للزعيم الصادق . . وكان مصطفى النحاس زعيما حقيقيًا يعرف موقعه جيدًا .

## انقلابات دستورية

فى الأول من يناير ١٩٣٠ ، شكل الزعيم مصطفى النحاس وزارته الثانية ، بعد انتخابات حرة أجراها المرحوم عدلى يكن باشا ، وأسفرت عن فوز الوفد فوزًا ساحقًا إذ حصل على ٩٠٪ من مقاعد مجلس النواب .

كانت تلك رابع انتخابات عامة تشهدها البلاد منذ دستور ١٩٢٣ ، وجاءت لتحمل الوفد إلى موقعه الطبيعى في الحكم بعد الانقلاب الثالث في سلسلة الانقلابات الدستورية التي دبرها الملك فؤاد للتخلص من حكم الشعب ، وتعطيل الحياة البرلمانية ، وإسناد الوزارة إلى أشخاص لا يتمتعون بثقة الشعب ، ولا يؤمنون بحقه في حكم نفسه ، ويضعون أنفسهم في مكان الوصى على الشعب ( القاصر ) في نظرهم ، ويظنون أن مهارتهم وكفاءتهم الذاتية ترجحان قوة الشعب .

أما الانقلاب الأول ، فقد وقع أثناء حكم وزارة الشعب الأولى برياسة سعد زغلول عام ١٩٢٤ . فقد استغل الملك فؤاد حادث مصرع السردار واستقالة الحكومة ، فأمر بحل مجلس النواب ، حتى يتهيأ الجو أمام أحمد زيور للعبث بمقدرات البلاد في غيبة الرقابة البرلمانية ، ووقف الزحف الشعبي الذي ظهر جليا في أولى برلمان منتخب . . فقد كان برلمان ١٩٢٤ أول مظهر نظامي لبروز سلطة الشعب كقوة مؤثرة في الحكم ، بل القوة الوحيدة التي لها حق الحكم ، الأمر الذي رأى فيه المؤرخون تطورًا عميقا دل على أن الشعب نها نموا كبيرا ، وأضحى على الرغم من كل القوى التي حاربته القوة الأولى المرهوبة الجانب .

ولكن . . هل كان من المكن أن يستمر هذا النمو كي يأخذ مداه ، وتترسخ به

سلطة الشعب ؟ وهل كان من المكن أن تتواصل قوة الفئات الشعبية مع قوة الزعامة الشاخة التي خرجت من صفوف الفلاحين عمثلة في سعد زغلول ؟؟

لقد أجابت الحوادث عن هذا السؤال ، من خلال أول انقلاب دستورى دبره الملك ، بإيعاز من الإنجليز ، وبالتواطؤ مع كبار ملاك الأراضى ، اللين حسبوا أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية ثم خللم الشعب في الانتخابات .

ووقع الانقلاب الثانى فى العام التالى ، عندما أجرى أحمد زيور باشا الانتخابات العامة بعد مؤامرات واحتياطات وتداخلات أشرف على حبكها قطب الدهاء والديكتاتورية إسهاعيل صدقى وزير الداخلية ، وكانت كلها تهدف إلى إبعاد الوفد عن قيادة الأمة ، ثم فوجئ مدبرو الانقلاب بأن المجلس الجديد يضم أغلبية وفدية انتخبت سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب ، وتبين أن ذكاء الشعب ودقة تنظيم الوفد يفوقان دهاء صدقى ، ولم يخجل أصحاب الانقلاب الأول ، من تنفيذ انقلابهم الثانى ، فأصدر الملك فؤاد مرسوما بحل مجلس النواب بعد تسع ساعات من انعقاده ، واستمرت البلاد تحت حكم وزارة غير شرعية تحكم دون سند دستورى ودون تأييد من الشعب .

أما الانقلاب الثالث فقد وقع في صيف ١٩٢٨ ، بعد ثلاثة شهور فقط من تشكيل النحاس باشا وزارته الأولى . . كان الصراع بين الفئات الشعبية بقيادة الوفد والعناصر الأرستقراطية بزعامة القصر قد بلغ أشده ، ولم يكن هذا الصراع السياسي في رأى بعض المحللين التاريخيين \_ إلا انعكاسا حقيقيا للصراع بين طبقتين على النفوذ:

\* طبقة الأعيان من أصحاب الأملاك الواسعة التي تحدث باسمها لطفي السيد في الجريدة منذ أوائل القرن ، وهي التي تعتقد أنها طبقة أصحاب المصالح الحقيقية التي يجب أن يستقر في يدها الحكم لرعاية هذه المصالح .

\* البورجوازية المتوسطة والصغيرة التي نمت في ظل ثورة ١٩١٩ ، وفي ظل النهضة الاقتصادية التي قامت على يد طلعت حرب وبنك مصر ، وهي الطبقة التي قوامها التجار والشباب المتعلم ومفكرو المدن وموظفو الحكومة وضباط الجيش

يؤيدهم الفلاحون والعمال بحكم مصلحتهم فى تأييد الوفد ، وكان بضال الوفد من أجل الاستقلال التام والتخلص من الحكم الأجنبى وإصراره على التمسك بحق الانتخاب المباشر ، يتلاقى مع أهداف هذه الطبقة الجماهيرية فى الاشتراك فى الحكم عن طريق النواب .

\* \* \*

ونجح التحالف بين القصر وحزب الأعيان (الأحرار الدستوريين) في الإطاحة بحكومة النحاس ، بعد حملة تشهير مبتذلة ، اتخذت من قضية الأمير سيف الدين مادة لتلويث سمعة مصطفى النحاس ، وعهد الملك فؤاد إلى محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار الدستوريين بتشكيل وزارة استهلت حكمها بحل مجلس النواب حتى تنفرد بالشعب ، وأطلق محمد محمود على وزارته اسم « اليد الحديدية » إعلانا عن انتهاجه أسلوب العنف في تأديب الشعب ، وسلكت الوزارة في ذلك سلوكا شرسا فعطلت الصحف الوطنية وحرمت الاجتهاعات العامة ، وأطلقت الحكم البوليسي وانتهكت حرمات البيوت والأفراد ، وفتحت أبواب السجون والمعتقلات لتستقبل حشودًا من الأحرار والمناضلين الذين لم يخضعوا لحكم الأرهاب ، وتحرك حزب الوفد حركة منظمة وشعبية عارمة لكافحة هذا المد الاستبدادي ، ونشطت لجان الوفد في كل المدن والقرى لتحريك همة الجهاهير للوقوف في وجه « اليد الحديدية » ، وتحولت نقابات المحامين في القاهرة والمدن الكبرى إلى بؤرات للإشعاع السياسي ، وامتلات المدارس بلجان الطلبة الوفديين الذين أشعلوا الحمية في نفوس الجماهير ، وانتشرت المعناصر الوفدية في صفوف العمال بالقاهرة والإسكندرية ، وأسفر هذا النشاط الحزبي الجاهيري عن صحوة شعبية فعالة ، أثبتت لصاحب اليد الحديدية أنه مجرد نمر من ورق .

# أكبر رأس في البلاد

لم تمكث وزارة النحاس الثانية في الحكم أكثر من خمسة شهور ، وتسعة عشر يوما، تعرضت خلالها للدسائس من جانب القصر وأعوانه ، أعداء الديمقراطية الألداء الذين لم يؤمنوا بجدوى البرلمان المنتخب من الشعب . . ولم يؤمنوا قط بحق الشعب في أن يحكم نفسه ، عن طريق حكومة مسئولة أمام البرلمان . . وإنها كانوا يؤمنون بحكم « العباقرة » المستبدين الذين يختارهم القصر ، فيكون ولاؤهم له وليس للشعب .

وكان النحاس باشا يسعى جاهدًا للإفادة من دروس الماضى الأليم . ويحاول أن يضع الضانات الدستورية التي تعالج القصور في دستور ١٩٢٣ ، بما يحول بين الملك فؤاد ومعاودة العبث بالدستور ، بعد أن أسرف هذا الطاغية في استخدام حقه الدستورى في حل مجلس النواب إسرافا مسفا ، لدرجة أنه أقدم على حل المجلس ثلاث مرات ، خلال أربع سنوات ما بين ١٩٢٤ ـ ١٩٢٨ . . وكانت المادة ٣٨ من الدستور ، التي تعطيه حق حل المجلس دون قيد أو شرط ، بمثابة سيف مُصلت على رقبة الحياة النيابية . وهذا هو السبب الذي من أجله عارض الوفد وضع الدستور عن طريق ( لجنة الأشقياء ) المعينة بمرسوم ملكي ، وكان من رأيه أن يوضع الدستور عن طريق جمعية تأسيسية منتخبة من الشعب ، حتى يضمن حقوق السيادة الشعبية ، في مقابل حقوق الملك الأوتوقراطية ، التي أصر صاحب العرش على أن يضمنها مشروع الدستور ، وبها انتقلت السلطة الحقيقية من يد الأمة إلى يد الملك يتضمنها مشروع الدستور ، وبها انتقلت السلطة الحقيقية من يد الأمة إلى يد الملك خاصة إذا كانت البلاد تخضع للنفوذ الأجنبي .

وصدقت نبوءة سعدزغلول ، وتحولت السلطات المنوحة للملك إلى سوط

يستخدمه الاحتلال الإنجليزى فى إرهاب الأمة ، كليا لاحظ اشتداد قوة الشعب ونضعه السريع ، ورغبته فى أن يكون مصدر السلطات جميعا . فلها جاء النحاس باشا إلى الحكم فى أول يناير ١٩٣٠ ، وفى جعبته هذه المغامرات الملكية المدمرة ، أراد أن يضع حدا للعبث بالدستور ، فوضع مشروع قاون لمحاكمة الوزراء اللين يقدمون على قلب الدستور أو حذف حكم من أحكامه ، أو تغييره ، أو تعديله بغير الطريقة التى رسمها الدستور ، ولم يكن لمثل هذا المشروع الخطير الذى يقيد الملك ، أن يمر من تحت ذقن الأوتوقراطى العريق الذى كان يبغض الحكم الدستورى من أعاق قلبه . . فعمد إلى عرقلة أعال الوزارة حتى يضطرها إلى الاستقالة ، وأدرك النحاس أن المعركة الدستورية بينه وبين الملك ، يجب أن تنتقل إلى الشارع السياسى ، ليكون الشعب حكها فى هذا الصراع الدستورى .

### \* \* \*

ويلاحظ الدكتور عبد العظيم رمضان في رصده لتطور الحركة الوطنية ، أن ما فعله النحاس في ١٩٣٠ ، كان محاولة من الوفد لتلقين الملك نفس الدرس الذي لقنه إياه سعد زغلول في ١٥ نوفمبر ١٩٢٤ ، وهو اليوم الذي صاحت فيه الجهاهير في ساحة عابدين صيحتها المشهورة اسعد أو الثورة » . ففي ١٧ يونية ١٩٣٠ ، قدم النحاس باشا إلى الملك فؤاد استقالته « الوحيدة » وسجل فيها الأسباب التي دعته إلى تقديمها ، وهي : عدم تمكنه مع زملائه من تنفيذ البرنامج الذي قطعوا على أنفسه العهد بتنفيذه ، ولم يلبث أن أتبع هذه الخطوة بخطوة أخرى ، فتوجه إلى مجلس النواب ، حيث أعلن استقالته بطريقة مؤثرة ، وفصل أسبابها بعدم تمكن الوزارة من أن تتقدم إلى البرلمان بمشروع محاكمة الوزراء الذي تقضى به المادة ١٨٨ من الدستور . وقد فعلت خطبة النحاس فعلها في نفوس النواب ، ووقف الدكتور أحمد ماهر المؤليس ، في موقفه المشرف الذي يعمل به للدفاع عن الحياة النيابية وعن النظام المدستوري للبلاد » . وقوبلت كلمة ماهر بتصفيق حاد ، وسادت المجلس روح المتنديد بالمحاولات التي تقع من جانب القصر لإرغام النحاس على الاستقالة . . وهنا وقف النائب الوفدى عباس محمود العقاد ، وقال قولته الشهيرة و ألا فليعلم وهنا وقف النائب الوفدى عباس محمود العقاد ، وقال قولته الشهيرة و ألا فليعلم وهنا وقف النائب الوفدى عباس محمود العقاد ، وقال قولته الشهيرة و ألا فليعلم وهنا وقف النائب الوفدى عباس محمود العقاد ، وقال قولته الشهيرة و ألا فليعلم

الجميع ، أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس في البلاد من أجل صيانة الدستور وحمايته » .

وفى اليوم التالى ، احتشدت الجهاهير أمام بيت الأمة وهي تهتف بحياة النحاس والمستور ، بينها كان الوفد المصرى مجتمعا إلى ساعة متأخرة من الليل ، وعقدت الهيئات والمنظهات الشعبية اجتهاعات لتأييد الوزارة . . ثم خرجت الأهرام التعلن عن اعتزام قيام تظاهرة شعبية صخمة يوم الجمعة التالى ، لتطوف بشوارع العاصمة وتلهب إلى ساحة عابدين للهتاف بحياة الدستور ومطالبة الملك بعدم قبول استقالة النحاس .

وأدرك الملك فؤاد خطورة السباق بينه وبين الوفد ، الذى يتسلح بالجهاهير ويحركها لإرغامه على رفض استقالة الوزارة . وأيقن الملك أنه سيواجه موقفا عسيرًا شبيها بها حدث أيام سعد . . فانقض في حركة سريعة لإجهاض مخطط الوفد وسارع إلى إصدار أمر ملكى بتكليف إسهاعيل صدقى بتشكيل الوزارة في نفس اليوم اللي صدرت فيه الأهرام ، وفي صدر صفحتها الأولى خبر التظاهرة الشعبية . . وبذلك سلب الجهاهير ذريعتها للتحرك إلى ساحة عابدين ، واتخذ من التدابير الأمنية والاحتياطات البوليسية ما حال بين الشعب والوصول إلى القصر .

وبمجىء إسماعيل صدقى إلى الحكم ، وقع الانقلاب الدستورى الرابع وانتقلت البلاد إلى عهد بغيض . . ساد فيه الظلام ، وانهدم البرلمان ، وألغى الدستور ، واصطبغ الصراع الدستورى بالدم .

# البرلمان في الأغملال

كان تكليف إسماعيل صدقى باشا بتشكيل الوزارة ـ عقب استقالة النحاس باشا ـ نذيرًا بدخول البلاد في مرحلة البيات الديمقراطي والانهيار الدستورى . . فقد كان معروفا عن إسماعيل صدقى زرايته بالأمة ، واستهانته بكل ما يتصل بإرادة الشعب ويرى أن عبقريته أو كفاءته السياسية تغنى عن النظام النيابي كله . . وكان اختيار الملك فؤاد لهذا المستبد الظاغية ، دليلا على نية الملك في تأديب الشعب وإذلاله عن طريق أساليب البطش والتنكيل التي برع صدقى في انتهاجها ، وكان له فيها باع طويل . . وشكل صدقى وزارته من عناصر عرفت بعدائها التقليدي للدستور واحتقارها للإرادة الشعبية ، وكرهها الموروث للوفد الممثل الشرعي للأمة ، وجاء بخليط من السياسيين ، الذين يفتقرون إلى السند الشعبي ، من أمثال : على ماهر وحلمي عيسي ، وتوفيق دوس ، وحافظ عفيفي .

ورغم كون إسماعيل صدقى من مؤسسى حزب الأحرار الدستوريين ، إلا أنه فى كتاب تشكيل الوزارة تبرأ من اتصاله بهذا الحزب ، مدعيا أنه سيلتزم بالحيدة السياسية المطلقة . ويعنى ذلك أنه انفصل عن حزبه فى آخر لحظة ، لا لسبب إلا لكى يؤلف الوزارة . . ويعقب الرافعى على هذا التصرف اللاأخلاقى بقوله : « إن الانتساب إلى الأحزاب ، أو الانفصال عنها ، عند هؤلاء القوم ـ هو وسيلة إلى الوصول إلى مناصب الوزارة فحسب ، ولا يبعد عن هذا الغرض قيد أنملة . وهذا يعطيك فكرة واضحة عن انحطاط الأخلاق السياسية والشخصية فى هذه البيئة من الناس ، وأنهم من العوامل الأساسية لفساد الحياتين العامة والخاصة فى البلاد ) .

ولم تكن الحيدة التي زعمها صدقى أكثر من الحيدة التي ادعاها الإنجليز حيال

هذا الانقلاب ، وقد كانوا سنده الحقيقي والمحرضين عليه . وكان من دلائل كدب الادعاء أن صدقى عمد إلى اصطناع حزب جديد أطلق عليه اسم (حزب الشعب) وكأنها كان الرجل يشعر بعقدة الذنب تجاه الشعب ، فسرق الاسم وأطلقه على حزبه المصطنع . . ثم شرع في تنفيذ الخطة المبيتة التي دبرها مع سيده صاحب العرش فاستصدر مرسوما بتأجيل البرلمان لمدة شهر ، بدءًا من ٢١ يونيو ١٩٣٠ ، دون أن يعرض المرسوم على مجلس النواب الذي كان من المقرر أن ينعقد بعد ٤٨ مناعة . وتم الاتصال بين ويصا واصف بك رئيس مجلس النواب ، وعدلي يكن باشا رئيس مجلس الشيوخ ، واتفق الرئيسان على أن مرسوم التأجيل يجب أن يُتلى على المجلسين . وبلغت أنباء الاتفاق أسماع صدقى فوقع في حيص بيص . . وقاده غروره إلى أن يقترح على ويصا واصف موافقته على عرض المرسوم على مجلس النواب ، بشرط أن يعطيه عهدا بألا يتكلم أي عضو من أعضاء مجلس النواب عقب تلاوة المرسوم . ولكن ويصا واصف رفض هذا الشرط ، واعتبره تدخلا من الحكومة في شئون المجلس ، وغضا من كرامته . فبعث صدقى بكتاب عاجل إلى رئيس المجلس يحمل لهجة التهديد والوعيد بأنه سوف يتخذ الوسائل الرادعة إذا لم تصله موافقة رئيس المجلس قبل الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم المقرر لاجتماع النواب . . وللمرة الثانية يتخذ رئيس مجلس النواب موقف الشجاعة في مخاطبة رئيس الحكومة ، فبعث إليه بخطاب جرىء أبلغه فيه أنه ليس من حق الحكومة أن توجه إلى رئيس مجلس النواب مثل هذا الخطاب ، لما فيه من تدخل السلطة التنفيذية في إدارة الجلسات التي هي من اختصاص رئيس الجلسة دون سواه.

وما إن تلقى صدقى باشا هذا الخطاب ، حتى ركب رأسه ، وأصدر أوامره بإغلاق أبواب البرلمان ، وربطها بالسلاسل الحديدية ، واستدعى فصائل من الجيش فأحاطت بأبواب المجلس لمنع النواب والشيوخ من دخوله . فلما حانت الساعة الثالثة تجمع عمثلو الشعب حول أبواب المجلس بعد أن اخترقوا النطاقات المسلمحة وأخذوا يهتفون بحياة الدستور وسقوط الطغيان والاستبداد . . ومن المؤكد أن هذه المتافات النارية خرقت أذنى رئيس الوزراء الذى كان يتوارى فى مقعده بمبنى مجلس الوزراء الذى كان يتوارى فى مقعده بمبنى مجلس الوزراء المقابل لمبنى مجلس الشعب . ومن المحتمل أنه قام إلى النافذة فشاهد ويصا واصف ، وهو يأمر حراس المجلس بتحطيم الأغلال ، ولم يكن أمامهم إلا أن

يستجيبوا ، فانهالوا بالبلط على السلاسل حتى كسروها ، وفتحت الأبواب ، وتدفق النواب على القاعة ، بينها أخذ الشيوخ سبيلهم إلى مجلسهم . وأقسم الجميع يمين الولاء للدستور ، واستنكروا ما ارتكبته الحكومة بإغلاقها أبواب البرلمان ، وإحضارها جنود القوات المسلحة لمنع الشيوخ والنواب من عمارسة حقوقهم الدستورية . ووقف عدلى يكن ـ سليل الأرستقراطية ـ موقفا مشرفا ، كشف عن معدنه الأصيل وانحيازه إلى جانب الحق والعدل على حساب صداقته القديمة لإسهاعيل صدقى . فبعث إليه برسالة احتجاج على أعهاله المنافية للدستور ، وكان لهذا الاحتجاج أثره فى إبراز العدوان الذى ارتكبه رئيس الوزراء . وانتهى هذا اليوم التاريخي بانتصار إرادة الشعب واندحار قوة الطغيان ، ولكن فات نواب الشعب أن يطلبوا من الحكومة أن تتقدم إليهم بطلب الثقة ، كها ينص الدستور ، وهذا هو الخطأ الذى وقع فيه الوفد في غمرة الهرج والمرج اللدين سادا البرلمان ، فقد كان باستطاعة الأغلبية البرلمانية أن عارس حقها الدستورى في حجب الثقة عن الوزارة . . وعندها تضع الملك ورئيس وزرائه في موقف حرج . . واستدراكا لهذا الموقف رأى الوفد أن ينقل الموكة من وزرائه في موقف حرج . . واستدراكا لهذا الموقف رأى الوفد أن ينقل الموكة من البرلمان المعطل إلى الشارع الذى كان يموج بالغليان والثورة .

## مذبحة المنصورة

كان تحطيم السلاسل ، بداية معركة حامية الوطيس بين الوفد وحكومة إسهاعيل صدقى التي كشفت عن نياتها في حكم البلاد حكما مطلقا ، ظهرت بوادره في تعطيل البرلمان ، واعتزام إلغاء قانون الانتخابات ودستور ١٩٢٣ ، وتفصيل دستور جديا ينتقص من حقوق الشعب ويضعف من مبدأ السيادة الشعبية الذي ظهر جليا أثنا حكومات سعد زغلول ومصطفى النحاس . وكعادة الوفد في الاحتكام إلى الأم قررت قيادته النزول إلى الجماهير لتتولى بنفسها الدفاع عن حقوقها المعرضة للضياع. وتحدد يوم ٨ يوليو ، لزيارة يقوم بها النحاس باشا لمدينة المنصورة ، وبدأت الجماهير تستعد لاستقبال الزعيم فاتفقت لجنة الوفد العامة بالدقهلية مع شركة سك حديد الدلتا على تأجير قطار خاص ، يستقله النحاس مع أقطاب الوفد ، من بنه إلى المنصورة حتى يتاح لأهل القرى لقاء الزعيم . وتقرر أن يتناول النحاس طعا الغداء في منزل محمد بك الشناوي رئيس لجنة الوفد العامة بالدقهلية ، ثم يلتقو ولجان الوفد في منزل محمود بك نصير ، وأدركت حكومة صدقى ما سوف تسفر عن هذه اللقاءات الجماهيرية من قوة شعبية ، تقلب خطة الحكومة رأسا على عقب فقررت إلغاء مأدبة الغداء والاجتماع ، بحجة أن الاجتماعات العامة ممنوء فاحتجت لجنة الوفد على هذا الإجراء ، وبعث الشناوي بك إلى مدير الدقهلية يبلغ أن وصف الاجتماعات العامة لا ينطبق على الاجتماع المزمع عقده ، لأن المدعوين إلي سيحملون دعوة شخصية ، وأن الاجتماع سيعقد سواء قبلت الحكومة أو رفضت وأنه يحمل الإدارة تبعة ما يحدث من جراء التعرض للحريات العامة التي كفله الدستور وتراجعت الحكومة ، فوافقت على إقامة وليمة الغداء ، ولكنها قررت مد الوفد من السفر عن طريق قطار الدلتا أو بالسيارة ، وسمحت له بالسفر عن طريز قطار سكة الحديد الحكومية . وتنفيذًا لذلك أمرت شركة الدلتا ، فسحبت موافقتها على تأجير القطار المخصوص ، وفتحت الحكومة كل الكبارى التى تقع في الطريق من بنها إلى المنصورة حتى لا يسافر الوفد بالسيارات .

وأصدر مدير الدقهلية أوامره إلى رجال الإدارة ، بإزالة كل مظاهر الحفاوة التى أقيمت في مدينة المنصورة . وطلب من مجمود نصير بك إزالة السرادق الذي أقامه في بيته فرفض ، وانتشر عساكر البوليس يهدمون الأقواس والزينات التي أقامها الأهالي في عرض الشوارع ، ولكنهم لم يتمكنوا من إزالة الزينات التي أقامها التجار على واجهات محلاتهم . وأخذت قوات الجيش والبوليس تتوافد على المنصورة ، حتى باتت المدينة في ليلة الزيارة كأنها ميدان حرب يغص بالجنود المسلحين بمختلف أنواع بالأسلحة . ونشرت مديرية الدقهلية (إعلان تحذير للجمهور) هددت فيه باستعمال القوة لمن يجرؤ على مخالفة أوامرها .

عندئد اجتمعت لجنة الوفد وأذاعت نداء أعلمت فيه أن تعرض الإدارة للاجتماع يتعارض مع مبادئ الدستور وقانون الاجتماعات ، وخاطبت الأهالي قائلة ( لا يرمقنكم تحدير الإدارة وتهديدها ، لأنه تهديد أجوف لا تستطيع تنفيذه ، وهو مخالف للقانون مخالفة صارخة ) .

#### \* \* \*

ولم تتردد حكومة صدقى فى استعمال كل وسيلة تحول بين الشعب وزعيمه وتفسد الاستقبال المنتظر ، فأمرت بفتح جميع الكبارى المحيطة بالمنصورة حتى تمنع تدفق أهالى القرى إليها ، وغمرت شوارع المدينة بالزفت والقطران لتعويق المرور فيها وأصدرت تعليهاتها إلى العمد لمنع الأهالى من الخروج من قراهم ، وقررت البلدية قطع التيار الكهربائى عن السرادق والزينات المقامة على واجهات المنازل ، فاجتمع أعضاء المجلس الملدى \_ وطنيين وأجانب \_ وذهبوا إلى المدير محتجين ، فوافق على إقامة مولد كهربائى خاص لتغذية السرادق بالتيار ومد توصيلة إلى منزل الشناوى بك .

وأراد الوفد أن ينتزع من الحكومة آخر سلاح تستغله لمنع الزيارة ، فقبل السفر عن طريق سكة حديد الحكومة . وعلمت الجاهير بتغيير خطة السفر ، فانتقلت

الحشود إلى المحطات الواقعة ما بين بنها وطنطا والمحلة وسمنود والمنصورة ، وخرج الفلاحون والعمال من المزارع والمصانع يهتفون للنحاس وللدستور وجماته ، وجاء خط الرحلة أطول من الخط السابق ، مما أتاح للوفد لقاء حشود أكثر ، وجماهير أضخم . وجاءت النتيجة في مصلحة الوفد ، حيث أرادت الحكومة العكس ، ودخل القطار عطة المنصورة ، فاستقبله على الرصيف حشد كبير من الأعيان وأعضاء لجان الوفد فأرادوا حمل الزعيم على أعناقهم ، ولكنه أبى ، وتقدمهم إلى الباب الخارجي للمحطة ، وأطل النحاس على الميدان الفسيح ، وقد تحول إلى ثكنة حربية تزدحم بجنود السوارى . وقد وضعوا خوذاتهم على رءوسهم وسدوا منافذ الطرق حتى يحولوا بين الزعيم وجماهيره . ومرت سيارة النحاس في المسار المتفق عليه بين الوفد والإدارة واجتازت السيارة النطاق العسكرى الأول ثم الثاني ، فلما أشرفت على اجتياز النطاق العسكرى الثالث وقعت المذبحة .

### مسروءةنادرة

تحركت سيارة الزعيم الجليل ، مصطفى النحاس ، فى المنصورة وسط حشد كثيف من جنود الجيش ، والبوليس المسلحين بالبنادق المزودة بالحراب (السناكى) بينها وقفت الجهاهير عند أفواه الطرق المؤدية إلى شارع البحر فى انتظار موكب الزعيم . وجلس إلى يمين النحاس محمد نجيب الغرابلى باشا ، وإلى يساره سينوت حنا بك وعلى الجمل بك الذى انتدبته لجنة الوفد ليكون حلقة الاتصال بين الوفد والسلطات . وقد طلب منه رجال السلطة أن يجلس فى سيارة النحاس تمييزًا لها على بقية السيارات .

وكان سينوت حنا بك ، يشعر فى قرارة نفسه ، منذ غادر القاهرة صباحا بأن الرحلة لن تمر بسلام ، وأن حكومة صدقى لن تتورع عن تدبير خطة دنيئة لاغتيال النحاس باشا ، أثناء طوافه بشوارع المنصورة . وأسر سينوت حنا ، بها يخالج نفسه من هواجس وشكوك إلى صديقه محمد حامد جودة بك . واتفق الصديقان على أن يلاصقا الزعيم طوال الرحلة ، حتى يفتدياه بروحيها إذا تعرض لمكروه . فلها نزل النحاس هو وصحبه من محطة المنصورة ، أسرع سينوت حنا إلى السيارة المخصصة للنحاس ، وجلس فيها فى انتظار وصول الزعيم إليها ، أما حامد جودة فقد فرق الزحام بينه وبين النحاس ، ولم يتمكن من مصاحبته فى السيارة . وتحركت السيارة من الميدان ، فاخترقت النطاق العسكرى الأول . . ثم الثانى . وما إن أشرفت على شارع البحر ، حتى أطبق عليها حشد من الجنود حاملي الحراب . ولمح سينوت حنا أحدهم يسدد الحربة إلى صدر النحاس ، فها كان من سينورت إلا أن برز بصدره أحدهم يسدد الحربة إلى صدر النحاس ، فها كان من سينورت إلا أن برز بصدره ليفتدى الزعيم ، ويتلقى الطعنة القاتلة . . فانغرست في كتفه . . وانكسر نصلها في ليفتدى الزعيم ، ويتلقى الزكية على ملابس الزعيم . . وتقدم جندى آخر ليسدد طعنة ليفتدى . وماألت دماؤه الزكية على ملابس الزعيم . . وتقدم جندى آخر ليسدد طعنة ليفتد . . ومالت دماؤه الزكية على ملابس الزعيم . . وتقدم جندى آخر ليسدد طعنة ليفتدى . . وماألت دماؤه الزكية على ملابس الزعيم . . وتقدم جندى آخر ليسدد طعنة المدينة القاتلة . . . وتقدم جندى آخر ليسدد طعنة المدينة القريم . . ومالت دماؤه الزكية على ملابس الزعيم . . وتقدم جندى آخر ليسدد طعنة المدينة القريم . . ومالت دماؤه الزكية على ملابس الزعيم . . وتقدم جندى آخر ليسدد طعنة المدينة القريم . . ومالت دماؤه الزكية على ملابس الزعيم . . وتقدم جندى آخر وماليد المدينة المدينة المدينة القريم المدينة المد

أخرى فتلقاها على أفندى الموجى . . وفى نفس اللحظة ، انهمرت الحجارة والطوب والزجاجات المعبأة بالرمل على موكب الوفد من منازل أعضاء حزب الأحرار الدستوريين . . وهجمت الجهاهير العزلاء تفدى الزعيم بأرواحها . . وحدث الصدام الدموى بينهم وبين رجال الجيش والبوليس المدججين بالسلاح . . وانهالت الطعنات المسمومة على أجساد الأهالى ، فقتل أربعة منهم فى مقابل ثلاثة جنود ، أما عدد الجرحى والمصابين فقد بلغ ١٤٥ شخصا .

#### 中 幸 申

وأسفرت المجزرة التي دبرها صدقي باشا ، عن هذه التتبجة المؤسفة . وتبين أن الحكومة كانت تدبر للمذبحة منذ وقت طويل ، وعهدت بالمهمة إلى أحد ضباط الجيش من ذوى السوابق في الاعتداء على الشعب ، واسمه الأميرالاي عبد العظيم بك على . وقد كافأته الحكومة على إدارته لمجزرة المنصورة بنجاح ، وأمرت بترقيته إلى رتبة لواء بصفة استثنائية ، وفي نفس الوقت عاقبت الصاغ محمد أمين لأنه مسعى إلى حقن الدماء ، وأبي استعال القوة ضد أبناء وطنه ، فأحالته إلى الاستيداع ، وكانت الترقية والعقوبة تهدفان إلى إغراء رجال الجيش والبوليس ، كي لا يترددوا في التنكيل بالشعب وتجنب الرفق بالأهالي العزل . .

وما كادت أنباء مجزرة المنصورة تذاع في أنحاء البلاد ، حتى هبت الجهاهير للتعبير عن سخطها على حكومة صدقى . واندلعت التظاهرات في طنطا وبورسعيد والإسهاعيلية والسويس والإسكندرية ، وتساقط الشهداء تحت وابل الرصاص الذي كان الجنود يطلقونه بلا رحمة أو شفقة ، حتى بلغ عدد القتلي في الإسكندرية وحدها عشرين شهيدًا ، فضلا عن ٠٠٥ جريح غصت بهم المستشفيات ، وقبض البوليس على بعض أعضاء لجنة الوفد بالإسكندرية وهم : الأساتدة عبد الفتاح الطويل وحسن سرور ، والدكتور أحمد عبد السلام .

أما فى المنصورة ، فقد خرج مائة ألف من أبناء الدقهلية والمديريات المجاورة لتشييع جمازة الشهداء الذين سقطوا فى المجزرة . ولم تسلم الجنازة من اعتداء البوليس علىها بالكرابيج والعصى الغليظة ، وقبض على الكثيرين حيث أودعوا السجون وهم يهتفون بحياة الدستور وسقوط الدكتاتورية والاستبداد . . وأرادت بعض المدن

أن تظهر شعورها بتحية الشهداء إجلالا لهم وتقديرا للتضحيات التى قدموها فسارت الجنازات الصامتة في شبين الكوم وسوهاج ومغاغة وكفر الزيات وإمبابة وطنطا . . وحاولت السلطات أن تفرق المحتفلين الصامتين ، وأن تعتدى على الحرمات المقدسة ، الأمر الذي كشف عن فظاعة إسهاعيل صدقى ، وتحجر عواطفه، وخلو قلبه من أبسط المشاعر الإنسانية .

华 幸 幸

أما البطل الجريع ، سينوت حنا ، فقد عاد إلى القاهرة ، حيث أجريت له عملية جراحية لاستخراج الشظية المكسورة في كتفه ، وتحولت داره القابعة على شط النيل بالجيزة ، إلى قبلة يرتادها الوطنيون من جميع أنحاء البلاد للاطمئنان على صحته ، والتعبير عن غبطتهم للدور السطولي الذي قام به في صمت ، وكشف فيه عن معدنه النادر ونفسه الأبية ، ولكن تأثير الطعنة المسمومة ، كان أكبر من جهود الأطباء ودعوات المخلصين ، فصعدت روحه الوثابة إلى بارثها ، ومضى إلى ربه راضيا مرضيا ، وبقيت قصته رمزًا حيا على الشجاعة . . والمروءة . . والتضحية . . والتلاحم المقدس بين أبناء مصر الخالدة .

### المجاهدالزاهد

كان سينوت حنا ، من طليعة الأقباط الذين لبوا نداء الثورة الوطنية عام ١٩١٩ ووقفوا إلى جوار سعد زغلول في حماس حار ، وإيهان صادق بوحدة الألم والمصير بين المسلمين والأقباط . . وعندما اعتقل سعد زغلول للمرة الثانية ، في آخر ديسمبر المسلمين والأقباط . . وعندما اعتقل سعد زغلول للمرة الثانية ، في آخر ديسمبر مع المعنورت أحد الرفاق الخمسة الذين صحبوه إلى المنفى في سيشل مع مصطفى النحاس ومكرم عبيد وفتح الله بركات وأخيه عاطف . . ويقال إن سعدًا عندما بارح بيت الأمة في طريقه إلى المجهول ، كان شديد التأثر ، بادى الألم ، فلها أقلعت به السفينة من السويس ، صعد إلى ظهرها وحوله الصحاب ، فوضع يدا على كتف سينوت حنا ، ثم ابتسم قائلا : مع أبنائي كتف مصطفى النحاس ، ويدا على كتف سينوت حنا ، ثم ابتسم قائلا : مع أبنائي لا أشعر بالمنفى . . كان الله في عون أبنائي الذين تركتهم في مصر .

\* \* \*

كان هذا الجيل من شباب الأقباط، قد اكتوى بنار الفرقة التي أشعلها الإنجليز بين المسلمين والأقباط بعد حادث دنشواى . ولكن جهود هؤلاء الشباب لتطويق الأزمة كانت أضعف من حماسة المتطرفين الذين أصروا على عقد مؤتمر للأقباط في أسيوط ، وتم لهم ما أرادوا . . وعقد المؤتمر في الأسبوع الأول من مارس ١٩١٠ برياسة بشرى حنا ، الشقيق الأكبر لسينوت حنا . . وتكلم المتحمسون وخطب المتطرفون . . وفي النهاية تغلبت روح العقل والحكمة . . وانتهى المؤتمر ، دون أن يمس الحقيقة الخالدة التي جعلت من مصر أما عطوفا على أبنائها جميعا مسلمين وأقباطا . .

وعلى الجانب الآخر تحمس المسلمون وعقدوا مؤتمرا شبيها في مصر الجديدة

برياسة رياض باشا في إبريل ١٩١١ ، وتكلم الخطباء والشعراء .. وأصر هذا الرعيل المستنير من شباب الأقباط سينوت حنا وواصف غالى وجورج خياط وويصا واصف ونجيب إسكندر ـ على حضور المؤتمر الإسلامي ، تأكيدًا لمعنى الوحدة واستنكارا لوصمة الشقاق بين أبناء الوطن ، وانتهى المؤتمر كها انتهى سابقه .. وقد زالت الغشاوة عن عيون الغافلين في الجانبين ، وتفتحت على عمق الهاوية التي يخفرها العدو المشترك لتثبيت أقدامه في مصر وتأكد للجميع أنه لا أمل لهم في البقاء أو الوجود بغير استمرارهم على الحالة التي وجدوا أنفسهم عليها منذ دخول العرب إلى مصر .

وجاءت سنوات الحرب العالمية الأولى ، بها صاحبها من قهر وظلم وسخرة لتؤكد بداهة المصير المشترك في نفوس المسلمين والأقباط ، وأخذوا يتطلعون إلى اليوم اللى يتخلصون فيه من كابوس الاحتلال الذي امتص قواهم ونهب ثرواتهم وأذل كرامتهم . فلها اندلعت الثورة ، تولد الأمل الذي انتظروه طويلاً وانخرط سينوت حنا في أتون الثورة ، مضحيا بهاله الوفير وشبابه الغص دون انتظار لثمن . . أو ترقب لمنصب . . بينها وقف أخوه بشرى مترددا . . خائفا من مخاطر الثورة ، على ضياع أسرته التي كانت تشغل مساحات واسعة من مديريتي بني سويف والفيوم

#### \* \* \*

يقدم العالم المؤرخ ، الدكتور حسين مؤنس ، لقطة رائعة من حياة المجاهد الزاهد سينوت حنا ، نقلا عن الدكتور جورجى صبحى الذى كان يجمع بين مهنة الطب ودراسة تاريخ مصر القديم ، وكان يحسن اللغة القبطية ويقرأ الهيروغليفية ، وكان يلقى دروسا فى التاريخ على طلبة معهد الآثار المصرية . يقول الدكتور مؤنس : اسألته ذات ليلة ونحن منصرفون من المعهد فى طريقنا إلى ميدان التحرير :

ـ هل صحيح أن بشرى حنا شقيق سينوت حنا ؟

ـ نعم كان بشرى هو الأخ الأكبر ، وكان غير راض عن الاتجاه الوطنى المتطرف الله سينوت . وقد عاتب بشرى أخاه سينوت الذي كان شديد الحاسة لمؤتمر مصالحة المسلمين والأقباط الذي عقد في مصر الجديدة . وكان بشرى يخاف على مركز العائلة وثروتها من الاتجاه الوطنى المتطرف ، فقال لأخيه يوما :

\_ إذا أصررت على سلوك هذا السبيل فستسجن وتعذب ، وربها نفوك من البلد كها نفوا عرابي . .

فقال سينوت ، وكان شابا يتميز بالحياء والأدب الشديدين : \_ يا أخى بشرى لا تخف على . إننى أسعى فى الحصول على استقلال مصر وإخراج الإنجليز منها . لأن هذا هو الضيان الوحيد لسلامتنا جميعا ، أقباطا ومسلمين . أنت تظن أن الإنجليز بحرسون أموالنا ويحمون حقوقنا نحن الأقباط . . هذا خطأ . . إنهم لا يحمون إلا أنفسهم . وهأنت ذا تراهم يستكثرون من نصارى الشوام ، ويعتمدون عليهم دوننا . وانظر عنايتهم بالأروام ( اليونان ) والأرمن والمالطيين ! أنت تعرف أن الحكومة الإنجليزية هى التى بنت من مالها كنيسة الروم ، وكنيسة الأرمن فى القاهرة . وهم يمولون المستشفى الإسرائيلي . . فهل ساهموا بقرش فى بناء كنيسة قبطية ؟ إنهم ياأخى يمولون المسريين جميعا ، أملنا الوحيد هو أن نظل متحدين مع إخواننا المسلمين فنحن وهم دائمون فى هذا البلد ، وما عدانا زائل . هذا هو الأمان الوحيد لى ولك فنحن وهم دائمون فى هذا البلد ، وما عدانا زائل . هذا هو الأمان الوحيد لى ولك

ثم يستطرد الدكتور جورجى صبحى قائلاً: « وبعد ذلك بسنوات ، وبعد أن اجتمعت كلمة المسلمين والأقباط تحت زعامة سعد ، وبدأت دعائم الاحتلال تتزعزع ، وأصبح سينوت ، إلى جانب سعد وأصحابه ، من رجال مصر وأبطالها وصل بشرى ذات يوم إلى الفيوم فى زيارة عمل ، فوجد تظاهرة فى انتظاره ، وحمله الناس على أكتافهم ، لمجرد أنه أخو سينوت . . وعندما التقى مع أخيه بعد ذلك بأيام قال له : كنت أنت على حق ياأخى . . لا تتصور كيف يستقبلنى الناس الآن فى الفيوم . . قبل ذلك ، وفى أيام أزمتنا مع إخوانها ، كنت أطلب من الحكمدار أن يرسل معى حرسا . . لقد مضى ذلك ، والحمد لله » . .

\* \* \*

هذا هو سينوت حنا . . المجاهد الزاهد ، الذي عاش الثورة بكل عنفوانها . . وعاش ما بعد الثورة دون أن يطمع في منصب أو جاه أو نفوذ . . وكان استشهاده في المنصورة خير مثل على نزاهته ومروءته وعطائه النبيل .

### الصيف الساخن

كان صيف ١٩٣٠ ، صيفا تصاعدت فيه حدة المواجهة بين الوفد وحكومة إمهاعيل صدقى ، بعد الأحداث الدامية التى وقعت فى المنصورة وغيرها من مدن القطر . . كانت خطة إسهاعيل صدقى « الضرب فى المليان » ، وقمع كل أشكال الاحتجاج عن طريق العنف وإراقة الدماء . وكانت خطة الوفد المضى فى طريق الصمود مهها كانت التضحيات . كان الوفد يتحرك من إحساسه بالخطر المبيت لإجهاض المرحلة الدستورية التى لم يمض عليها أكثر من سبع سنوات ، حل فيها البرلمان أربع مرات بمقتضى النص الذى أصر الملك فؤاد على أن يتضمنه مشروع المستور ، ويعطيه حق حل البرلمان دون قيد أو شرط ، ونتج عنه أن فترة تعطيل الحياة النيابية كانت أطول من فترة عملها ، وكان الوفد يرى أن المعركة الدستورية لا الدستور هو اعتداء على الحقوق الشعبية التى برزت لأول مرة فى التاريخ الحديث وأن على الشعب أن يهب لاستخلاص هذه الحقوق قبل أن تتحقق خطة الملك فى تقصيل دستور جديد على مقاسه يحقق أطهاعه المدكتاتورية .

ومضى الملك في طريق الشوك ، مستغلا النزعة الاستبدادية المتأصلة في نفس صدقى وكراهيته المقيتة للشعب . وتلاقت إرادة الرجلين على تنفيذ خطة رجعية تعود بالبلاد إلى صيغة الحكم المطلق ، التي كانت سائدة قبل دستور ١٩٢٣ . وكانت الخطوة الأولى ، فض الدورة البرلمانية ، حتى لا تواجه الحكومة البرلمان الذي كان من المقرر أن يجتمع يوم ٢ يوليو بعد انتهاء مهلة الشهر التي تعطل فيها . وكان قرار فض الدورة مخالفة صريحة لنص الدستور الذي يقضى بعدم فض المجلس قبل إقرار

الميزانية العامة ، ولكن صدقى لم يأبه بهذه الاعتراضات الفقهية ، لأنه كان ينوى ما هو أخطر من ذلك ، وهو حل البرلمان و إلغاء الدستور ذاته .

وقرر أعضاء البرلمان أن يجتمعوا في اليوم الأخير من المهلة لحجب الثقة عن الحكومة ، ولكن صدقى لم يترك الفرصة لتكرار ما حدث يوم تحطيم السلاسل ؛ فأمر بطرد قوة حرس البرلمان ، وجاء بقوات هائلة من الجيش ، احتلت كل أركان المبنى وجلس الجنود فوق سطح البرلمان ، في وضع استعداد لإطلاق النار على أي شخص يقترب من المبنى . وأذاع صدقى على الشعب إنذازا بضرب النار على أي شبح يقترب من المنطقة المحيطة بالبرلمان . واحتج عدلى يكن باشا رئيس مجلس الشيوخ على هذا الاعتداء الهمجى ، من جانب الحكومة . وفعل الشيء نفسه عبد السلام فهمى جعة بك ، وكيل مجلس النواب . وقرر أعضاء المجلسين . عقد اجتماعهم في مبنى النادى السعدى ( مقر حزب الوفد ) ، حيث أعلنوا عدم ثقتهم بالحكومة ، وسجلوا عدواها السافر على الحياة البرلمانية ، وفي الوقت نفسه أصدرت بعض مجالس المديريات السافر على الحياة البرلمانية ، وفي الوقت نفسه أصدرت بعض مجالس المديريات (الغربية والبحيرة ) ، بيانا استنكرت فيه تصرف حكومة صدقى ، فأمر بحلها بحجة (أنها تتدخل في مسائل خارجة عن اختصاصها ) .

\* \* \*

وكان من شأن هذه الأساليب البربرية التى انتهجها صدقى باشا فى العبث بالدستور والنظام البربانى . . أن أشعلت رغبة الانتقام فى نفوس الشباب الذين رأوا بأعينهم مليك البلاد ورئيس وزرائه يتآمران على سلطات الشعب الدستورية وارتفعت نبرة العنف وعاولات الاغتيالات السياسية ، بعد أن توقفت منذ حادث السردار ، وبينها كان صدقى باشا عائدا بالقطار من الإسكندرية يوم ٢٥ أغسطس ضبطوا شابا يتخفى فى زى عهال عربة البولمان ، ويخفى فى طيات ملابسة بلطة حادة للبح رئيس الوزراء . وتبين أن الشاب ـ وكان سودانيا ـ من خريجى كلية غوردون بالسودان ، ويعمل موظفا بهندسة السكة الحديدية واسمه حسن محمد طه نجل بالسودان ، ويعمل موظفا بهندسة السكة الحديدية واسمه حسن محمد طه نجل في قتل صدقى ، فحكم عليه بالسجن سبع سنوات ، ولكنه مات بعد سنتين فى قتل صدقى ، فحكم عليه بالسجن سبع سنوات ، ولكنه مات بعد سنتين فى السجن .

وفي يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٣٠ بلغت خطة الملك منتهاها ، فأصدر أمرا ملكيا بإلغاء دستور ١٩٢٣ ، وإعلان دستور جديد ينقل إليه كل السلطات التي كانت مكفولة للشعب ، ويجعل من الحكومة ألعوبة في يد الملك ، أو بمعنى أصح ستارا يغطى استبداده بالحكم ، ولم تخف هذه الحقيقة عن الدوائر الأجنبية ، فقالت صحيفة الديلي ميل : معنى هذا أن الحكومة تكون حكومة السراى ! وأن الحكومة هي الملك نفسه ! وستكون نتيجة ذلك نقل السيطرة البرلمانية من الوفديين المتطرفين المضادين لبريطانيا ـ إلى الملك الذي يتسنى له الآن أن يحكم البلاد حكيا مطلقا .

#### 幸 幸 幸

ومن الطريف ، أن الملك « فؤاد » ، لم يقسم على احترام الدستور الجديد ، كما تقضى بذلك التقاليد الدستورية ، حتى لا يقع فى خطيئة الحنث باليمين الأولى التى أقسمها على احترام دستور ١٩٢٣ ، وهو فى الوقت نفسه لا يستطيع التحلل من هذا القسم ، من حيث أن الدستور ( عقد ) بينه وبين الأمة . ومن ثم لا يحق له أن يفسخ من جانبه هذا التعاقد الرسمى العلنى . .

وفى هذا الجو القاتم المترع بدماء الضحايا . . والمشبع بفنون التزييف والحيل والمغامرات . . ولد دستور ١٩٣٠ ولادة ميتة .

## الملك الغسلام

مات الملك فؤاد فى ٢٨ أبريل ١٩٣٦ ، بينها كان ابنه ووريث عرشه الغلام (فاروق) يتلقى العلم فى إنجلترا ، وأثارت وفاة الأب فى غيبة الابن ، كوامن الشجن فى نفوس المصريين الطيبين ، اللين يهتمون كثيرًا بهذه الاعتبارات الإنسانية . فلها عاد الغلام (اليتيم) بعد أسبوع من وفاة أبيه ، خرجت الجهاهير تستقبله بالبشر والحبود وتتغنى باسمه فى الأهازيج والمواويل . كان فاروق وقتئذ صبيا تجاوز السادسة عشرة بقليل ، يتفجر حيوية وتنبئ ملاعه الوسيمة عن براءة وطهر ، فتوسم الشعب فيه خيرًا مأمولا ، وتمنى أن يرى فيه نموذجا مختلفا عن أبيه المستبد الغشوم الذى طالما ضاق بالدستور وما يتضمنه من حقوق للشعب ، وتفنن فى تدبير الانقلابات الدستورية كى لا يتاح للمصريين فرصة الانفراد بحكم أنفسهم .

ولكن الغلام الذى دخل قلوب الناس فى صورة ملاك طاهر ، سرعان ما تحول إلى شيطان رجيم . . وما هى إلا عشية وضحاها حتى أدار عجلة الدسائس الجهنمية التى خلفها له أبوه فى عابدين . فلم تمض بضعة شهور ، حتى أقال وزارة مصطفى النحاس التى كانت فى الحكم منل منتصف عام ١٩٣٦ ، بمقتضى أغلبية شعبية ساحقة . وتمكنت خلال فترة الوصاية من إبرام المعاهدة التى قصقصت أجنحة الاحتلال البريطانى ، وحددت له مدة لا تزيد على عشرين عاما ، ثم توجت جهادها بإلغاء الامتيازات الأجنبية التى كانت وصمة عار فى جبين كل مصرى وجعلت منه مواطنا من الدرجة الثالثة فى قلب بلده .

لقد عاد الصبى من الخارج ، ليجد في داخل القصر أخطبوطا متربصا بالدستور وبالوفد وبالحياة البرلانية ، ولا يرى الخلاص إلا في هدم معبد الديمقراطية كي يتفرد

القصر بحكم البلاد عن طريق أحزاب الأقلية التي لا تستند إلى التأييد الشعبى ، أو عناصر أوتوقراطية لا تعترف بحقوق الشعب ، وإنها تؤمن بسلطة العرش . . والتفت هذه الخلايا السرطانية حول الملك الغلام ، واستصدرت منه في اليوم الأخير من ديسمبر ١٩٣٧ ، مرسوما بإقالة حكومة النحاس .

وكان أول انقلاب دستورى في عهد فاروق . .

وتوبل الانقلاب بصمت مريب من جانب الجهاهير . . 11

لم تقم تظاهرة واحدة تحتج على هذه الجريمة التى اقترفها الملك الغلام فى حق الشعب الذى اختار حكومة النحاس عن طريق أغلبية برلمانية ساحقة . . ولم يرتفع صوت يحدر الملك المخدوع من مغبة الطريق الذى سار فيه . . !!

كانت الجهاهير المصرية ، في ذلك الوقت ، واقعة تحت تأثير عملية غسيل مخ تسعى إلى إظهار فاروق في صورة شعبية عببة . وأخذت الصحف الناطقة بلسان القصر وأحزاب الأقلية تنسج قصصا ملفقة ، حول عبقرية فاروق ، وذكائه الخارق وإنسانيته المفرطة ، وشعبيته الساحقة . وبدأ الناس يسمعون عن الجمل الذي هرب من المذبح ، فلجأ إلى قصر عابدين لائذا بحمى الفاروق ا ثم تطورت عملية الاختلاق والفبركة ، فجعلت من الصبى الجهول عالما متخصصا في كل فروع العلم والاقتصاد والفن والأدب ، وتتحدث عن علمه الذي أذهل العلماء ، وورعه الذي أدهش الفقهاء ، وثقافته التي تفوقت على ثقافة العقاد وطه حسين ولطفى السيد . وكان يقود هذه الحملة الدعائية ، الصحفى اللبناني الأصل ، كريم ثابت ، الذي حلق هذا النوع من تلفيق القصص ونسج الأساطير ، وكان له فضل إدخاله إلى طحافة المصرية ، عا هيأ له مكانا مرموقا داخل القصر ، وأصبح من أشد المقرين الم فاروق .

وكان الوفد يرقب هذه الخطة الإعلامية المدبرة بقلق ، وكان يدرك أن الهدف منها رسم صورة مزيفة لفاروق ، وجعله بطلا قوميا وزعيها شعبيا ، ليسرق الزعامة الحقة من صاحبها مصطفى النحاس ، الذي كان يتربع على عرش الزعامة الشعبية بلا منازع . . كانت هناك عملية تزييف علنية ، تمارسها جوقة القصر ، لخداع الشعب حتى يكفر بالزعامة الوطنية ، ويلتف حول منارة الفاروق ، دون أن يدركوا أبعاد

هذه الجريمة التي أساءت إلى النظام الديمقراطي ، وشوهته في نظر الجماهير وقدمت إليه البديل الزائف الذي سرعان ما كشف عن حقيقته ، فتحول إلى دكتاتور يعصف بالقيم والقوانين والأخلاق والتقاليد والآداب ، ثم انتهى به المصير إلى إغراق نفسه في مستنقع الانحلال والفجور . . فأضاع نفسه . . وأضاع ملكه . .

ولا يختلف المؤرخون على أن فاروقًا كان فاسدًا . . وجاهلاً . . ومغرورًا . . وأن فساده هو الذي عجل به ، ولكن هل كان فاروق فاسدًا بفطرته ؟ أم أن ظروف نشأته وتربيته الأولى هيأت له مسالك الفساد . . ؟

إن المعلومات التى توفرت عن طفولة فاروق ، تؤكد أنه عانى تعسف أبيه وجبروته وغلظته فى معاملة زوجته ، الملكة نازلى ، على مرأى من ابهاالطفل ، فشب فاروق على كراهية أبيه لدرجة أنه تلقى نبأ وفاته وهو فى لندن باستخفاف شديد . ولم يكلف نفسه النزول عن الحصان الذى كان يمتطيه حين سهاعه النبأ ، ومضى فى مشواره العادى وكان شيئًا لم يقع . وهو تصرف يكشف عن شذوذ فى عواطفه ، وخلل فى تكوينه النفسى ، بل نفهم من شهادة أحمد مرتضى المراغى باشا – آخر وزراء الداخلية فى العهد الملكى – أن فاروقا كان مختل العقل ، ليس على سبيل المجاز ولكن على وجه التحقيق . وتكتسب هذه الشهادة قيمتها ، إذا عرفنا أن مصدرها إحدى شقيقات فاروق – وهى الأميرة فايزة – التى أفضت بهذه المعلومات فى إطار حديث طويل مع المراغى ، عن فساد أخيها الذى فاق كل حد ، مما يهدد لا بالخراب الشامل للبلد والخراب لنا جميعا » . وأكدت فايزة فى حديثها أن أخاها غير طبيعى وأنها تعلم ذلك جيدًا . . وكذلك أمها نازلى . . وأن تصرفاته الخاصة نحو أمها وعائلته ، تدل على أنه لا مختل العقل » . . وكررت فايزة هذه العبارة مرتين .

وإذا صح أن فاروقا كان مختل العقل \_ حقيقة لا مجازًا \_ فإن القصة التي يرويها المراغي في كتابه (غرائب من عهد فاروق) ، يمكن أن تلقى الضوء على تاريخ هذا المرض العقلي الذي أصاب فاروقا . وهو في سن التاسعة . عندما أصيب بالحمى الشوكية النخاعية ، وأشرف على الهلاك ، فاستدعى الملك فؤاد طبيبا إيطاليا شهيرًا تولى علاجه حتى شفى . ولكن الطبيب قبل أن يغادر مصر أفضى إلى الملك فؤاد بسر خطير ، هو أن إصابة ولى العهد كانت من الشدة بحيث تركت أثرًا على خلايا

المخ. . !! وعندما سأله الملك منزعجا : هل معنى ذلك أن قواه العقلية قد تصبح غير مكتملة ؟ أجاب الطبيب في لهجة مخففة ، بأن الأمر ربيا لا يصل إلى هذا الحد إذا لم تحصل مضاعفات ، ولذلك فهو ينصح بوضع الأمير تحت عناية مركزة ولفترة طويلة .

وفى لحظة من لحظات الضعف الإنسانى . حكى الملك فؤاد هذه القصة لناظر خاصته زكى الإبراشى باشا ، وكان فؤاد يعبر عن نكبته فى ولى عهده إذا ترك المرض أثرا على قواه العقلية . وعندما حاول الإبراشى أن يخفف عن ولى النعم أحزانه وينصح بإحاطة ولى العهد بحاشية عاقلة ومخلصة ، أجابه الملك ساخرًا :

- حاشية عاقلة ومخلصة يازكى . !! إن الحاشية لو كانت عاقلة فلن تكون مخلصة . . ولو كانت مخلصة فهي ليست عاقلة . . وقصارى ما تصل إليه أن تكون منافقة . . !!

# جناية أم

دب الفساد في أخلاق فاروق منذ الفترة المبكرة من حياته ، وجاءت وفاة أبيه وفاروق في سن المراهقة ـ فهيأت له سبل الانحراف . . فقد غاب الشخص الوحيد القادر على كبح جماحه وتأديبه بالعصا إذا أخطأ . والمعروف عن الملك فؤاد ، أنه كان صارما حازما في إدارة شئونه العائلية ، وكان شديد الوطأة على زوجته الحسناء نازلى ، التي تزوجته مكرهة ، وعاشت في عصمته كالأسيرة في القفص . . فها إن غاب القط ، حتى عاثت الفيران في أنحاء القصر فسادًا ، وانطلقت الأرملة الشابة وابنها المراهق ـ كل في طريق ـ لينغمسا في حياة الليل واللهو والمجون .

والسياسيون الذين رصدوا تطورات حياة فاروق . . يضعون مستولية فساده على رقبة أحمد محمد حسنين باشا ، رئيس الديوان الملكى ، ورحل القصر القوى الذى تلقف فاروقا وهو لم يزل غضا طريا ، وأشرف على تربيته سياسيا وأدبيا ، وظل المهيمن على شئونه حتى اللحظة الأخيرة من حياته ، عندما لقى مصرعه ، فوق كوبرى قصر النيل ، ذات يوم مطير من فبراير ١٩٤٦ ؛ فقد انزلقت سيارة لورى ضخمة ، تابعة للجيش البريطانى ، وصدمت سيارة حسنين من الخلف صدمة شديدة أودت بحياته .

وكان أحمد حسنين ينتمى إلى أسرة عادية تعيش فى بولاق . وكان أبوه عالما أزهريا، ولكنه كان متقد الفكر ، فأوفد ابنه لتلقى تعليمه الحامعى فى أكسفورد وبعد عودته عمل مفتشا بوزارة الداخلية ، إبان الحرب العالمية الأولى . ثم انتقل إلى السلك الدبلوماسى ، إلى أن ضمه الملك فؤاد إلى حاشيته ، وظل يتدرج فى مناصب القصر فى سرعة أذهلت أقرائه وحساده . . وأصبح حسنين أحد ألمع نجوم المجتمع

المصرى ، بفضل ما كان يتمتع به من ذكاء اجتماعي ، وكياسة وقدرة على كسب الأصدقاء ، وبسبب بعض الأعمال التي قام بها وأكسته شهرة كبيرة ؟ فقد كان أول مصرى يقود طائرته الخاصة بمفرده من أوربا إلى مصر ، فسقطت به مرتين في فرنسا وإيطاليا ، ولكنه نجا من الموت في المرتين . . كما كان أحد أبطال الشيش ( المبارزة بالسيف ) ، وحقق انتصارات على أبطال هذه اللعبة في أوربا . . ثم ذاع صيته عالميا ، بعد المغامرة الجريئة التي جاب خلالها الصحراء الغربية ، وتمكن من اكتشاف بعض الواحات التي كانت مجهولة عند علماء الجغرافيا . . وعندما بعث الملك فؤاد بابنه وولى عهده ، الأمير فاروق ، ليتعلم في إنجلترا ، انتدب له رائدين يتوليان الإشراف عليه هناك : أما أولها ، فكان عسكريا يتسم بالصرامة والشدة وهو اللواء عزيز المصرى باشا ؛ وكان الثاني أمين الملك ، أحمد حسنين ، الذي استطاع بلباقته وكياسته أن يكسب ثقة فاروق ، ويصبح أشد الناس تأثيرا في أخلاقه وسلوكه . ومن هذه الناحية تشير أصابع الاتهام إلى أحمد حسنين ، على أنه المسئول الأول عن أخلاق فاروق التي تسرب إليها العطب مبكرا ، فيقول أحمد مرتضى المراغى: إن ا حسنين ، كان يعمل على إرضاء نزواته أكثر من حرصه على تزويده بالمعرفة . بل يمضى إلى أبعد من ذلك ، فيقول : إن « حسنين » كان يترقب نوم عزيز المصرى مبكرا ، فيتسلل مع فاروق من نافلة الفيلا ، ويفران إلى المراقص ودور اللهو ، ويعودان مع الفجر ، قبل أن يصحو عزيز المصرى .

ولكن الصورة التى يرسمها الصحفى الكبير ، محمد التابعى ، عن شخصية أحمد حسنين وعلاقته بفاروق ، تناقض الصورة المشينة التى رسمها المراغى له . . يقول : التابعى : إن الخطة التى وضعها أحمد حسنين لنفسه ، هى أن يكون قائد الملك . . لا قواده . . وأن يكون الرجل القوى الذى يوجه الملك ، ويرشده ويسيطر عليه \_ عن طريق أمه الملكة نازلى \_ لا الرجل الذليل الرخيص ، الذى يشترك فى لا توريد البضاعة أو المتعة الصحية ، للملك الشاب . . ولإلقاء مزيد من الضوء ، على العبارة الأخيرة يروى التابعى \_ على لسان أحمد حسنين \_ القصة التالية :

عقب وفاة الملك فؤاد ، وعودتنا من لندن ، اتصلت بي سيدات كثيرات من هوانم المحتمع ، وتحدثن إلى في لباقة ودبلوماسية رفيعة عن الملك . . الشاب الممتلئة

عروقه بدم الشباب الحار . . وعن صحته وما تتطلبه هذه الصحة الغالية ، وتحدثن كذلك عن السن الحرجة ـ سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة ـ وعن المتعة الصحية التي لابد منها لشاب موفور الصحة مثل « مولانا الملك » ، وعرضن بكل لباقة ورقة وكياسة ـ وبكل أمانة وحرص وحذر ـ عرضن خدماتهن على حلالة الملك ، وأبدين استعدادهن لأن يقدمن « البضاعة الصحية » لجلالته . . ويستطرد حسنين في روايته ، بأنه كان يقول لهؤلاء الهوانم : إن « مولانا الملك » لن يرضى ولن يوافق ، إذا عرف أن له دخلا في الموضوع ، أو أنه مطلع على أسراره « الصحية » ، وأن الأفضل والحالة هذه ، أن يحاولن الاتصال بجلالته من طريق آخر غير طريق معلمه ومرشده .

ومعنى ذلك ، أن معلم الملك والمشرف على تربيته ، لم يكن يهانع فى انغهاس الملك الشاب فى الرذيلة ، بشرط أن يتم كل شىء من وراء ظهره ، منعا للحرج ولكى يظل محتفظاً بقشرة الاحترام ، التى بقيت فى نفس التلميذ نحو أستاذه . . بل يعترف حسنين بأنه كان يرى ويسمع ويراقب ، ثم يتظاهر أمام فاروق بأنه لا يرى ولا يسمع ولا يعرف شيئًا عن مغامرات صاحب الجلالة . . !!

وفى الوقت الذى كان فيه جلالته منساقا فى مغامراته « الصحية » كانت آمه الأرملة الحسناء ، تحارب فى جبهة أخرى ، غايتها تعويض سنوات الكبت التى عاشتها فى كنف زوجها الغيور . . فلم تمض أسابيع قليلة على وفاته ، حتى كثر الهمس بين موظفى القصر ، وفى الأوساط المتصلة به ، أن « السجينة » قد حطمت قيودها ، وإنطلقت ـ وهى لا تزال فى ثياب الحداد ـ تمرح ، وتحاول أن تعوض ما فاتها، وتنهل من عيون الحياة . . وجدت نازلى ، فى شخصية أحمد حسنين ، الفارس المنشود الذى يحملها على صهوة جواده ، وينطلق بها إلى عالمى المتعة والخيال ، قبل أن يطويها كهف الشيخوخة البارد المظلم . ولكن مأساة نازلى ازدادت تعقيدًا ، حين أن يطويها كهف الشيخوخة البارد المظلم . ولكن مأساة نازلى ازدادت تعقيدًا ، حين اكتشفت أن فارس أحلامها راغب عنها . . زاهد فيها . . ولا يريد أن يطاوعها فى نزواتها . . ونسيت نازلى ، فى غمرة عواطفها المتأججة ، أنها وقعت فى حبائل سياسى داهية ، يضع طموحاته وأطهاعه السياسية فوق عواطفه . . كان حسنين ـ الذى ضبطه صديقه حفنى محمود ، وهما تلميذان بالثانوى ، يقرأ كتاب « الأمير » ضبطه صديقه حفنى محمود ، وهما تلميذان بالثانوى ، يقرأ كتاب « الأمير »

ليكيافيلي ـ يريد أن يحكم مصر . وكانت خطته كها شرحها صديقه محمد التابعى تتلخص في أن الذي يسيطر على نازلي ، يستطيع أن يسيطر على الملك فاروق ، ومن ثم ينفسح أمامه الطريق إلى رئاسة الوزارة . . ولم يكن حسنين من البلاهة ، بحيث ينساق وراء رغبات الأرملة المتصابية ، فيحرق نفسه بسرعة ، ويحطم نفوذه المستقر في نفس ابنها . . وإنها كان من الدهاء ، الذي بلغ حد القسوة ، بحيث دفع ملكة مصر وأم ملك مصر ، إلى أن تركع عند قدميه مستعطفة متوسلة ، وهو يصم أذنيه عن صرحاتها التي دوت في أنحاء القصر ، حتى بلغت مسامع ابنها الذي كان حتى ذلك الوقت \_ يحبها ويحترمها ويخشاها ، ويضعها في مرتبة التقديس والإجلال . . 11 لقد تدلهت ملكة مصر ، وتهتكت في حب حسنين ، ولم تخجل من والإجلال . . 11 لقد تدلهت ملكة مصر ، وتهتكت في حب حسنين ، ولم تخجل من أن تعلن أمام موظفي القصر ، أنها عاشقة ملهوفة على أحد حسنين . . 1

بل ، ولم تخجل من أن تصارحه هو \_ ابنها الملك \_ بأنها تحب موظف القصر أحمد حسنين . . وأنها قدمت نفسها وجسمها . . ولكنه يرفض . . ثم تصرخ وتصيح أنها من لحم ودم . . وتطلب من ابنها أن يزوجها من حسنين . !!

ويختتم التابعي هذا المشهد الدرامي بقوله: كانت الصدمة النفسية قاسية عنيفة على فاروق ، الذي كان يومئذ في الثامنة عشرة من عمره . . وتهاوت المثل العليا التي كان يراها في أمه \_ صاحبة الجلالة \_ تهاوت وتحطمت تحت قدميه . . ودخلت المرارة في نفس الفتي . . ومع المرارة السخرية ، والاستهتار بالمثل العليا \_ وأين هي ؟ \_ وبالمبادئ والقيم والأخلاق . . بكل ما في هذه الدنيا من نبل وعلاء . .

وانطلق فاروق يسخر ويهزأ بكل شيء . . ويدوس بقدمه كل مقدسات هذا البلد . . ويتحول من ملك محبوب مأمول . . إلى طاغية وفاجر ومستهتر .

## الحفلة الدينية

حدث أول صدام ، بين حكومة الوفد والملك فاروق ، قبل أن يجلس فاروق على العرش ، فبينها كانت العائلة الملكية تقضى صيف ١٩٣٧ في أوربا ، خرجت إحدى الصحف الموالية للقصر – وهى بصدد الحديث عن حفلات التتويج التي ستقام بمناسبة تولى الملك سلطاته الدستورية – بفكرة غريبة عن حفلة دينية ، ستقام لفاروق في القلعة ، يقلده فيها شيخ الأزهر سيف جده محمد على ، في حضور أمراء الأسرة العلوية ، وهم يرتدون الملابس المزركشة التي كان يرتديها أسلافهم في القرن التاسع عشر ، ثم يقسم الجميع يمين الولاء للملك ، وتقام في اليوم التالي صلاة جامعة يؤم الملك فيها المصلين ، بدعوى أنه الإمام الذي ينوب عن الأئمة وتصدر باسمه الأحكام الشرعية .

وتصدى الوفد لهذه البدعة ، واعترض عليها بشدة ، لأنه وجد فيها محاولة مكشوفة لإضفاء القداسة على الملك ، وإيجاد سلطة دينية خاصة ، يستمد الملك منها صلاحياته ، إلى جانب السلطة المدنية التي ينظمها الدستور ، وبدلك ينفتح الطريق أمام الملك للخروج على قيود الدستور ، وتمسك الوفد بها نص عليه الدستور من إجراءات محددة في مسألة التتويج ، وهي أن يقسم الملك اليمين الدستورية أمام اجتماع مشترك لأعضاء محلسي الشيوخ والنواب . . ولا شيء غير ذلك .

وتبين أن صاحب فكرة الحفلة الدينية ، هو ولى العهد ورئيس مجلس الوصاية الأمير محمد على توفيق ، الذى لم يكن فى يوم من الأيام على علاقة طيبة مع عمه الراحل الملك فؤاد ، وكان من الطبيعي أن يرث فاروق عن أبيه بغضه لهذا الأمير الذى كانت أبرز صفاته الثرثرة والسطحية والتفاهة والبخل والولاء المطلق للاحتلال

الإنجليزى . . وبالرغم من الود المفقود ، فقد راقت الفكرة لفاروق فهلل لها ، ورأى في هذه الاحتفالات مناسبة يطل منها على الشعب المصرى في صورة ملوك أوربا في العصور الوسطى ، وهم يتلقون التيجان من بابوات الفاتيكان . . ومن المؤكد أن الاعتراضات الفقهية التي أعلنها الوفد لم تدر بخلده ، فلم تكن سنه الصغيرة ، ولا ثقافته الضحلة تسمحان له بفهم هذه الأمور .

وكان النحاس باشا ، قد قام آنثذ بزيارة سريعة إلى سويسرا ، على رأس وفد حكومى ، لتوقيع معاهدة إلغاء الامتيازات الأجنبية ، فذهب الوفد لمقابلة فاروق ف الفندق الذي يقيم فيه ، ولكن المقابلة لم تستغرق أكثر من بضع دقائق ، خرج النحاس بعدها متجها . وكان الصحفى محمد التابعي ، الذي كان يرافق العائلة الملكية في رحلتها المذكورة ، ينتظر نهاية المقابلة ، فلما خرج النحاس باشا ، صحبه التابعي ، ونزلا إلى بهو الفندق ، وقال له النحاس باشا :

- اللعب بدأ من دلوقت . .

فقال التابعي : خير يارفعة الباشا . .

قال: لا . . مفيش خير أبدا . . أبدا . . الملك كلمنى عن حفلات التولية التى ستقام بعد عودته إلى مصر ، وعايز يعمل حفلة فى القلعة . . وشيخ الأزهر يقلده فيها سيف جده محمد على . . والأمراء يكونون حاضرين ولابسين الهدوم التى كان جدودهم يلبسونها أيام محمد على . . وفى الحفلة دى مش عارف مين ومين رايحين يقسموا له يمين الولاء والإخلاص . . أنت عارف الدستور بيقول إيه !

فلما أبدى التابعي جهله بأحكام الدستور في هذا الموضوع ، قال له النحاس باشا:

.. أنا أقنول لك . . الدستور يقول إن الملك قبل أن يتولى سلطاته ويباشرها يقسم اليمين الدستورية أمام الهيئة المشتركة من أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب . . ولا فيش حاجة عن سيف جده محمد على . . ولا عن الأمراء وهدوم الأمراء . . ولا عن شيخ الأزهر . . وأنا مش فاهم شيخ الأزهر ماله ومال مباشرة الملك لسلطاته الدستورية . . !!

وهنا ، تدخل مكرم عبيد باشا ، الذى كان حاضرا اللقاء ، وطلب من التابعى أن يتدخل بها لديه من تأثير لدى رجال الحاشية ، لكى يقنع الملك بالتخلى عن الفكرة ، وكرر النحاس باشا المطلب من التابعي ، وقال له وهو يتجه نحو السيارة :

- أيوه خلص لنا الحكاية دى . . وزى ما قلت . . مفيش غير أداء اليمين الدستورية تحت قبة البرلمان . . ولا قلعة ولا سيف محمد على ولا أمراء . . ولا حاجة من دى أبدا . . آه . . اللي في الدستور وبس . .

ويروى التابعي ، كيف حاول استغلال صداقته بأحمد حسنين باشا ، في إقناع فاروق بالتخلي عن الفكرة ، ولكن أحمد حسنين تنصل بحجة أن الملك متحمس جدا للفكرة ، ويصعب إقناعه بعكسها ، فلجأ التابعي إلى الدكتور حسني باشا سكرتير الملك ، ونجح الرجل في مسعاه . وأبدى فاروق استعداده للتخلي عن فكرة الحفلة الدينية ، بشرط أن يقدم له الشعب تاجا تشترك كل فئات الأمة في الاكتتاب في ثمنه ويقوم رئيس مجلس الشيوخ بوضع هذا التاج على رأس الملك باسم الأمة . وتصور التابعي أنه نجح في مهمته ، وسارع إلى إبلاغ الخبر تليفونيا إلى مكرم عبيد باشا ولكنه فوجئ برفض النحاس باشا لفكرة التاج أيضًا . . وإصراره على تنفيذ أحكام الدستور بلا زيادة أو نقصان . . وإزاء إصرار رئيس حكومة الأغلبية على موقفه أعلن فاروق تنازله عن فكرة التاج . . ومع ذلك ، ظل الأمير محمد على مصرا على حفلته المزعومة ، بالرغم من تخلى فاروق عنها ، وبالرغم من المفاجأة التي ظهرت وهي انعدام وجود سيف من مخلفات محمد على . وظلت الصحف الموالية للقصر تندد بتشدد الوفد وكسره خاطر الملك الشاب الذي يريد أن يفرح في أعياد جلوسه . . وإزاء إصرار ولى العهد على إقامة الحفلة الدينية ، ذهب إليه النحاس باشا ، وقال له إنه لم يبق موجب لاستمرار الحديث عن هذه الحفلة ، لأن الملك لم يطلبها ولا يتمسك بها ، وأن جلالته أبلغ الوزارة برنامج الاحتفال ، وليس فيه شيء عن إقامة حفلة دينية . ولكن الأمير أصر على مشروعه ، وأعلن أنه حتى لو كان الملك قد تنازل عن إقامة الحفلة ، فإن هذه المسألة تهم الأسرة المالكة كلها ، وإن سموه بصفته الشخصية ، وبصفته نائبا عن أفراد الأسرة ، يرى أن يسن هذا التقليد الجديد ، وأن تقام حفلة دينية ، وحفلة مبايعة يتقلد فيها فاروق سيف جده الأكبر !! وأدى إصرار

الأمير وعناده إلى تفاقم العلاقة بين الوزارة الوفدية والقصر ، ووجدتها العناصر الفاشية فرصة الإثارة القلاقل ضد الحكومة ، وأخذ محمد على يغذى الصحف الموالية، لبث الألغام بين الوفد والقصر ، وأضاف ولى العهد غريب الأطوار إلى أفكاره فصلا جديدًا ، مفاده أن يؤدي فاروق صلاة الجمعة التالية لتوليته في الجامع الأزهر وأن يتلو شيخ الأزهر ـ الشيخ المراغى ـ دعاء خاصا لفاروق . وأبلغ فاروق بالفكرة الجديدة فوافق عليها ، ولكن النحاس رأى في ذلك عودة إلى فكرة الحفلة الدينية عن طريق ملفوف ، فأعلن رفضه لها ، ورفضه لكل محاولة تسعى إلى إضفاء أي صفة دينية على الملك . وكانت حجة الوفد في ذلك ، كما شرحها النحاس باشا تحت قبة البرلمان : ﴿ إِن الإسلام لا يعرف سلطة روحية ، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وعباده ، فلا معنى إذن للاحتجاج في هذا الشأن بها نص عليه الدستور من أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام . أو بمكانة مصر لدى الدول الإسلامية . بل إن هذه المكانة نفسها تستلزم أن ننزه الدين عن إقحامه فيها ليس من مسائل الدين وليس أحرص منى ولا من الحكومة التي أتشرف برئاستها على احترام الإسلام وتنزيه الإسلام، كما أنه ليس أحرص منا على التزام أحكام الدستور . ولكن الاحتفال بمباشرة جلالة الملك لسلطته الدستورية شيء آخر ، فهو مجال وطني يجب أن يتباري فيه سائر المصريين مسلمين وغير مسلمين . . ٧ .

وإزاء هذا التشدد ، تظاهر الملك بالإذعان بأحكام الدستور ، وتمت إجراءات توليته وفقا لأحكام الدستور ، وكها أرادت الحكومة الوفدية . . ولم تمض بضعة شهور حتى ضرب فاروق ضربته الانتقامية ، فأقال الحكومة التى كانت تتمتع بثقة الشعب، ومضى في طريق العبث بالدستور وبإرادة الشعب . . حتى فقد عرشه . .

## يحيا الملك مع النحاس

في يوم الجمعة ١٥ سبتمبر ١٩٤٤ ، كان الملك فاروق في طريقه إلى حي مصر القديمة ، لأداء فريضة الجمعة بمسجد عمرو بن العاص ، عندما لاحظ بعض الملافتات المرفوعة في الشوارع مكتوبا عليها في يها الملك مع النحاس ، فاستنكف أن يقترن اسم النحاس باسمه ، فاستدعى مدير الأمن العام ، وأمره بنزع اللافتات ونفذ الرجل الأمر على الفور ، دون انتظار لتعليات الحكومة التي يتبعها بنص الدستور . . وفي مساء اليوم نفسه أصدر فؤاد سراج الدين ، وزير الداخلية ، أمرا بإيقاف المدير عن العمل ، وقرأ الملك الخبر منشورًا في صحف اليوم التالى ، فصمم على بقاء الرجل في منصبه .

وبدا أن التحرش الملكى ، يخفى وراءه نية مبيتة لإقالة الحكومة الوفدية ، وأن أزمة مدير الأمن العام هى بجرد ذريعة لتفجير الخصومة التى استحكمت بين الوزارة والقصر ، وأن فاروقا أخذ يستجمع خيوط اللعبة فى يده ليحكم البلاد حكما مطلقا عن طريق أحزاب الأقلية التى تفتقر إلى تأييد الشعب . وكان فاروق قد تلقى الضوء الأخضر من الإنجليز بموافقتهم على إقالة النحاس ، وإرجاء الإقالة إلى ما بعد توقيع ميثاق الجامعة العربية الذى كان النحاس منشغلا بالإعداد له منذ ربيع ١٩٤٣ .

والسؤال الذي يرد على الخاطر هو: لماذا سمح الإنجليز لفاروق بإقالة الوزارة التي أرغموه على تشكيلها يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ ١٤ والجواب ، يتطلب رصد العلاقات بين حكومة الوفد والإنجليز ، خلال الفترة التي تولت فيها الحكم ، وهو ما فعله الدكتور عبد العظيم رمضان في الجزء الثالث من كتابه ( تطور الحركة الوطنية )

واستخلص من ذلك ، أن العلاقات بين حكومة الوفد والإنجليز لم تكن سمنا على عسل ، كما قد يبدو لأول وهلة . وإذا كانت ظروف الحرب العالمية المعقدة ، قد جمعت بين مصلحة الإنجليز ومصلحة الوفد في التخلص من الخطر النازى . . إلا أن القاعدة هي أن الحكم الوطني والاستعمار قطبان متنافران ، وضدان لا يجتمعان . وفي الفترة التي تولى فيها الوفد الحكم ، ظهرت أمور كثيرة برز فيها التباين الشديد بين الفريقين ؛ فقد استهل النحاس حكمه بالإفراج عن عديد من الشخصيات المعادية للإنجليز ، والموالية للمحور تحت ضمانه الشخصي ، ومن الطبيعي ألا تلقى هذه الإفراجات ترحيبا من الإنجليز ، ولما تهددت جيوش روميل الدلتا وقناة السويس وأعد الإنجليز خطتهم لتدمير مرافق البلاد ، ثار النحاس ، وأعرب عن سخطه وغضبه على النيات البريطانية .

ولما ابتعد الخطر النازى عن أرض مصر ، دخلت العلاقات بين حكومة الوفد والإنجليز مرحلة جديدة ، ولم يترك النحاس مناسبة إلا أعلن فيها عن عزمه على تعديل معاهدة ١٩٣٦ ، واعتبر هذا التعديل ضرورة لا مفر منها ، وقال فى خطاب عيد الجهاد سنة ١٩٤٣ • إنى الآن أكاد ألمح بإذن الله فجر اليوم الذى تأخل فيه مصر المستقلة استقلالا تاما لا تشوبه شائبة ، مكانا محمودا في طليعة الشقيقات العربيات وسائر الدول الديمقراطية المحبة للحرية ، وفي هذا الخطاب تعرض للسودان فقال : • من منكم يجهل موقف الوفد من مسألة السودان ، وتمسكه بالسودان ، وجهاده لأجل السودان ؟ » . . واستطرد يقول • إنه عندما يقول حقوق بالسودان ، وجهاده لأجل السودان ؟ » . . واستطرد يقول • إنه عندما يقول حقوق أو التابع بالمتبوع ، فإنها نحن والسودان أمة واحدة ، لأبنائه ما لنا . . وعليهم ما علينا . . » .

وبات واضحا ، أن الحكومة المصرية تنوى مطالبة بريطانيا بجلاء قواتها عن مصر ، وعبر عن هذا الاتجاه مراسل ( التايمز ) في مصر فقال : ﴿ إِن الدوائر المصرية ، يسودها شعور زائف بأن الحرب بصفة عامة أوشكت على النهاية ، وأنه ما دام الأمر كذلك ، فإن الوقت قد حان لجلاء قوات الحلقاء عن البلاد » . وهكذا بدا في الأفق شبح مطالبة الحكومة الوفدية لبريطانيا بدفع الحساب ، وكان معنى ذلك

بالنسبة للسياسة البريطانية ، أن هذه الحكومة لم تستنفد أغراضها فحسب ، بل وأصبح وجودها في الحكم يمثل خطرا على المصالح البريطانية ، ولكن الدور كان ما يزال به مشهد واحد لم ينته بعد ، وهو توقيع بروتوكول الإسكندرية ، أول وثيقة في ميلاد جامعة الدول العربية .

وفى اليوم التالى لتوقيع الميثاق، أصدر الملك مرسوما بإقالة الحكومة الوفدية، وبدأ عهد انقلاب جديد، فانتهت مرحلة هامة من تاريخ مصر، وبدأت مرحلة جديدة إذ كانت الفترة التي تولى الوفد فيها الحكم من ٤ فبراير ١٩٤٧ إلى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ في رأى عبد العظيم رمضان \_ مفترق الطرق في حياة مصر ، فقد شهدت هذه الفترة سنوات الحسم في تاريخ الحرب العالمية الثانية ، وكانت معركة ( العلمين ) إحدى معركتين حددتا مصير الحرب \_ والأخرى هي ستالينجراد \_ وقد تأرجحت فيها مصر بين نصر محوري نازى يعرض حياتها واستقلالها ونظامها للخطر، وهزيمة بريطانية تخرب مدنها وقراها، كما شهدت هذه الفترة تجمع الظروف والعوامل التي ساعدت على اتجاه مصر بصورة حاسمة نحو الوحدة العربية ، وقد حسم هذا التوجه مصير مصر \_ ليس فقط بالنسبة للمرحلة التاريخية التالية، بل بالنسبة لجميع المراحل التالية.

أما على المستوى المحلى ، فقد أنجزت هذه الوزارة العديد من الأعمال على كافة المستويات ، فقررت مجانية التعليم الإبتدائى ، تمهيدًا لمجانية التعليم الثانوى عام ١٩٥١ ، وأصدرت قانون عقد العمل الفردى لحماية الأجور ومعالجة حالات المرض والعجز والشيخوخة والوفاة ، وقانون التأمين الإجبارى ضد إصابات العمل ، وبه أمكن الاحتفاظ للعامل بحق التعويض، وأسبغت الشرعية على نضال العمال بإصدار قانون نقابات العمال ، وأنشأت لجان التوفيق بين العمال وأصحاب الأعمال وفيها يتصل بالفلاحين خففت الضريبة عن صغار الملاك الزراعيين، وأعفت من لا تتجاوز الضريبة المربوطة على جميع أطيانه خمسين قرشا من هذه الضريبة ، وأقامت مشروع المجموعات الصحية وتشمل كل مجموعة عيادة طبية مجانية، ودارا للخدمة الصحية ودارا لرعاية الأمومة والطفولة ، وأنشأت ديوان المحاسبة وجعلته هيئة مستقلة الصحية ودارا لرعاية الأمومة والطفولة ، وأنشأت ديوان المحاسبة وجعلته هيئة مستقلة عماما عن السلطة التنفيلية ، محاطا بسياح من الضهانات ، كما أصدرت قانون

استقلال القضاء الذى كفل للقاضى مبدأ عدم العزل ، كما فرضت استخدام اللغة العربية فى مكاتبات الشركات حتى تتيح للمصريين شغل المناصب بدلا من الأجانب.

تلك بعض إنجازات وزارة ٤ فبراير . .

## خاتم النحاس

في أواخر عهد الوزارة الوفدية ( ١٩٥٠ ـ ١٩٥٠) ، شنت الصحف المعادية للوفد حملة عنيفة على النحاس باشا ، وشككت في ذمته لأنه يقتني خاتما من الزمرد مع أنه رجل فقير . . ! وأخذت الصحف تؤلب الرأى العام الذي كان شديد الثقة بنزاهة النحاس وطهارة يده ، وتساءلت الصحف من أين لزعيم الوفد ورئيس الوزراء ثمن هذا الخاتم الثمين . . ؟! وجعلت المجلات الساخرة من هذا الخاتم ( لازمة ) ثابتة لا تخلو منها أصبع النحاس باشا في الرسوم الكاريكاتورية . . ولكن النحاس لاذ بالصمت ، ولم يشأ الإفصاح عن مصدر الخاتم ، لأنه كان يعرف الأصابع الخفية التي تحرك الحملة وتثير الغبار حول أعز صفة يتحلي بها الرجل . وأدرك النحاس أن الهدف الأكبر هو تلويث سمعة الوزارة الوفدية وتسميم الأجواء الشعبية من حولها ، تمهيدًا للإطاحة بها . . وهو ما حدث بالفعل .

وبقيت قصة خاتم الزمرد طى الكتبان ، حتى أماط اللثام عنها الأستاذ صلاح الشاهد فى كتابه ( بين عهدين ) ، وهو الرجل الذى ظل بحكم موقعه فى مجلس الوزراء لصيق الصلة بالنحاس باشا ، وكان بحكم صلته الشخصية بالنحاس منذ عام ١٩٣٥ خير شاهدعلى سلوك الرجل ، وبقى على الوفاء له حتى انتقل الزعيم إلى الرفيق الأعلى .

يروى صلاح الشاهد ( وله من اسمه نصيب ) القصة على النحو التالى :

يوم ١٥ يونيو ١٩٥٠ ، وفى الساعة الخامسة مساء ، وصلت إلى جناح المرحوم مصطفى النحاس باشا بفندق سان ستيفانو سلة فواكه من مزارع الخاصة الملكية مع مندوب ملكى قال لى : هذه السلة هدية من جلالة الملك لرفعة النحاس باشا

بمناسبة عيد ميلاده . فصعدت بالسلة إلى غرفة النحاس باشا الذى فتح غطاءها فوجد كمية من المشمس فوقها علبة مجوهرات ، وفتحها رفعته فوجد بداخلها خاتما من الزمرد فسألنى رفعته :

### - الخاتم ده حريمي . . ولا رجالي . . ؟

فقلت : إنه رجالى ، وإن الملك أرسله هدية بمناسبة عيد ميلاد رفعتك اليوم . فلبسه ورحمة الله عليه فورًا ، ونادى على المرحومة قرينته وقال لها : شوفي هدية الملك في عيد ميلادى . . عرف إزاى مقاس صباعى . . ١٦ لازم القلم السياسي بتاعه عارف كل حاجة .

وفى ختام الحكاية ، يقول صلاح الشاهد : هل كان الملك بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين النحاس باشا ، وبلغت الأزمات مع الحكومة الإنجليزية غايتها . وراء هذه الحملة الصحفية . وقد علمت أن الخاتم هدية ملكية . . ؟ ثم يصف الملك فاروق بأنه كان واسع الخيال في مناوراته .

 وعندما كان خصوم النحاس في عام ١٩٤٣ ، يتآمرون على تحطيمه ، ويبحثون عن مدخل لتحقيق غرضهم ، كان كل همهم تشويه صورته النبيلة في عيون الجهاهير. ويعترف الدكتور هيكل باشا ، في الجزء الثاني من مذكراته ، بهذه المحاولات التي كان هدفها « النيل من الوزارة الوفدية ومن نزاهة رئيسها بالذات ، فقد كانت شهرة النحاس باشا قائمة في نفس الجمهور إلى يومئذ على أنه رجل نزيه طاهر اليد ، وأنه ظل لذلك فقيرا لم يفد من الحكم شيئا . . » .

ولم يتأثر النحاس بهذه الحملات الشائنة ، وبقى على صلابته فى مقاومة عوامل الإغراء ، والارتفاع فوق الريب والشبهات ، فقد أصبح التجرد والتعغف من مكونات شخصيته ، وليس أدل على ذلك من تلك القصة التى عاصر أحداثها صلاح الشاهد ووقعت فى عهد وزارة الوفد الأخيرة :

فى أحد أيام نوفمبر ١٩٥١ ، حضر إلى رئاسة مجلس الوزراء السيد (م. ح) والسيدة قرينته ، وطلب الإذن بمقابلة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا دون موعد سابق . واستأذنت رفعة الرئيس الجليل ، الذى علم أن زوجة السيد المذكور هى مدام (ح) ، فأغرورقت عيناه بالدموع وأخبرني في صوت متهدج :

- إن لوالد هذه السيدة دينا في عنقى لا أنساه . .

فقد طلب والدها أن يرافق النحاس باشا ، عند نفيه وسعد زغلول وصحبه إلى سيشل سنة ١٩٢١ ، وكان الوالد مثل الإخلاص النادر ، إذ ارتضى النفى الاختيارى ، وكان يتولى رعاية النحاس باشا فى أثناء مرضه هناك . وكان النحاس نموذجا للوفاء الخالص ، حين تقدم الزوج ، على استحياء ، بطلب للرئيس الجليل، يطلب فيه الموافقة على تصدير مائة الف طن من الحديد الخردة الموجود فى الصحراء الغربية ، وهو من مخلفات جيوش الحلفاء ، إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، مقابل عشرة جنيهات عن كل طن يدفعها للحكومة المصرية . ووجد النحاس فى العرض مكسبا للخزانة المصرية ، يوازى مليون جنيه فوافق على الطلب النحاس فى العرض مكسبا للخزانة المصرية ، يوازى مليون جنيه فوافق على الطلب وكتب بذلك خطابا إلى أحمد باشا حزة وزير التموين لاستخراج التصريح المطلوب .

وطلب النحاس باشا من صلاح الشاهد أن يرافق السيدة وزوجها إلى وزارة التموين لإنجاز الطلب ، وفوجئ الشاهد بالرجل يقول له ، وهو يرمق سيارته الصغيرة المتواضعة: غدا يكون لديك سيارة كاديلاك ومعها ٢٠ ألف جنيه. وأثارت هذه العبارة شكوك صلاح الشاهد حول الصفقة، ثم تأكدت هذه الظنون عندما سأله أحد الصحفين عن أخبار الصفقة. فلما حاول الشاهد نفى الخبر، فاجأه الصحفى بالقول إن النحاس باشا وافق على الصفقة بعد أن قبض نصف مليون جنيه رشوة . .!!

وصعق صلاح الشاهد. فقد كان حاضرًا كل وقائع الفضيه من بدايتها ، وأدرك أنها خدعة يراد بها الإيقاع بزعيم من أنزه زعياء مصر في تاريخها الحديث والمعاصر. ولم يتردد الرجل ، وذهب إلى النحاس في بيته ، وكان يتوضأ للصلاة . . فحكى له ما سمع . فأمره باللهاب فورًا إلى أحمد حمزة باشا لاسترداد الطلب ، فلها جاء به أحرقه . . وكأن شيئا لم يكن . .

#### \* \* \*

إن القصص والوقائع المحفوظة في سجلات التاريخ عن نزاهة مصطفى النحاس، وشجاعته ووطنيته ، ستبقى نبراسا للأجيال القادمة وهي تبحث عن السطور المضيئة في تاريخنا المجيد . . وما أجمل تلك العبارة التي اختتم بها رفعت السعيد كتابه الرصين عن : السياسي . . والمناضل . . والزعيم . .

\* وتمضى الأيام . . ويتصور البعض أن النحاس قد طواه النسيان ، وأن هذه الصفحة الناصعة من تاريخ مصر قد نسيت . . وفجأة يعود النحاس ليثبت بموته أنه لم يزل حيا في قلوب الكثير من المصريين . وعندما مات مصطفى النحاس في ٢٣ أغسطس ١٩٦٥ تحولت جنازته إلى تظاهرة صاخبة ضمت قرابة مائة ألف متظاهر .

وأثبت النحاس أنه لم يزل حيا . .

وأنه لن يموت

وأثبت شعب مصر أنه \_ برغم كل شيء \_ يمتلك قدرا هائلا من الوفاء والعرفان بالجميل . . . . .

# على رصيف بنى سويف

فى أرشيف الصحف القومية ، صورة شهيرة للزعيم مصطفى النحاس وهو ينام فوق « دكة » خشبية على رصيف عطة بنى سويف . ولهذه الصورة قصة أرويها للجيل الجديد . . كى يعرف حجم التضحيات التى بذلها زعاء الوطنية المصرية من أجل حرية الشعب . . وصيانة الحقوق العامة التى حصل عليها بمقتضى دستور 1974 . . ثم راق لبعض الطغاة أن يعصفوا بهذه الحقوق ظنا منهم أن الشعب غير قادر على استيعابها .

ففى عام ١٩٣١ ، كان إسماعيل صدقى باشا لا يزال يحكم البلاد بالحديد والنار بعد أن ألغى دستور الشعب . . ورأى الوفد أن السكوت سيؤدى بالبلاد إلى كارثة . ويعود بها إلى عصر الحكم المطلق ، وينسف الحقوق الدستورية التى حصل عليها بعد كفاح مرير . . ولما كانت وسائل الاتصال بالجماهير قد تقطعت ، فقد رأى الوفد أن ينزل إلى الناس ليحثهم على مقاطعة الانتخابات التى أراد صدقى أن يتخذ منها أداة لتزييف إرادة الأمة ، وإسباغ الصبغة الشرعية على حكمه الإرهابى ، وإظهار نفسه بمظهر الحاكم الديمقراطى الذي يحكم باسم الشعب . . !!

وتحالف الأحرار الدستوريون مع الوفد ، في الكفاح من أجل سيادة الأمة . وانقلبوا على صديقهم القديم ، بعد أن تبين لهم عمق الهاوية التي يحفرها للنظام الدستورى . واختار النحاس باشا مدينة بني سويف \_ أحد معاقل الوفد العريقة لتكون أول محطة في مشواره الطويل الشاق . . وركب النحاس ورفاقه قطار الصعيد في إبريل ١٩٣١ ، ولكن ما إن هبطوا محطة بني سويف حتى وجدوها أشبه بثكنة عسكرية ، وإذا بقوات مدججة بالسلاح تحيط بهم وتحول بينهم وبين الحركة . .

بينها كانت الجهاهير تزحف نحو المحطة ، بعد أن علمت بوجود النحاس ، ففوجئوا بالمصفحات تحيط بمبنى المحطة إحاطة السوار بالمعصم . !!

كان الشهد رهيبا . . مهيبا . .

فلا الزعيم ورفاقه يستطيعون الخروج من المحطة . . ولا الجماهير تستطيع دخولها . . ولا يسمع في الميدان سوى هدير الناس تتخلله طلقات الرصاص .

ومرت ١٢ ساعة ، من الساعات الخالدة في تاريخ هذه الأمة وكفاحها البطولي من أجل الحرية ، واستخلاص حقوقها من براثن الطغاة . . واضطر النحاس ورفاقه الى النوم على الدكك المتناثرة فوق الرصيف ، حتى إذا لاح القطار المتجه إلى القاهرة تقدمت فرقة من الجيش وحملت النحاس ورفاقه قسرا . . ووضعوهم داخل القطار الذي عاد بهم إلى القاهرة ، بينها جماهير بنى سويف تغلى غيظاً . . وكمدا . . وعاد الزعهاء إلى بيوتهم مرهقين . . مجهدين . . ولكن هممهم لم تفتر . . وحماسهم لم يخمد . . وقرروا استمرار كفاحهم والاتصال مباشرة بجهاهير الشعب .

ففى يوم ٢ مايو ١٩٣١ ، قرر النحاس باشا ، ومعه محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، السفر بالقطار إلى طنطا ومعها حشد من أقطاب الحزبين . ونجح الوفد في اختراق نطاق البوليس الذي كان يحاصر أبواب محطة مصر ، فلما استقروا داخل القطار ، تفتق ذهن صدقى باشا عن حيلة لا تخطر إلا على بال كتاب القصص البوليسية ، فقد أمر مدير مصلحة السكة الحديدية ، بإجراء مناورة كان من نتيجتها فصل العربة التي يجلس فيها الزعماء عن بقية عربات القطار . ثم جاءت قاطرة خاصة فسحبت العربة ، واتجهت بها إلى طريق صحراء العماسية الذي يلتف حول القاهرة باتجاه حلوان ، حتى توقفت بهم وسط الصحراء . وتسامع أهل القاهرة بها جرى ، فانطلق بعضهم يحمل الماء والزاد إلى الزعماء المنفيين في العراء . حتى إذا جن الليل تحرك القطار نحو محطة المعسكر \_ قرب طرة \_ وجاءت فرقة مسلحة وأجبرت الزعماء على مغادرة العربة طوعا أو كرها . . !!

ولم تلن قناة مصطفى النحاس . . فقد كان العناد والصلابة من أبرز صفات هذا الرجل العظيم . . وفي اليوم التالى كان وفد المقاومة يستقل السيارات \_ في غفلة من السلطة \_ نحو بنى سويف للمرة الثانية ، وما إن استقر النحاس باشا ورفاقه في بي

رئيس لجنة الوفد ، حتى انطلقت الجموع كالطوفان تحيط بالبيت ، وهى تهتف بسقوط الطغيان والاستبداد ، ولم يتراجع صدقى باشا عن المضى فى خطته الدموية فأمر قوات الحكومة المسلحة بإطلاق النار على الجهاهير ، فقتل سبعة شهداء وجرح المئات ، وانتهى اليوم بإعادة النحاس باشا ورفاقه مخفورين إلى محكمة مصر بباب الخلق لمحاكمتهم .

ولم تضع دماء الشهداء سدى .

ولم يذهب كفاح الوفد من أجل الحرية والدستور هباء . . وأدرك الشعب حجم التضحية التي يبذلها النحاس ، كي يعود للشعب دستوره ولا يتحكم فيه الطغاة فلما كان يوم الانتخابات قاطعها الشعب مقاطعة أعادت إلى الأذهان ذكريات ثورة فلما كان يوم الانتخابات قاطعها الشعب مقاطعة أعادت إلى الأذهان ذكريات ثورة بسقوط المزيفين ، وسقط عشرات القتلي ومئات الجرحي ، ومع ذلك لم يخجل صدقي من أن يعلن نتيجة الانتخابات بعد موعدها بيومين في فيزعم أن نسبة اللين أدلوا بأصواتهم كانت ١٩٧٨٪ فكان أول من ابتدع هذا اللون من الفساد السياسي في تاريخ الانتخابات المصرية ، وكان الشعب يبتسم ساخرا وهو يستمع إلى هذه الأرقام ، وظل الشعب يواصل كفاحه الشريف بزعامة النحاس - حتى نجح في إسقاط دستور صدقي وإعادة دستور الشعب .

فهاذا كان حكم التاريخ . . ؟

لقد وضع إسماعيل صدقى .. رغم ذكائه وعلمه ودهائه .. في لائحة الساسة المكروهين أعداء الشعب والديمقراطية ، وبقى اسم مصطفى النحاس في سجل الخلود ، حارسًا للديمقراطية ، أمينا على حقوق الشعب ، طاهر اليد والقلب حتى النفس الأخير . . وما أصدق الذين هتفوا له يوم مماته : عشت فقيرًا . . ومت كريها . .

## أكذوبةرخيصة

تجمعنى بشخصية الزعيم الجليل مصطفى النحاس ، ألفة روحية وروابط نفسية وعقلية ، ليست وليدة الانتهاء الحزبى أو الولاء السياسى ، ولكنها حصيلة المعاناة والبحث والتنقيب في تلك الحقبة الخصبة من تاريخ مصر ، التي أفرزت كها هائلاً من رجال السياسة والحكم ، وكها نادرًا من ذوى العظمة الحقيقية ، وأصحاب البطولات الصادقة .

واجتلاء جوانب العظمة في شخصية مصطفى النحاس ، أمر حيوى ومطلوب في هذا العصر الذى اختلت فيه القيم ، واختلطت المفاهيم . واضطربت المقاييس حتى بات الناس في حيرة من أمرهم . . لا يميزون بين العظمة الحقيقية ، والعظمة المزيفة . . بل أصبح حديث العظمة نفسه حديثا بغيضا إلى عامة الناس ، ظنا منهم أن المساواة التي شاعت في عصرنا قد أزاحت العظماء عن عليائهم ، وأطاحت بهم إلى مهاوى النسيان ، وأصبح تلويث العظماء وتلطيخ سيرتهم متعة رخيصة عند ذوى النفوس الضعيفة . انظر إليهم وقد تعمدوا نسيان تاريخ ( النحاس ) وكفاح العريض ، ثم توقفوا أمام أكذوبة تقول إنه قبل يد الملك فاروق . . ولقد أعجبني وصف الدكتور رفعت السعيد لهذه الأكذوبة بأنها من نسج خيال أناس عاشوا حياتهم ، وصعدوا ، أو بالدقة هبطوا من أجل تقبيل حذاء كل حاكم وكل طاغية . حياتهم ، وصعدوا ، أو بالدقة هبطوا من أجل تقبيل حذاء كل حاكم وكل طاغية . ثم يعقب على هذه الفرية قائلا : إن علم التاريخ يأبي أن يرصد حادثة عارضة حتى لو كانت صادقة ليقيم تراث متكامل ، وتاريخ النحاس يكفيه ويزيد وبدون حتى لو كانت صادقة ليقيم تراث متكامل ، وتاريخ النحاس يكفيه ويزيد وبدون

ولا أتصور زعيها تعرضت سيرته للتشويه والافتراء والإيذاء . . كما تعرض مصطفى النحاس ، وفي يقيني أن الجيل الحالي الذي تلقى صورة النحاس مشوه

مزيفة . . أحوج من أي جيل سبق إلى معرفة الحقيقة حتى تستقيم رؤيته إلى معانى العظمة ، فيستعيد سلامتيه النفسية والعقلية . ويبرأ من داء الاجتراء على سير العظهاء، ويضع الأبطال في المكانة التي يستحقونها ، ولن يتيسر ذلك بقراءة الكتب التي صدرت عن الزعيم الجليل ، فهي شحيحة ومبتسرة ، ولكن التاريخ الحقيقي لمصطفى النحاس ، يوجد في تضاعيف الأحداث الجسام التي شغلت تاريخ مصر فيها بين ثورتي ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، عندئد سيستوى أمامك الرجل عملاقا ، ينطلق من القمقم الذي سجنه فيه أهل الجحود والنكران ، ولسوف تشعر بالندم الأنك لم تكن من مريديه قبل أن يموت . وستشعر بالأسى لأنك لم تحاول رفع الظلم الذي حاق به حيا وميتا ، وستشعر بسعادة غامرة لأن مصر أنجبت هذا الرجل الذي أحب مصر بكل ذرة من كيانه ، وقضى حياته مجاهدا في سبيل حريتها وكرامتها ، فلم يقبض من ثمن الجهاد سوى النفى والتشريد والتجنى والافتراء ، عاش فقيرا يستدين من البنوك ليستكمل نفقات معيشته . ولا يمد يده إلى مال الدولة . وكانت طهارة قلبه لا تقل عن طهارة يده ، والصورة التي يرسمها لنا ( على سلامة ، في كتابه عن مصطفى النحاس تعطينا صورة الرجل الطيب الودود والأب الحنون الذي لا يعرف الحقد ، يظهر ما يبطن . . ولا يعرف الكلام المنمق المزوق . وكل ما يحتويه قلبه ينطق به لسانه ، ولا يستطيع أن يبتسم في وجه شخص يكرهه ، ولا يستسيغ الكذب والمخاتلة والرياء . ولا يتصور إنسانا يحترف الكذب . . ويتخذه وسيلة للوصول إلى الغاية .

كيف استطاع الرجل ، وهو على هذا القدر من نبل الصفات ومكارم الأخلاق أن يخوض بحر السياسة الغامر بالأكاذيب والتضليل والدس والتآمر والابتسامات الصفراء المرسومة على شفاة غليظة . . ؟ إن الجواب على السؤال يبدو سهلا إذا تذكرنا أن السنوات التى قضاها مصطفى النحاس فوق كرسى الحكم لا تزيد على عُشر الفترة التى قضاها في أحضان الشعب . . مواطنا وقائدًا وزعيها . والعلية النادرون في تاريخ الأمم لم يستمدوا عظمتهم من زخارف الجاه والسلطة . . ولكن من الإيهان برسالتهم والارتباط بشعوبهم والارتقاء بنفوسهم في معارج الروح . والارتفاع عن الدنايا والصغائر ، وكان مصطفى النحاس نموذج العظمة السياسية التى فرضت على قلوب الناس خلال جبلين .

# صاحب المقام الرفيع

لم يسعدنى القدر ، برؤية الزعيم خالد الذكر مصطفى النحاس ، وإن كنت لا أنسى صوته الجهورى وهو يجلحل عبر موجات الأثير من قاعة البرلمان : « من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها » . كنت وقتها طالبا في المرحلة الثانوية لا أعرف بالضبط محتويات المعاهدة ولا الظروف التي دعت إلى إبرامها ، ولا مسببات إلغائها ، ولكنى أدركت أن حدثا خطيرًا يوشك أن يقع ، وما هي إلا أيام حتى تحولت مصر كلها إلى شعلة حماسة ، فالفدائيون يقتحمون معسكرات الإنجليز ، والشهداء يتساقطون ، والتظاهرات تعم أرجاء البلاد . . وذات يوم ، خرجت مصر في تظاهرة جارفة وتدفق الملايين على العاصمة للمشاركة فيها ، وكان شيئا مثيرا أن يخرج رئيس الوزراء مصطفى النحاس - ووزراؤه على رأس التظاهرة التي جابت شوارع القاهرة ، وأعادت إلى الأذهان ذكريات ثورة على مصر سحائب الظلهات ، واختفى اسم مصطفى النحاس ، وخيمت على مصر سحائب الظلهات ، واختفى اسم مصطفى النحاس من الصحف على مصر سحائب الظلهات ، واختفى اسم مصطفى النحاس من الصحف على مصر سحائب الظلهات ، واختفى اسم مصطفى النحاس من الصحف على مصر سحائب الظلهات ، واختفى اسم مصطفى النحاس من الصحف على مصر سحائب الظلهات ، واختفى اسم مصطفى النحاس من الصحف على مهر سحائب الظلهات ، واختفى اسم مصطفى النحاس من الصحف والإذاعة ، وبدأت حملة مشبوهة لتلطيخ اسمه وزحزحته عن زعامة الأمة .

وبعد الثورة ، وطرد الملك ، توقع الناس أن يعود مصطفى النحاس إلى موقعه الطبيعي بحكم زعامته لحزب الأغلبية ، وتطبيقا للمبدأ السادس من مبادئ الشيورة الذي يدعو إلى إقامة حياة ديمقراطية سليمة . . ولكن تبين أن مفهوم المديمقراطية عند قادة الثورة يختلف عن المفهوم الموروث عن الديمقراطية ، وتطوع المسفة والمنظرون \_ وهم للأسف من فئة كبار المثقفين \_ بإعطاء الديمقراطية عشرات التفسيرات ، وإلباسها أقنعة مزيفة تخفى وجهها الحقيقى الذي يتمثل فى الاحتكام إلى الشعب واحترام إرادته أيا كانت النتائج .

وكما عاش مصطفى النحاس بعيدا عن كرسى الحكم معظم سنى عمره

السياسى، في ظل النظام الملكى، قضى بقية سنوات عمره سجين بيته في ظل النظام الثورى . . وكما عمل القصر وأعداء الحرية وأحزاب الأقلية على تحطيم زهامة مصطفى النحاس ، واصلت الثورة العمل نفسه ، عن طريق سلسلة من المحاكمات تناولت أقرب الناس إليه ولم تتناوله شخصيا ، ربها \_ وهو الأرجح \_ خوفا من أن تزيده المحاكمة رفعة وتألقا . . فيصبح في ظل الثورة اصاحب المقام الرفيع؛ كما كان قبلها . هل كان مصطفى النحاس يستحق كل هذا العذاب الذي وقع له ، سواء في العهد الملكي أو في العهد الثوري , , ؟! يمكننا أن نعرف الجواب ، إذا عرفنا حقيقة الصراع ، الذي كان يدور حول قضية الحكم والسلطة ، منذ عرفت مصر النظام النيابي وما يستتبعه من قيام حكومة مسئولة أمام برلمان شعبي منتخب ، وإعلان دستور ينظم السلطات الثلاث ، ويحصر سلطة الملك في دائرة ضيقة ، ويجعل من الأمة \_ وليس الملك \_ مصدر السلطات ، ولم يكن من اليسير على القصر ، بحكم تراثه التاريخي وتكوينه الأوتوقراطي ، أن يتقبل هذا التحول الجذري الذي يجعل من الشعب سيدا . . بعد أن كان قطيعا يساس بالعصا . . كان هذا هو محور الصراع بين سعد زغلول والملك فؤاد ، وامتد فيها بعد بين مصطفى النحاس والملك فاروق . ولما كان الوفد هو الحزب الذي تجسدت فيه رغبة الأمة في التحور من تسلط الأسرة العلوية والتخلص من التسلط الأجنبي ممثلا في قصر عابدين وقصر الدوبارة ، فكان القصران يتصديان لهذه الظاهرة وإحباطها بشتى الحيل . . مرة عن طريق تزييف الانتخابات ، ومرة عن طريق اصطناع أحزاب تدين بالولاء للقصر وتحكم بطريقة غير دستورية ، ومرة بتشجيع قيام تنظيهات فاشية ترفع شعارات طنانة بقصد خداع الجماهير وصرفها من حول الوفد . . إلخ . . وكل هذه الأساليب كانت تلتقى عند هدف واحد هو حرمان المصريين من حكم أنفسهم عن طريق ممثلهم الشرعى وهو الوفد ، وإبقاء السلطة في يد القصر ليواصل سياسته القديمة في الحكم الاستبدادي، وإذا كان هذا السلوك مفهوما من جانب النظام الملكي، إلا أنه لم يكن مقبولا من جانب الثورة التي قامت أصلا للاحتجاج على الانتهاكات الدستورية التي أدت إلى إقصاء صاحب الحق الشرعي عن الحكم، وإسناده إلى من لا يستحق! إنه لغز لا يسهل فهمه إلا على ضوء شخصية مصطفى النحاس وفهمه العميق لقضية الديمقراطية .

#### التحاس .. أسيرا

كالأسير يعانى مرارة الجحود والظلم والإهمال ، ، فالصحف لا تذكر اسمه إلا تهجما كالأسير يعانى مرارة الجحود والظلم والإهمال ، ، فالصحف لا تذكر اسمه إلا تهجما أو تهكما . . أو تحاملا على جيل بأكمله ، جيل السياسيين المصريين الذين انتزعوا مقاليد مصر من براثن الترك والشركس والأغوات ، وبعد أن كنا نسمع أساء نوبار وباغوص ورفقى ولاظوغلى ، أصبح الوزراء يحملون أسهاء زغلول والنحاس والغرابلى و ق أبو ، علم وويصا واصف . . رجال من صميم الطينة المصرية . . ومع ذلك أصبحوا فوجدوا تاريخهم يتعرض لأبشع أنواع التلطيخ والتزوير . . وهم لا يملكون دفاعًا عن أنفسهم فيلوذون بأركان بيوتهم حتى يأتيهم الموت . !!

李 李 章

ذات يوم ، طرقت فتاة بيت الزعيم مصطفى النحاس ، قالت إنها مندوبة التعداد العام ، وتريد الحصول على البيانات عن سكان البيت ، واستقبلها الرجل العظيم هاشا باشا . . وجلس أمامها ليرد على أسئلتها . . وتهيأت الفتاة لعملها ففتحت حقيبتها وأخرجت أوراقها ، وبدأت في طرح أسئلتها فكان السؤال الأول : اسم سيادتك ؟ أجابها الرجل في هدوء : مصطفى النحاس ، ومضت الفتاة إلى السؤال الثاني دون أن يبدو عليها أي انفعال لدى ساعها اسم الرجل .

\_ وسيادتك بتشتغل إيه ؟

وهنا توقف الزعيم عن الرد ، والتفت إلى الفتاة مستفسرًا : هو أنت يابنتى ماتحرفيش مصطفى النحاس كان بيشتغل إيه ١١٩

وارتبكت الفتاة . وظهر أنها لم تفهم مغزى السؤال ، ولم تعرف شيئًا عن الرجل

الذى يجلس أمامها . . فسألها : أنت متخرجة منين ؟ قالت : من كلية الأداب . . قسم التاريخ . . وازداد حزن الرجل الذى أفنى عمره كله من أجل مصر . . ولم ينجب ولدا ولا بنتا . . وكان يعتبر كل أبناء مصر أولاده . . فسألها : وأنت تدرسين تاريخ مصر ألم تسمعى عن رجل اسمه مصطفى النحاس ؟!!

وأحمر وجه الفتاة خجلا ، وكأنها تعتذر عن جريمة لم ترتكبها . . فطيّب الرجل خاطرها حتى انصرفت .

من المسئول عن جريمة إهمال تاريخ هذا الرعيل من زعاء الوطنية المصرية ؟ ومن الذي يملك حق استمرار الحظر على تاريخ الزعاء في مناهج التعليم وبرامج الإعلام؟ إن التاريخ ليس ملكا لحكومة معينة ، وليس حكرا على نظام بعينه يعبث به كيف شاء ، وجريمة العدوان على التاريخ ، تدفع الأجيال اللاحقة ثمنها خصوصا عندما تكتشف الحدعة التي تعرضت لها ، فتكفر بكل ما يقال لها ، ولا يظن التليفزيون أنه يبث في نفوسنا روح الوفاء للخالدين عندما يصدع رءوسنا كل يوم بإحياء ذكرى بعض المشاهير ومعظمهم من المطربين والممثلين وكتاب الأغاني !! فليس هؤلاء هم رموز الوطنية التي تستحق التخليد ، فالناس تريد أن تعرف تاريخ زعائها الذين جحدناهم أحياء . . ونسيناهم أمواتًا . .

## رجسل فسلاح

كان أحمد حسين زعيم مصر الفتاة مطاردًا من قبل سلطات الاحتلال البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولكنه نجح فى الإفلات والهرب ، وقضى فترة طويلة مستخفيا عن الأنظار حتى ضاقت به سبل العيش ، فعزم على تسليم نفسه إلى الحكومة . . واستعرض أسهاء بعض الوزراء ، ليختار من بينهم الوزير الذى يسلم نفسه إليه ، وهو مطمئن إلى أن كرامته ستكون محفوظة ، ووقع اختياره على وذير الداخلية فؤاد سراج الدين لاعتبارات ترجع إلى زمالة قديمة بينها فى كلية الحقوق ورفع أحمد حسين سهاعة التليفون ، ورد عليه فؤاد سراج الدين مهللاً مرحبًا وقائلاً : أنت فين ياراجل ١٤ عاوزين نشوفك ١١ وقال الزعيم المطارد : وأنا أريد أن أقابلك . . فقال الوزير : إذن تفضل فى بيتى الآن إن شئت فقال أحمد حسين :

وركب أحمد حسين سيارة « تاكسى » ، ومضى إلى بيت فؤاد سراج الدين المواجه لبيت النحاس باشا رئيس الوزراء ، والشك يساوره فى أن يعد له الوزير كمينا لاعتقاله . فلها لم يجد حول البيت شيئًا مريبا سلم أمره إلى الله ، ودخل بيت سراج الدين ، واستقر فى غرفة الاستقبال وقد غمرته الفرحة « فلم أكن أتصور أن سيكون الرجل أمينا فى تنفيذ وعده إلى حد ألا يخطر النحاس باشا ، مع أنه كان يعلم أن هذا الموضوع فى الدرجة الأولى من اهتام رئيس الوزراء » .

وبعد حديث ودى بين الزعيم الهارب ، والوزير المسئول عن الأمن ، استأذن سراج الدين من ضيفه لعرض الموضوع على النحاس باشا . وبعد فترة \_ كأنها دهر عاد الوزير ليروى لضيفه تفاصيل اللقاء : لقد قلت للنحاس باشا إن عندى خبرًا

يسرك . . أحمد حسين عندى ! فقال النحاس باشا : وأين هو ؟ أريد أن أراه . . فقلت له : وهو أيضًا يريد أن يراك . . ولكن قبل أن تتقابلا أريد أن اتفق معك ياباشا على وجوب إخلاء سبيله . . • فالأستاذ أحمد حسين زميلي في الدراسة وصداقة المدرسة عندى أغلى ما أعتز به ، على أن هناك فوق ذلك كله ، أننى رجل فلاح ، ولقد جاء أحمد حسين إلى بيتى ، فلا يمكن أن يخرح من بيتى سجينا أو معتقلاً أبدًا . . وإذا كان الباشا يرى أن لا مناص من اعتقاله ، فليأذن لى أن أعود إلى الأستاذ أحمد حسين ، كي أساعده على الرجوع من حيث أتى . . ثم يعمل الباشا بوسائله الخاصة على اعتقاله . .

#### \* \* \*

مازلت أذكر الأثر الذى تركته هذه الواقعة فى نفسى ، عندما قرأتها لأول مرة وأنا فى مرحلة الصبا فى كتاب ( وراء القضبان ) الذى أصدره المرحوم أحمد حسين فى سلسلة \_ كتب للجميع \_ عام ١٩٤٩ ، ورغم مرور ٣٥ سنة فلا تزال رموز هذا اللقاء المثير تشع فى وجدانى إحساسًا بالدهشة والسعادة . . وكلما مضى الزمن اتسعت دائرة السعادة . . ا

كان المصريون فى ذلك العصر ، يقيمون اعتبارًا كبيرًا للقيم والتقاليد والأخلاق وكانت قواعد اللعبة ـ بين الدولة وخصومها ـ مصونة من الطرفين ، لا يجرؤ أحد على اختراقها وإلا قوبل بالخزى والعار من جانب ضميره أولا ومن جانب الضمير العام ثانيا . . وجاء زمن خبا فيه صوت الضمير إلى حد العدم . . وباتت القيم والتقاليد والأخلاق عملات قديمة غير قابلة للتداول . .

#### محكمة الثورة

كان إلغاء دستور ١٩٢٣ ، بعد نحو خسة شهور من قيام ثورة يوليو ١٩٥٧ مؤذنا بالصدام المباشر بين الثورة والوفد ، وسقوط شعرة معاوية التي كانت قائمة حتى ذلك الحين بين الطرفين ، لأن الكفاح من أجل الدستور كان خطا ثابتا في ناريخ الوقد ، ويسير في خط مواز لكفاحه من أجل الاستقلال ، وكانت تضحيات الشعب بقيادة الوقد . في سبيل الدستور ، وحمايته من العبث والعدوان ، لا تقل روعة وجلالا عن التضحيات في سبيل إنهاء الاحتلال ، ومنذ بداية المرحلة الليبرالية في عام ١٩٢٤ ، كان الوفد يحارب في حبهتين ا الجبهة الخارجية لاستخلاص حقوق البلاد الوطنية . والجبهة الداحلية لمقاومة استبداد القصر ، وإحباط محاولاته الدائبة لاستعادة حكمه المطلق ، مما دعا الوفد إلى خوض معارك دامية بلغت ذروتها في عهد إسماعيل صدقي ، وقد توج كفاح الوفد آنذاك بعودة دستور ١٩٢٣ ، في أواخر عام

وعندما قامت ثورة يوليو ، كان الشائع أنها ستعمل على صيانة الدستور وتصحيح الأوضاع الديمقراطية ، وإعادة الحياة النيابية ، وضيان الحريات الأساسية لجميع المواطنين ، خاصة بعد خلع فاروق المدبر الأكبر لكل الانقلابات والدسائس التي أدت إلى الفساد السياسي ، ولكن قيادة الثورة ما لبثت أن تنكرت للدستور وكشفت عن نياتها المعادية له ، عندما تجاهلت النص الدستورى الذي يقضى بدعوة البرلمان الوفدى المنحل ، لكي يؤدى أمامه أعضاء مجلس الوصاية على العرش اليمين المستورية . . ورغم أن انعقاد هذا البرلمان ، كان إجراء شكليا بحتا ، ولا يستغرق أكثر من بضع دقائق ، إلا أن الزمرة التي أحاطت بضباط الثورة ، وكلهم من رجال

الحزب الوطنى المعادين للوفد ، وجدوا في عقد البرلمان فرصة غير سارة تذكر الجهاهير بالنظام البرلماني الذي بيتوا النية على هدمه ، والسير بالنظام الجديد في طريق اللاديمقراطية ، فكان أن تفتقت عقولهم عن فتوى شيطانية بإمكانية أداء اليمين أمام مجلس الوزراء . . ووجدت الفتوى ذات المنفعة المزدوجة قبولا عند الضباط الشبان فقد شجعت هؤلاء على الاستهانة بالدستور والتحرر من قيوده ، ومن ثم المضى في طريق الانفراد بالحكم ، وفي الوقت نفسه ، حققت لمستشارى السوء فرصتهم للانتقام من الوفد وإقصائه نهائيًا عن حقه الشرعى في الحكم .

وجاء الإجهاز على الدستور في ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ ، علامة واضحة على أن الحكام الجدد قد اختاروا السير في الطريق نحو الديكتاتورية . . ثم لم تمض ثلاثة أسابيع حتى أصدر مجلس قيادة الثورة في ١٧ يناير ١٩٥٣ ، أمرا بحل الأحزاب السياسية التي تعتبر ركيزة النظام الديمقراطي . . وإزاء هذا المد الاستبدادي السافر قرر الوفد أن يخوض المعركة ، أيا كانت نتائجها رغم علمه بطبيعة القوى الجديدة التي يواجهها ، وأنها عناصر عسكرية بحتة تستند إلى قوة الجيش ، وانتهز زعيم الوفد مصطفى النحاس فرصة ذكرى وفاة سعد زغلول في ٢٣ أغسطس ١٩٥٣ فتحدى القرار الصادر بمنع الاحتفال بها ، وتوجه إلى ضريع سعد ، وألقى خطابا ساخنا هاجم فيه قيادة الثورة ، وندد بالأساليب التي اتبعتها في القضاء على الحرية والدستور والحياة النيابية ، وطالب بالإفراج فورًا عن المعتقلين ، كما هاجم سياسة حكومة الثورة في التفاوض مع الإنجليز بعد أن لفظت البلاد هذا الأسلوب ، كما ندد بموافقة الحكام الجدد على ما عرضه الإنجليز من منح السودان الحكم الذاتي، تمهيدًا للاستفتاء على مبدأ تقرير المصير . . وقال النحاس إن أماني مصر القومية قد أهدرت تمامًا على يد الحكام الجدد ، وحذر من مغبة التفريط في حقوق البلاد ، وقال إن الأمة يقظة لما يدبره لها أعداؤها في الخفاء ، واختتم خطبته بهذه العبارة : إن حبل الباطل قصير . . وهو إن طال شنق صاحبه .

وسرعان ما تحول خطاب مصطفى النحاس ، إلى منشور تداولته أيدى الجهاهير بكثافة ، وفي يوم الجمعة التالية للخطاب ، أدى النحاس الصلاة في مسجد أبي العباس المرسى بالإسكندرية ، فالتفت الجهاهير من حوله رغم الحصار الذي فرضه البوليس حول المنطقة ، ودارت معركة ساخنة بين رجال البوليس والمصلين .

ولمواجهة المجوم الصريح من جانب زعيم الوفد ، لم تلجأ قيادة الثورة إلى مقارعة الحجة بالحجة ، ولكنها لجأت إلى النهج التعسفي لتصفية منتقديها وتلويث سمعتهم والتشهير بهم عن طريق المحاكمات الثورية ، وفي ١٦ سبتمبر ١٩٥٣ أعلن اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس قيادة الثورة في مؤتمر جماهيري بميدان عابدين الأمر الخاص بتشكيل محكمة الثورة ، وقدم صلاح سالم الذي كان يوصف بأنه ﴿ لسان الثورة وميزانها الحرارى ، تحليلاً لخط العنف الذي قررت الثورة المضى فيه. وبعد أن شن هجوما عنيفا على الوفد وزعامته ، فاجأ الجماهير بوجود وثيقة «خطيرة » قال أنها وقعت في أيدى مجلس الثورة وتكشف عن التحالف الوثيق بين «الاستعمار الأجنبي والخونة الرجعيين في هذه البلاد » ، ولكن صلاح سالم حذف \_ وهو يقرأ الوثيقة المزعومة \_ اسم الدولة الأجنبية التي تشجع المتمردين من رجال الأحزاب ، وقد جاء فيها أن هدف التحالف بين تلك الدولة ( المجهولة ) ورجال الأحزاب هو ( بث روح السخط ضد النظام وتشجيع الأفكار التي تنادي بعدم صلاحيته وتدعيم الوسائل التي تؤدى إلى تدهور الاقتصاد ، وذكر صلاح سالم أن العمل لقلب عجلس الثورة كان عددا له مدة أقصاها يوليو ١٩٥٤ . وأعلن في نهاية تلاوته لتلك الوثيقة قرارين هامين يضعان سياسة الصرامة والشدة محل التطبيق هما: إعادة الرقابة على البرقيات الصحفية الواردة والصادرة من مصر ، كما أن الرقابة على الصحف داخل مصر « ستظل قوية تضع سيفها فوق كل رأس مخرب يريد تبلبل الأفكار ( ذاكرًا ) أننا سنطهر بقوة وعزم كلّ ركن من أركان هذه الدولة ، ولن ننساك في هذا المضيار ياصاحبة الجلالة الصحافة »!! أما القرار الثاني فيقضى بتشكيل محكمة الثورة من عبد اللطيف البغدادي رئيسًا ، وأنور السادات وحسن إبراهيم عضوين.

وفى دراسة تحليلية لتلك الوثيقة التى قرأها صلاح سالم ، يقول صلاح عيسى إن الوثيقة لم تنشر ، ولم يواجه أى ممن قدموا للمحاكمة بوقائع محددة تستند إليها ، ثم يصف هذه الوثيقة بأنها نص للدراسات المشتركة التى جرت بين أجهزة السفارة الأمريكية \_ ومن بينها وكالة المخابرات المركزية \_ وبين أجهزة الأمن الناصرية ، على النحو الذى أشار إليه رجل المخابرات كوبلاند فى كتابه ( لعبة الأمم ) [ وكان هذا قريبا من مسرح الأحداث المصرية فضلا عن أنه كان واحدًا من المستشارين المقربين

لجمال عبد الناصر آنذاك ] فقد ذكر أنه في صيف ١٩٥٣ بدأت السفارة الأمريكية تقلق على الوضع في مصر ، بعد أن شعر السفير الأمريكي جيفرسون كافرى بالقلق على الطام عبد الناصر إذ إن الحركات المضادة عادة ما تظهر في رأى وكالة المخارات المركزية بعد مرور عام واحد على الحركة السابقة .

وبدأت محكمة الثورة تمارس نشاطها فى جو مشحون بالسموم ضد الوفد ، بل يذهب أحمد حمروش إلى « أن محكمة الثورة كانت موجهة أساسا ضد الوفد وبقايا الأحزاب السياسية » . . ولما كان الوفد أخطر هذه الأحزاب ، فقد ناله نصيب الأسد من القضايا ومن التشهير الذى لم يتعفف عن البذاءة والابتذال ، ويرى صلاح عيسى أن محاور الهجوم على الوفد تركزت فى التأكيد بأن ثقة الشعب به ـ التى تمثلت فى حصوله على الأغلبية المطلقة فى انتخابات ، ١٩٥ لم تكن فى محلها ، وفى الهجوم على النظام البرلمانى وصولا إلى تأكيد فكرة إمكانية الاستغناء عن البرلمان ، وفى التشكيك فى وطنية كل العناصر التى كانت مؤثرة على مسرح الأحداث ، وفى السعى التلويث كل القيادات الحزبية وبالذات قيادات الوفد ، بحيث تبدو أمام الجاهير شخصيات تافهة ، وفى هذا الصدد نال زعيم الوفد مصطفى النحاس من التشهير ما لمخصيات تافهة ، وفى هذا الصدد نال زعيم الوفد مصطفى النحاس من التشهير ما لإدراكهم صعوبة ذلك ، وربها خشيتهم من أن تؤدى محاكمة الرجل إلى مزيد من التعاطفين الشخصى والسياسى معه ، إذ لم يكن من السهل تجاهل المكانة التى ظل النحاس يشغلها فى نفوس الشعب المصرى ، منذ تولى زعامة الوفد عقب وفاة سعد النحاس يشغلها فى نفوس الشعب المصرى ، منذ تولى زعامة الوفد عقب وفاة سعد زغلول .

وإزاء صعوبة محاكمة مصطفى النحاس ، فقد قرر الضباط الأحرار محاكمة أقرب الناس إليه : قرينته السيدة زينب الوكيل ، وساعده الأيمن فؤاد سراج الدين ، وابنه في حقل الجهاد إبراهيم فرج .

### خصم وحكم

في الساعة العاشرة من صباح الأربعاء ٩ ديسمبر ١٩٥٣ ، مثل فؤاد سراج الدين أمام محكمة الثورة المشكلة برئاسة قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى ، وعضوية البكباشي أنور السادات وقائد الأسراب حسن إبراهيم ، أعضاء مجلس قيادة الثورة بالإضافة إلى البكباشي زكريا محيى الدين الذي رأس مكتب الادعاء يعاونه ستة أعضاء نصفهم من الضباط الحقوقيين والآخرون من وكلاء النيابة ، وكان صلاح سالم وهو يعلن أمر تشكيل المحكمة في المهرجان الشعبي بميدان عابدين ، قد اقترح أن تعقد المحكمة في ميدان التحرير لبث الذعر في قلوب الناس ، ولكن اقترح أن تعقد المحكمة في ميدان التحرير لبث الذعر في قلوب الناس ، ولكن على الشورة لم يأخذ باقتراحه ، وقرر عقدها في مقر مجلس قيادة الثورة الدي كان في ما مقرا لنادي اليخوت الملكية ، ويشغل أجمل بقعة على قمة جزيرة الزمالك حيث يتفرع النيل وتنساب أمواجه الرقيقة تحت عتباته في جمال وروعة وسكون .

وفى الطابق الثانى الذى خصص للمحكمة ، ارتفعت لافتة مكتوب عليها باللون الدموى (سكون) وتدلى على باب القاعة رقم ٨ المخصصة للجلسات ، علم الشورة المثلث الألوان ، وكتب على الجزء الأبيض منه ( محكمة الثورة ) بينها تناثرت على جدران القاعة آيات قرآنية تم اختيارها بعناية مثل ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ ﴿ وليجدوا فيكم خلظة ﴾ ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ .

وقد نص أمر تأليف المحكمة ، على أن يتولى مكتب الإدعاء القبض على المتهمين وإخطارهم بالتهم المنسوبة إليهم قبل موعد المحاكمة باربع وعشرين ساعة على

الأقل ، ولا يجوز تأجيل القضية لأكثر من مرة واحدة ولمدة لا تزيد على ٧٣ ساعة ويتولى الدفاع عن المتهم محام واحد في جميع التهم المنسوبة إليه ، ولا يجوز المعارضة في هيئة المحكمة أو أحد أعضائها بأي طريقة من الطرق أو أمام أية جهة من الجهات، وكذلك لا يجوز الطعن في إجراءات المحاكمة .

ورغم أن اللواء محمد نجيب، يعترف فى كلمته للتاريخ بأن هذه المحكمة أشاعت الفزع والرعب فى نفوس الناس ، ورغم أنه يقول إنه اعترض على فكرة المحاكم الثورية لأنها تجعل من قادة الثورة خصها وحكها فى الوقت نفسه ، فإن معارضته لم تمنعه من توقيع أمر تشكيلها والمشاركة فى الزفة التى صاحبت ذلك بميدان عابدين .

وفي حين يذكر بعض الكتاب أن محكمة الثورة كانت تعقد جلساتها في سرية ولا يحضرها إلا أعضاؤها والمتهم وزكريا محيى الدين هو ومعاونوه ، وأن المتهمين كانوا يواجهون المحكمة بلا تحقيق ، ويوجه الإدعاء التهمة إليهم كنوع من المفاجأة (11) فإن أحد الضباط الذين جمعوا وقائع المحاكيات الأولى يقول في صدر كتابه إن رجال القانون والتشريع في مصر كانوا يتهافتون على حضور هذه المحاكيات ، وإنهم أعجبوا ببراعة المناقشات التي تدور فيها والأسئلة التي يوجهها أعضاء المحكمة كها لو كانوا من رجال القضاء العريقين (11) ثم يصف المحكمة بأنها ابتدعت نظها جديدة في المحاكيات ، فهي تنجز في أيام ما تنجزه المحاكم العادية في شهور بل سنوات (11) ومع ذلك كان العدل رائدها وذلك نشهادة المتهمين أنفسهم حتى إن بعضهم تقدم بالشكر على معاملته بالعدل والقسطاس (11) .

وكانت محاكمة فؤاد سراج الدين أطول محاكيات الثورة ، فقد استغرقت ٤٥ جلسة ، وكانت أقرب إلى محاكمة عهد ما قبل الثورة كله منها إلى محاكمة فرد وتطرقت المحكمة إلى قضايا لا علاقة لسراج الدين بها ، وطرحت أمورًا خارجة على موضوع القضية ، وبلغ الابتدال بالمحكمة أن حشدت رهطا من السياسيين القدامي اللين كانت لهم مواقف معادية للوفد ، وأخذت تحرضهم على سرد قصص وحكايات تسيء إلى الزعامة الوفدية وتشوه صورتها في نظر الجاهير. وبلغ الإسفاف بأحدهم أنه تطرق إلى الجياة الخاصة للزعيم مصطمى النحاس ، وكان بعضهم يتبرع

باختلاق وقائع كاذبة لكى يشترى حريته وينجو من المحاكمة أمام المحكمة نفسها عن جريمة العيالة للإنجليز . وكان هذا مسلك رئيس الديوان الملكى السابق حسين سرى الذى تبرع بفبركة قصة تقبيل النحاس ليد الملك عقب تشكيل وزارة ١٩٥٠ وعن طريق هذه الحملة التشهيرية الواسعة تحقق الهدف الأصيل من المحاكمة \_ كها اعترف رئيسها في مذكراته بعد ربع قرن \_ من أن القصد من المحاكمة كان التشهير بالزعهاء حتى يفقد الشعب الثقة بهم .

وتحولت محاكمة فؤاد سراج الدين \_ أكبر شخصية مؤثرة في الوفد بعد مصطفى النحاس \_ إلى مهرجان لتوجيه أقسى الطعنات إلى الوفد ، بل و إلى عهد ما قبل الثورة كله ، وانساقت المحكمة في هوجة التجريح ، حتى عميت عليها الأمور واختلطت الحقائق بالضغائن ، ولم تعد تفرق بين الأحقاد السياسية والاعتبارات الوطنية التي تعلو فوق الخلافات ، فتحول الأبيض إلى سواد ، وأصبح العمل الوطني في نظر المحكمة جريمة يلام عليها فاعلها . وبلغت المحكمة ذروة المغالطة ، عندما عابت على حكومة الوفد موقفها من معركة التحرير التي أعقبت إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وعدم الاستعداد لها ، متجاهلة الدور البطولي الذي لعبته هذه الحكومة في تدعيم الكفاح المسلح وتسهيل مهمة الضباط \_ ومنهم رئيس المحكمة \_ في مقاومة الاحتلال البريطاني .

وقد استفزت هذه المغالطة البشعة الكتاب الأحرار الذين عاصروا هذه الأحداث بمن فيهم المنتمون إلى حركة الجيش ، فكتب أحمد حمروش منتقدا مسلك المحكمة بقوله : وهكذا تحول الموقف الذي يستحق الفخر في تاريخ الوفد . . إلى موقف يجلب إليه العيب والأسف (11) ووجهت الطعنة في غير موضعها فمعارك التحرير والنضال الشعبي لا يشترط أن تستكمل تماما في بدايتها . . بل هي تنمو وتزداد صلابة مع كفاح الشعب المسلح ، وهو ما حدث بالفعل قبل حريق القاهرة .

وإذا كان الشر لا يخلو من بعض جوانب الخير ، فإن وقائع المحاكمة كشفت عن خطأ كثير من المقولات التي كانت شائعة حول العلاقة بين الوفد والقصر ، وقد ذكر صلاح عيسى بعض نهاذج لهذه الحقائق في مقدمة الجزء الأول من وقائع محاكمة سراج

الدين ، وقال إن المحاكمة أزاحت الستار عن مواقف بطولة وهمية نسبها البعض لأنفسهم على حساب الوفد ، ومنهم زكى عبد المتعال ـ الشاهد الذى أدانته محكمة الثورة في حكمها ـ وكانت بعض الصحف قد قدمته كبطل ، ثم ثبت بعد ذلك عالته للسراى فضلا ، عن صلاته الوثيقة بالدوائر الأمريكية ، كما افتضح موقف النائب العام الأسبق محمد عزمى من تحقيقات قضية الأسلحة الفاسدة التى ذهب بعض المؤرخين ( الرافعى ) إلى اتهام الوفد بأنه المسئول عن طرده من منصبه ، تلبية لرغبة السراى واعتبروه بطلا ، ثم ثبت فيها بعد أنه هو الذى تواطأ ـ على غير رغبة الحكومة الوفدية ، لإفساد قضية الأسلحة الفاسدة لحساب السراى طمعا في مرتب كبير .

وتضمن الإدعاء على فؤاد سراج الدين تها من كل لون وجنس ، مثل خيانة أمانة الحكم واستغلال النفوذ ومهادنة الملك وعدم مراعاة مصلحة الوطن وعرقلة تحقيقات الأسلحة الفاسدة ، بالإضافة إلى الجهد الخارق الذي بذله محاميه الوحيد وصديقه عبد الفتاح حسن باشا ، فقد تصدى سراج الدين لتفنيد هذه الدعاوى فى شجاعة فذة لفتت إليه أنظار المؤرخين ، ووصفه بعضهم بأنه كان أشجع المتهمين الذين واجهوا المحاكم الثورية ، وأنه انبرى للدفاع عن نفسه وعن حزبه دفاعا مجيدًا استغرق خس جلسات كاملة فنجح فى ذلك نجاحا نادر المثال بها يؤكد ذكاءه واقتداره السياسى .

ورغم أن رئيس المحكمة أظهر في بعض مراحل المحاكمة تقديرًا لشخص فؤاد سراج الدين ، وقال له إن المحكمة لا تشك في نزاهتك . وأيد الإدعاء هذا الرأى ورغم وضوح تهافت الاتهامات المصوبة إلى سراج الدين ، فقد صدر الحكم عليه بالسجن ١٥ عامًا ، لأنه كان لابد أن يختفي من المسرح السياسي ليخلو الجو أمام الضباط الشبان للانفراد بالحكم دون إزعاج ، وعبر جمال عبد الناصر عن هذه الحقيقة عندما صرح للذين تحدثوا إليه بشأن التصديق على الحكم فقال : « إن فؤاد سراج الدين كرجل سياسي ، يعرف لماذا حكم عليه . . ومتى سيخرج » . . وأوضح عبد الناصر لأسرة سراج الدين الضرورة التي حتمت عليه وضع زعيمهم خلف عبد الناصر لأسرة سراج الدين الضرورة التي حتمت عليه وضع زعيمهم خلف القضبان ، وهي تخضع لعاملين أحدهما خارجي وهو عودة الأحزاب السياسية في سوريا بعد الإطاحة بحكم العقيد الشيشيكلي ، وهو الأمر الذي سبب أرقا لرجال

الثورة بصفة عامة ، وعبد الناصر بصفة خاصة ، لأنهم كانوا يدركون أن مجرد وجود الأحزاب يشكل خطرا على سلطتهم . . أما العامل الداخلى ، فهو أن جمال عبد الناصر كان يستعد للقضاء على الإخوان المسلمين .

وهذا هو منطق العدل الثوري.

وقد أنجز عبد الناصر وعده . . ولم يغادر فؤاد سراج الدين السجن إلا بعد أن أجهز عبد الناصر على الإخوان . . وخلص له حكم مصر .

#### خيانة الوطن

كانت محاكمة إبراهيم فرج أمام محكمة الثورة ، أشبه بالكوميديا السوداء . . أو مسرحيات العبث التي تتحرك فيها الأحداث خارج نطاق العقل والمنطق . . !! رجل أفنى ثلاثين عاما من شبابه في أتون الحركة الوطنية ، وكيلا للنيابة فمحاميا فوزيرًا - وكان في كل مراحل حياته طاهر اليد والقلب - ثم يفاجاً بتقديمه إلى المحاكمة بتهمة خيانة الوطن والاتصالات بجهات أجنبية والاشتراك في جمعية سرية لمناهضة عهد الثورة . . !! وتخرج الصحف وهي تحمل في صدر صفحاتها هذه التهم الجسيمة التي تطعن الرجل في شرفه الوطني . . وعندما يمثل أمام المحكمة ، يقف ممثل الإدعاء فيطلب عقد الجلسة سرية « حرصًا على المصلحة العامة ) . .

ولأن « مصلحة الأمة فوق مصلحة المواطن » . . وتوافق المحكمة لتبدأ أبشع ما رسات عهد الثورة في تلويث سمعة رجال الحركة الوطنية . ودمغهم بأحط ما يمكن أن يدمغ به مواطن في سمعته وشرفه ، وهو الخيانة الوطنية . . ثم حرمانهم من حق الدفاع الشرعي عن أنفسهم أمام الرأى العام . . !!

رجل يواجه حملة تشهير على أوسع نطاق .. في الصحف والإذاعات والمهرجانات الشعبية ، فإذا وقف أمام المحكمة ليكشف زيف التهم المشيئة الموجهة إليه تقرر المحكمة سرية الجلسة ، ويظل الرأى العام على جهل تام بها يجرى داخل القاعة المغلقة ، إلى أن يحكم على الرجل ويمضى إلى السجن ! ويبقى سيف التشهير والتجريح معلقا في رقبته . ويظل الناس يلوكون التهم التي أذاعتها محكمة الثورة وكأنها حقيقة مؤكدة . . دون أن يعرفوا خلفياتها وتفاصيلها . . ومصداقيتها ، فإذا كان الرجل قد اتصل بجهة أجنبية ، أليس من حق الرأى العام أن يعرف اسم هذه

الجهة . . ؟ وكيف تم اتصاله بها . . ؟ وماذا دار خلال الاتصال . . ؟ وما هو الشق الجنائي فيها . . ؟؟ وما هي الأضرار التي سببها لمصلحة البلاد العليا . . ؟؟

ولكن محكمة الثورة ، لم تضع في اعتبارها كل هذه التساؤلات التي تخضع لقواعد الحق والعدل والمنطق ، ومضت في تنفيذ مخططها الذي رسم لها من أول يوم ، وهو التشهير بقادة الحركة الوطنية حتى يخلو الجو أمام البراعم الطاهرة من ضباط العهد الجديد . . وفي الجلسة السرية الأولى سمحت المحكمة بوجود ممثل الإدعاء ومحامي المتهم - الدكتور محمد صلاح الدين - فبدأ مرافعته وهو لا يدرى شيئًا عن وقائع التهم الموجهة إلى موكله . . ولم يجد أمامه من أدوات الدفاع سوى استعراض حياة إبراهيم فرج ، منذ كان طالبا في مدرسة الحقوق يشارك في التظاهرات الوطنية التي خرجت تحطم صورة الملك الطاغية أحمد فؤاد ، ولم تفارقه نزعته الوطنية المشبوبة ، وهو وكيل للنيابة العامة ، يرفض تنفيذ تعليهات الديكتاتور إسهاعيل صدقى ، التي أصدرها إلى رجال النيابة بعدم التعرض لرجال الإدارة الذين مارسوا أعمال التعذيب مع المواطنين وإنها مضى إلى سجن المنيا ليطلق سراح المعتقلين ، ويفتح محضرًا للتحقيق مع زبانية التعذيب ، ثم ينتقل المحامي إلى عرض موقف الوزير إبراهيم فرج من النظام الملكي وكيف كانت صلته بالقصر لا تتعدى حدود مسئوليته كوزير ، فلم يعرف عنه يوما أنه كان على صلة بفاروق أو بأحد رجال حاشيته . وإذا كانت هناك صلة بين إبراهيم فرج والقصر الملكي . فلا يمكن أن تكون إلا علاقة العداء المستحكم ، وتساءل الدكتور صلاح الدين : هل يمكن لرحل هذا موقفه أن يتآمر على الثورة التي طردت الملك ! ثم يستعرض موقف إبراهيم فرج حين كان وزيرًا للحارجية بالنيابة ، وكيف كان يتسم بالصلابة مع المفاوضين الإنجليز . . ثم يتحدث عن ثروة إبراهيم فرج وكيف غادر الوزارة وهو لا يملك من حطام الدنيا شيتًا. . وينتهى المحامي من مرافعته دون أن يتعرض لتفنيد التهم الموجهة إلى إبراهيم فرج ، لأنه لم يكن لديه بيان عنها . . أو \_ لو شئت الدقة \_ لم يكن مسموحا له بالتعرض لها . وكل ما قاله حول الاتصال بدولة أجنبية أنه تساءل \_ وكأنه يضرب الودع \_ يمكن تطلع الإنجليز . . ! ويمكن تطلع اليهود . . ! أما عن الادعاء الثاني وهو الاشتراك في جمعية سرية مناهضة للثورة ، فقال إنه فهم أن هذه الجماعة هم الشيوعيون . حيث إن إبراهيم فرج المحامي قبل الدفاع عن أحد رجال اليسار الوطني - وهو المرحوم يوسف حلمي

فى القضية التى رفعها أمام مجلس الدولة . . ؟؟ فهل يكون قيام المحامى بواجبه جريمة يحاكم من أجلها . . ؟؟

وبعد أن فرغ الدكتور محمد صلاح الدين من دفاعه ، أمرت المحكمة بإخراجه من القاعة مع ممثل الادعاء ، وانفردت المحكمة بالمتهم وناقشته فيها هو منسوب إليه ثم أصدرت حكمها عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم تعطف مجلس الثورة بتخفيف الحكم إلى السجن لمدة خمسة عشر عاما

وتمضى الأيام . . وينكشف المستور . . ويتبين أن جريمة \* خيانة الوطن والاتصال بجهات أجنبية ، تتلخص في حضور إبراهيم فرج زيارة المجاملة التي قام بها الزعيم الهندي جواهر لال نهرو للزعيم مصطفى النحاس يوم ١٨ يونيو ١٩٥٣ . وكان من التقاليد التي يحرص عليها نهرو زيارة مصطفى النحاس باشا ، امتثالا لوصية والده د موتيلال نهرو ، الذي كان تربطه بالنحاس علاقات تاريخية قديمة وكان نهرو \_ كزعيم ليبرالي حر التفكير \_ يظن أن تغيير نظام الحكم في مصر بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو لا يحول دون لقائه التقليدي بمصطفى النحاس ، فبعث من لندن حيث كان يحضر مؤتمر الكومنولث ـ برقية إلى سفيره في القاهرة ، السردار بانيكار يطلب فيها تحديد موعد لمقابلة النحاس أثناء توقف نهرو في القاهرة . واتصل السفير بإبراهيم فرج ، وأبلغه برغبة نهرو ، فلما نقل إبراهيم فرج الرسالة إلى النحاس باشا أبدى اعتذاره حتى لا يسبب حرجا لنظام الحكم الجديد ، وقال : ليس من مصلحة العلاقات بين مصر والهند أن تكون هناك زيارات ، لأن النظام يعتبرنا خصومه . . ولكن نهرو أصر على إتمام الزيارة ، وقال إنه إذا لم يقامل مصطفى النحاس ، فلن يتوقف في مصر ، وسيسافر مباشرة إلى نيود لهي ، وعند ثل وافق النحاس ، وطلب أن تكون المقابلة في منزله بجاردن سيتي ، وعندما وصل نهرو إلى مطار القاهرة استقبله إبراهيم فرج نيابة عن النحاس باشا ، ورافقه حتى محل إقامته في فندق سميراميس ,

وفى الموعد المحدد للزيارة حضر نهرو وبرفقته سفير الهند ، فاستقبله النحاس باشا ، ومعه إبراهيم باشا فرج الذى تولى الترجمة بين الزعيمين ، ودار بينها حديث ودى وتاريخى حول علاقة النحاس بوالده موتيلال منذ مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ عندما كان موتيلال برفقة عاندى ، وكانا يسكنان فى فندق واحد ، فنشأت بينها

علاقة طيبة توطدت من خلال لقائها اليومى فى مؤتمر الصلح ، وكان موتيلال يبدى إعجابه بالوفد و بزعامة سعد زغلول و نجاحه فى تحقيق الوحدة الوطنية بين المصريين . وقال نهرو للنحاس (أنا أعتبرك معلما لجيلين فى الهند) ، ويقصد جيله وجيل والده وتصادف إعلان إلغاء النظام الملكى ، وقيام النظام الجمهورى فى ذلك اليوم ، فقال النحاس باشا لنهرو : أنا سعيد جدا بأنى أعيش حتى أرى بعينى رأسى إعلان الجمهورية فى مصر ، لأننا كنا دائها متهمين لدى الملك فؤاد ثم الملك فاروق بأننا غير موالين للعرش ، وأننا نسعى لإقامة الجمهورية ، والتخلص من هذه الأسرة ، فأراد الله أن أعيش لأرى أن هذه الأسرة زحزحت عن مصر وانتهى حكمها إلى الأبد وأرجو الله أن يوفق رجال الجيش فى أن تكون جهورية ديمقراطية .

وانتهى الاجتماع . . وقام النحاس برد الزيارة لنهرو فى مقر السفارة الهندية ، قبل آن يعود إلى بلاده . . وبعد شهرين كان إبراهيم فرج يقف أمام محكمة الثورة بتهمة خيانة الوطن والاتصال بجهة أجنبية بهدف الإضرار بالنظام الحاضر ومصلحة البلاد .

## الأيسام السسود

سيدخل يوم ٢٦ فبراير ١٩٨٦ ، تاريخ مصر الحديث من أضيق أبوابه : باب التدمير والتخريب وسفك الدماء . . ليصبح ثالث الأيام السوداء التي شهدتها مصر خلال ثلث قرن ، وخضبت شوارعها بالدماء ، وشوهت وجهها بآثار الدمار ولوثت سهاءها الصافية بالدخان الأسود .

في اليوم الأول-٢٦ يناير ١٩٥٢ - احترق قلب القاهرة في الوقت الذي بلغت فيه الحركة الوطنية ذراها بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واشتعال جدوة الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال البريطاني في قناة السويس ، ومع إخماد الحرائق في نهاية اليوم العصيب ، انطفأت جدوة النضال الوطني ، وأقيلت حكومة الوفد ، ودخلت البلاد مرحلة البيات والانكفاء على الجراح ، واستمرت المرحلة ستة شهور بالتهام ، انتهت بقيام حركة الجيش في ٢٣ يوليو .

وفى اليوم الثانى ـ ١٨ يناير ١٩٧٧ ـ خرجت جماهير القاهرة للتعبير عن سخطها على القرارات الفجائية التى أصدرتها حكومة ممدوح سالم برفع أسعار السلع الأساسية، وتحول السخط إلى تدمير وإحراق وتخريب، اتسعت رقعته فى اليوم التالى إلى خارج العاصمة، وكانت حصيلة الأحداث الدامية ٧٩ قتيلا و ٢١٤ جريحا.

وفى اليوم الثالث ـ ٢٦ فبراير ١٩٨٦ ـ تمردت قوات الأمن المركزى على أربابها وخلعت قيود الضبط والربط وتحولت إلى عصابات للقتل والتدمير ، ولأول مرة فى التاريخ ينقلب حراس الأمن إلى أدوات للاخلال بالأمن وإشاعة الفوضى ، وإشعال الحرائق وتخريب المنشآت السياحية ، وبلغت حصيلة اليوم الدامى ٣٦ قتيلاً وأكثر من ٣٠٠ جريح .

ومع اختلاف الدوافع والظروف بين الأيام الثلاثة ، إلا أن هناك أوجها للتشابه والتهايز بين كل منها :

فى اليوم الأول ـ ٢٦ يناير ـ واليوم الثالث ٢٦ فبراير ـ لعبت قوات ( الأمن ) دورًا أساسيًا فى تحريك الأحداث مع اختلاف النتائج ، أما فى اليوم الثانى ـ ١٨ يناير ـ فقد كانت الجهاهير ـ وخاصة الفئات الشعبية ـ هى المتحرك الوحيد على المسرح .

فى اليوم الأول: انحصرت الأحداث فى نطاق مدينة القاهرة \_ وقلبها بالذات واليوم الثانى انطلقت أحداثه من القاهرة ، ولكنها انتشرت إلى مدن أخرى فى اليوم التالى ، وفى الأحداث الأخداث \_ فى وقت واحد \_ داخل المعسكرات المواقعة فى نطاق القاهرة الكبرى وبعض مدن الصعيد أسيوط وسوهاج .

ف أحداث الأيام الثلاثة لعبت القوات المسلحة الدور الفعال في إلحماد الفتنة وإنهاء الاضطرابات وفرض حظر التجول .

بدأت أحداث اليومين الأولين \_ الأول والثانى \_ بتظاهرات غاضبة سرعان ما تحولت إلى عمليات للسلب والنهب والتدمير ، أما أحداث اليوم الثالث فقد بدأت منذ اللحظة الأولى بأعمال التخريب .

فى اليومين الأول والثانى شاركت جماعات من الرعاع واللصوص والبلطجية فى أعيال السلب والنهب ، أما فى اليوم الثالث فقد اقتصرت هذه الأعيال على المتمردين من جنود الأمن المركزى .

#### \* \* \*

ومع أهمية البحث في أوجه التشابه ، والتهايز بين الأحداث الثلاثة ، إلا أن الأهم من ذلك في دوافع كل منها ، بهدف استخلاص العبر ، والاستفادة من الدروس .

لقد بدأت أحداث يوم ٢٦ يناير ١٩٥٧ بتظاهرة سلمية ، قام بها جنود بلوكات النظام تضامنا مع زملائهم الذين قتل الإنجليز خمسين منهم فى مذبحة الإسهاعيلية فى اليوم السابق ، وخرجت التظاهرة فى الصباح الباكر من يوم السبت ٢٦ يناير من ثكناتها بالعباسية ، وهى تضم عددا يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠٠ جندى حاملين أسلحتهم قاصدين الجيزة حيث يعسكر ٥٠٠ من زملائهم ، فاتجهوا إلى جامعة

القاهرة حيث اختلطوا مع الطلبة في مؤتمر وطنى . وبعد تبادل الخطب والهتافات الحماسية ، خرج الطلبة ومعهم جنود بلوكات النظام في تظاهرة إلى مقر مجلس الوزراء مشارع قصر العيني فبلغته الساعة ٣٠ ، ١١ ، ولما كان رئيس الوزراء \_ النحاس باشا ملازما الفراش بسبب وعكة صحية ، فقد خرج إليهم وزير الشنون الاجتماعية - عبد الفتاح حسن باشا \_ وارتجل فيهم خطبة حماسية اختتمها بقوله : ( صدورنا قبل صدوركم ورقابنا قبل رقابكم ، واستمر الحوار بين المتظاهرين والوزير حتى الساعة ٣,٤٥ ، انصرف بعدها الجنود إلى ثكناتهم . وفي هذه الأثناء شهد ميدان إبراهيم باشا أول حوادث الحريق في الساعة ٣٠ و ١٢ عندما تقدمت مجموعة صغيرة من الرجال إلى الطابق الثاني من كازينو أوبرا وأشعلت فيه الحريق ، وألقت بالمقاعد والموائد المحترقة إلى ساحة الميدان بينها وقف الناس يتفرجون . وبعد نصف ساعة اندلعت النيران في دار سينها ريفولي . . وبعدها سينها راديو . . وحتى الساعة التاسعة والنصف كانت النار قد أتت على ٧٠٠ من المحلات التجارية ودور السينها والملاهى والنوادى الأجنبية . . وكانت عمليات التدمير تجرى بطريقة واحدة ومتشابهة عن طريق مجموعة من الرجال في زى العمال وهم يحملون البلط والأجنات والجرادل وصفائح البنزين والجاز وكرات القماش ، فكانوا يتقدمون إلى المحلات المغلقة ويكسرون أبوابها ، ويخرجون بعض محتوياتها ويشعلونها في عرض الطريق ثم ينثرون المواد الملتهبة في داخل المحل فيتحول إلى كتلة من اللهب ، وأثناء ذلك كانت تتحرك في منطقة الأحداث سيارات جيب ولوريات تحمل صفائح البنزين وتسلمها للجاعات المكلفة بالإحراق ، وتصدر إليهم تعليات بالأمكنة ، وتدفع لهم نقودًا ، ثم يقومون بتخريب سيارات الإطفاء عندما حاولت القيام بمهاتها ، مما يقطع بأنها عمليات مدبرة بإحكام ( المصدر : كتاب حريق القاهرة تأليف جمال الشرقاوي).

\* \* \*

أما أحداث ١٨ يناير ١٩٧٧ ، فقد اندلعت عندما قرأ الناس صحف الصباح فاكتشفوا أن الحكومة رفعت الدعم عن بعض السلع الغذائية ، فى نفس الوقت الذى تبخرت فيه آمال الرخاء التى روح لها الرئيس الراحل أنور السادات مع بداية مرحلة الانفتاح الاقتصادى ، وشعرت الجاهير بالإحباط الشديد ، فخرجت التظاهرات

من المصانع المحيطة بالقاهرة ، ثم تقدمت نحو قلب المدينة قاصدة مجلس الشعب الإبلاغ صوتها إلى نواب حزب مصر العربى الاشتراكى (حزب الحكومة) ، ولكن قوات الأمن المركزى تصدت للتظاهرات ، وتحول الصدام إلى هرج ومرج ، فانطلقت الأيدى العابثة تحطم واجهات المحلات ، وتنهب ما فيها من سلع ومحتويات . . وفى اليوم التالى ، ازدادت حدة التجمهر والتخريب حتى أمر الرئيس السادات بإنزال القوات المسلحة إلى الشوارع وفرض حظر التجول .

وقد حاول الرئيس السادات ، تعليق مسئولية هذه الأحداث في رقبة حزب التجمع وبعض الجهاعات الشيوعية المحظورة ، بحجة أنها تريد الانتقام منه ، لأنه أطاح بمراكز القوى يوم ١٥ مايو ١٩٧١ . وقال ممدوح سالم في بيانه أمام مجلس الشعب إن ما تكشف مما تم ضبطه من النشرات الصادرة عن بعض التنظيات السرية الشيوعية ، يشير إلى أن عناصر التآمر قد رتبت نفسها سلفا لتنفيذ مخططها في أية فرصة مناسبة ، ولم تكن قرارات الإصلاح الاقتصادي \_ يقصد قرارات زيادة الأسعار \_ إلا نقطة الصفر التي حدودها موعدا للقيام بمحاولة تستهدف ضرب ثورة ١٥ مايو . . وقال إن هذا المخطط الإجرامي المشبوه يهدف إلى إرجاع عجلة التاريخ الي الوراء وإنهاء ثورة ١٥ مايو المجيدة ، وأطلق الرئيس السادات على أحداث ذلك اليوم وصف « انتفاضة الحرامية ، ودا على عملية التمجيد التي خلعها أقطاب اليسار على أحداث لم يكن أمرًا عابرًا في تاريخ الشعب المصرى ، ولكنه انتفاضة شعبية ، لها دوافعها التي لا تزال قائمة ، وتحمل عوامل مكرارها شكلا وموضوعا ، وكان آخرها ما وقع في كفر الدوار يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٨٤ تكرارها شكلا وموضوعا ، وكان آخرها ما وقع في كفر الدوار يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٨٤ تكرارها شكلا وموضوعا ، وكان آخرها ما وقع في كفر الدوار يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٨٤ ) .

وقدمت النيابة ١٧٦ متها إلى المحاكمة أمام محكمة أمن الدولة العيا ، انتهت بالحكم على عدد قليل منهم بأحكام بسيطة ، وصححت المحكمة في حيثيات حكمها بعض الدعاوى التي أشاعها السادات حول الإعداد المسبق من جانب الجهاعات اليسارية ، فقالت المحكمة : إن ما تؤمن به المحكمة ، ويطمئن إليه ضميرها ووجدانها ، أن تلك الأحداث الجسام التي وقعت يومي ١٨ و ١٩ يناير كان سببها المباشر والوحيد هو إصدار القرارات الاقتصادية برفع الأسعار ، ولا يمكن

فى مجال العقل والمنطق أن ترد تلك الأحداث إلى سبب آخر غير تلك القرارات فلقد صدرت على حين غرة ، وعلى غير توقع من أحد وفوجئ بها الناس جميعا ، بمن فيهم رجال الأمن ، فكيف يمكن فى حكم العقل أن يستطيع أحد أن يتنبأ بها ، ثم يضع خطة لاستغلالها ، ثم ينزل إلى الشارع للناس محرضا ومهيجا !! إن فردًا مها بلغ من قوة ودراية وتنظيم ، ومها كانت سرعته ودقة تخطيطه ، لا يستطيع أن يحرك هذه الجموع الحاشدة فى لحظات ، ثم هو لا يستطيع أن يدفعها لتقوم بأعمال الحرق والتخريب والنهب والإتلاف ، ذلك أن مثل هذه الأعمال الشريرة لابد أن يقع الكثير منها بحكم اندساس اللصوص والمنحرفين ليمارسوا نشاطاتهم فى ذلك الخضم الهائج آمنين مطمئنين إلى أنه لن يمسك بهم أحد . .

وجاءت حيثيات الحكم ، صفعة للسلطات التى تعجز عن حل مشاكل الجماهير المستعصية ، فتلجأ إلى تلفيق التهم إلى خصومها ، واتهامهم بالإثارة والتحريض ، مع أن الجماهير ليست في حاجة إلى إثارة أو تحريض ، لأن المعاناة اليومية في حد ذاتها أكبر مشجع على الإثارة والتحريض .

وهى نفس الغلطة التى توشك الحكومة الحالية أن تقع فيها إذا سلمت بالدعاوى الباطلة التى تطلقها بعض الأقلام لتحميل المعارضة مسئولية (شحن) جنود الأمن المركزى ، وهى محاولة فجة للتهرب من مسئولية الحل الجذرى للمشاكل المتراكمة . . والبحث عن الحل الأسهل ، وهو تعليق المسئولية في رقبة المعارضة .

لقد فعلها أرباب النظام عندما عجزوا عن تفسير دوافع الهبة الشعبية يومى ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ ، ثم جاء القضاء ليصحح المفاهيم الخاطئة وراء تمرد جنود الأمن المركزى ، قبل إلصاق التهم بالمعارضة ، وتبحث الظروف الاجتماعية لهذه الشريحة الساكنة في قاع المجتمع . . ولكنها انتفضت في اللحظة التي لم نتوقع لها أن تنتفض فيها .

#### مجزرة طرة

في يوم السبت الحزين الموافق للفاتح من يونية ١٩٥٧ وقعت أحداث هذه المجزرة في ليهان طرة :

كان هناك ١٨٠ من رجال الإخوان المسلمين ، يقضون عقوبة الأشغال الشاقة المحكوم عليهم بها من محاكم الثورة من أكتوبر ١٩٥٤ ، وكانت مصلحة السجون قد اتخلت بعض الإجراءات الإنسانية تمشيا مع سياسية تحسين حال المسجونين . ومن بينها إعفاء المسجون من الصعود إلى جبل طرة لتكسير الصخور بعد انقضاء سنتين من هذا العمل الشاق ، يحول بعدهما للعمل في الورش داخل السجن ، ولما طالب الإخوان المسجونون بتطبيق هذا الإجراء عليهم كغيرهم من المسجونين العاديين، فوجئوا بالرد عليهم بأن قرار الإعفاء من الأشغال الشاقة لا يسرى على الإخوان المعرف عندئذ طالب الإخوان بعرض قضيتهم على النيابة العامة ، كما تقضى لائحة السجون فرفضت إدارة السجون .

وفى صبيحة اليوم المشتوم اعتصم الإخوان فى الزنازين ، ورفضوا الخروج إلى الجبل إلى أن يتحقق مطلبهم ، وانتدبوا أربعة منهم للتعاوض مع إدارة السجر وبينها المفاوضات جارية فى المكاتب ، كان خبر الاعتصام قد تسرب إلى المراجع العلي فى الدولة ، فأصدرت قرارها التاريخي باستئناف سياسة الإبادة التي توقفت بعد مذابح السجن الحربي . وضرب الإخوان فى المليان . . !!

وتقدمت فرقة من السجانة ، ففتحت بعض زنازين الإخوان واحدة بعد واحدة وأخرجت من فيها بالقوة ، وربطتهم في سلسلة جماعية ، وأدرك الإخوان أنهم سوف يساقون قهرًا إلى الجبل ليفتك بهم رصاص الحرس . ثم يقال إمهم كانوا يحاولون

الهرب. ا ولم يشأ الإخوان أن يستسلموا كالذبائح أمام جلاديهم ، واستطاع أحدهم أن يختطف المفتاح من الحارس وأسرع إلى فتح الزنازين وأخبر الإخوان بها يدبر لهم .

وحان وقت صلاة الظهر ، فاتجه الإخوان للوضوء والاستعداد للصلاة ، وفجأة تقدمت فصيلة من حرس السجون مسلحة بالرشاشات ، وصعد الجنود السلم وتوقف نصفهم في ممرات الطابق الثاني ، بينها واصل الباقون صعودهم ، فاتخذوا مواقعهم في الطابق الرابع ، وصوب الجميع فوهات المدافع نحو الطابق الثالث ، ولم يأبه الإخوان لهذا المشهد وظنوه مجرد تهديد ، ولم يخطر ببالهم أن يصل الغدر إلى حد قتل المسجون الأعزل وهو وديعة في رقبة الدولة ، عليها أن تحميه وتصون حياته بمقتضى الشرائع والقوانين والأعراف واللوائح والتقاليد والعادات والأخلاق . . !! ولائحة السجون نفسها تتضمن إجراءات لمعاقبة المسجون إذا ارتكب خطأ أو امتنع عن العمل . . وليس بينها بالطبع قتل المسجون !!

وفي هذه اللحظة الرهيبة ، دخل قائد السجن ، فأخرج مسدسه وأطلق منه رصاصة كانت هي إشارة البدء ، انفتحت بعدها فوهات الجحيم على الإخوان الذين أصابهم اللهول والهلع والفزع ، وصاح أحدهم ؛ لا تخافوا ياإخوان .. هذا فشنك . .!! وقبل أن يكمل عبارته عاجلته رصاصة في رأسه فأردته قتيلا . . وأخذ الإخوان يتساقطون .. ويتصابحون .. ويتدافعون نحو الزنازين للاحتهاء بها . . ولكن الرصاص كان ينهمر عليهم كالمطر من النوافذ فيتساقطون بين قتيل وجريح . . وكان بعض الإخوان يوصدون الأبواب بظهورهم فتصدر التعليهات بصب النيران على الأبواب فيخترقها الرصاص فيصيب مقتلا عمن يقفون خلفها ، وكان بعض الضباط يضع فوهة الرشاش على ثقب قالنضارة » الموحود بالباب ، ثم يفرغ خزانة الرشاش على من بالداخل . . وهناك تفاصيل يقشعر لها البدن يرويها جابر رزق في كتابه التسجيل عن المذبحة .

وبعد ساعة توقف إطلاق النار ، وغادرت فرقة الإعدام مبنى السجن ، ولكن عملية الإبادة لم تتوقف ، فقد تقدمت فرقة أخرى من الأشاوس من حملة الشوم لتجهز على كل من يصادفها من الجرحى الذين تساقطوا في المر وعجزوا عن الحركة ثم تقدمت فرقة ثالثة ، فاقتحمت الزنازين ، وأخرجت منها الجرادل والأواني وألقت

فصائل الإخوان ، ولما وضحت سذاجة هذا التفسير جاءوا برجال مباحث في ثياب وكلاء نيابة ، وسجلوا أن الإخوان كانوا يعتزمون الفتك بحرس السجن . . رغم عدم وجود جريح واحد من السجانة . . وتقرر حفظ التحقيق و إسدال الستار على المجزرة التى راح ضحيتها ٢١ شهيدًا و٢٢ جريحا . . وفقد بعضهم عقله من هول ما رأى . .

وفى اليوم التالى . . وتحت جنح الظلام ، كان هناك طابور حزين يغادر مبنى ليهان طرة تحت حراسة مشددة من البوليس ، وكان الطابور يضم ٢١ نعشا انطلقت جهم السيارات نحو جهات مختلفة من مصر ودفنوهم ليلا وكأن شيئًا لم يكن .

#### محتويات

0	مصر الجدايدة
9	سلطان المادحينسلطان المادحين
14	أدب البصل
17	قصيدة الاستقبالقصيدة
19	دنشواي الصغيرة
24	نشأة الأحزاب المصرية
27	حزب النبلاء والحزب الجمهوري
41	ا جعانین یافندینا ،
40	الحزب الاشتراكي المبارك
<b>۳</b> ۸	الحزب القبطى
73	إخوان الوطنية
63	سعد زغلول الأفغاني الأفغاني
81	بين تُورتين
01	ثورة النساء
0 2	شهيد أسيوط
OV	شهيد حلوان
٦.	الشيخ ١٣ يولية
75	دولت فهمي
77	نموت وتحيا مصر
79	ا يهوذا الصرى

77	ثمن الخيانة
VO	زملاء الكفاح القديم
٧٨	عندما ينقلب السحر على الساحر
۸١	سعد أو الثورة
۸۳	بنك مصر
71	سنهار المصرى
44	بنات الحور
94	مدبح الإنجليزمدبح الإنجليز.
97	عاقر رغم أنفها
	محامى العظهاءم
1.0	هوان الإنسان
1.4	أدب الحشيش
111	شخصية الزعيم
114	دواء غير صالحدواء غير صالح
114	القاضى النزيه
14.	الوزارة الشعبية
144	حزب العرش
177	أول انتخابات مصرية
179	ثوب فضفاض
141	البرلمان في الكونتنتال
141	إضراب العمد
149	مهزلة انتخابيةمهزلة انتخابية.
784	إجرام في إجرام
184	وفدية سعدية زغلولية
10.	لطمة ملوكية
104	نزاهة النحاس
107	اليدالحديدية

109							•								•	•		•	•							•			İ	نة	سرا	ک د	زب	حاد
177																															_			
170																													_					براء
AFF																																		
171																																		نقا
178																																		أكبر
177																															_			البر.
۱۸۰																																		مذب
144																													-					مرو
781																																		
119																																		لم
191																																		Щ
197																																		
۲.,																																		لحة
3 • 7	•		•								٠	•			•			•	•					ں	اس	>	لنه	1	٣	^	ے	Ш	11	يحيا
<b>۲ • ۸</b>																																		خاة
717																																		على
710																																		أكذ
717																																		صا
414																																		النه
177			•	•								•	•	•		•				•	•	•	•	•	•	•				•	:ح	نلا		رجا
7 7 Y 7 Y Y	•				•		•	•		•	•		•	-	•	•	•	•		•		•	•	•	•	•	•	•	Ö	ود	الث		نما	محك
777	•				•	•		•		•		•			٠	•			•	•	•			•			•	٠,		S	و-	(	•••	خه
777		•		•		•			•			•	•	•						•			•			•	•	. '	•	ن	وط	الو	نة	خيا
747			•		•	•	•	•	•		•	•	•	•		•	•	•	•		•	•	•	•	•	•	•			. 3	سوا	لس	ام	الأيا
137																																		

4

# ن المالية المالية

ما أحوجنا أن نعرف ماضينا حتى نعرف أنفسنا ، لأن الإنسان الذي يعيش بلا تاريخ أشبه بالإنسان الذي يعيش بلا ذاكرة . والتاريخ هو خزانة الذكريات التي نستمد منها الزاد الثقافي والروحي اللازم لبناء الشخصية المصرية .

ومؤلف هذا الكتاب \_ جمال بدوى \_ عشق التاريخ ، وجعل صنه مادة صحفية مشوقة ، لإيهانه بأن التاريخ عنصر أساسى فى تربية الأمة ، فقدم لنا هذه الفصول من تاريخ مصر الحديث باسلوب سلس ، وبساطة متناهية خالية من التقعر والتعقيد ، وأنت عندما تطالع هذا الكتاب، فسوف تشعر أنك تستمع إلى صديق يروى لك أحداث الماضى في عبارات مشحونة بالصدق والدفء والعاطفة .

إن هذا الكتاب جرعة دسمة ، ولكنها تثير شهية القارئ إلى طلب المزيد من المعرفة التاريخية التي يفخر بها تاريخ مصر .



## Thanks to assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com